بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۱

فی مقدمات الاخلاق (۱)

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

المقدمة

أهميّة الأبحاث الأخلاقيّة

لايخفي أنّ المسائل الأخلاقيّة، تخطي بأهميّةٍ كبيرةٍ في كلّ زمانٍ، ولكنّ في عصرنا الحاضر، إكتسبت أهمية خاصة. لايُعتبر الإنسان إنساناً إلّا باخلاقه، و إلّا سوف يصبح حيواناً ضارياً كاسراً.

الآيات الاخلاقية تقرّر حقيقةً واحدةً، و هي أنّ إحدي الأهداف المهمّة لبعثة النّبي الأكرم(ص)، هو تزكية النّفوس و تربيّة الإنسان، و بلورة الأخلاق الحسنة.

ولأجل ذلك يمكن تعليل تقدم كلمة: «**التزكية**»، علي «**التعليم**» في الآية الكريمة [هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ] {الجمعة:٢}، من حيث إنّ «**التّزكية**» هي الهدف والغاية النهائيّة، وإن كان «**التّعليم**» من الناحية العمليّة مقدمٌ عليها.

نستفيد من الآيات، الإهتمام الكبير للقرآن الكريم بالمسائل الأخلاقيّة وتهذيب النفوس، بإعتبارها مسألةً أساسيّةً، تنشأ منها وتبتني عليها جميع الأحكام والقوانين الإسلاميّة، فهي بمثابة القاعدة الرّصينة و البناء التحتي، الذي يقوم عليه صرح الشّريعة الإسلاميّة.

نعم إنّ التّكامل الأخلاقي **للفرد** و **المجتمع**، هو أهم الأهداف التي تعتمد عليه جميع الأديان السّماوية، إذ هو أساس كلّ صلاحٍ في المجتمع، و وسيلةٍ رادعةٍ لمحاربة كلّ أنواع الفساد و الإنحراف، في واقع الإنسان و المجتمع البشري في حركة الحياة.

المحتوي العلمي

مقدّمة في المفاهيم و الكليّات

علاقة العلم بالأخلاق

القرآن الكريم، أتي ب: «**تعليم الكتاب والحكمة**» إلي جانب: «**التزكية والتّهذيب الأخلاقي**»، فتارةً يقدِّم «**التّزكية**» علي «**التّعليم**»، و اخري يقدِّم «التعليم» علي «التزكية»، و هو أمر يُبيّن مدي العلاقة الوثيقة التي تربط بين الإثنين.

وهذا يعني أنّ الإنسان، عندما ينفتح علي المعرفة، و تكون لديه خبرةٌ بالأعمال الحسنة والسيئة، ويعرف عواقب «**الفضيلة**» و «**الرذيلة**»، فممّا لاشك فيه أنها ستؤثر في تربيته، بحيث يمكن القول أنّ كثيراً من الرذائل ناتجة من عدم الإطّلاع والفهم. ومن ذلك يمكن القول؛ أنَّه إذا ما إستطعنا أن ننهض بالمستوي العلمي للأفراد، وبعبارةٍ اخري: إذا أمكننا نشر الثقافة بين الناس، فستحل الفضائل مكان الرّذائل، وإن كان هذا الأمر ليس كليّاً.

تعريف علم الأخلاق

أخلاق جمع خُلق (علي وزن قُفل)، و خُلُق علي وزن افُق، وعلي حدّ تعبير الرّاغب في كتابه المفردات، أنّ هاتين الكلمتين ترجعان إلي أصلٍ واحدٍ، و هو «خلق» بمعني الهيئة والشّكل الذي يراه الإنسان بعينه، والخُلق بمعني القوي و السّجايا الذاتية للإنسان.

ولذا يمكن القول بأنّ: «**الأخلاق هى مجموعة الكمالات المعنويّة و السّجايا الباطنيّة للإنسان**»، و قال بعض العلماء: إنّ الأخلاق أحياناً تُطلق علي العمل و السّلوك، الذي ينشأ من الملكات النفسانية للإنسان أيضاً، فالأولي **الأخلاق الصفاتية** و الثانية **الأخلاق السلوكيّة**.

معني الخُلق و كيفيّة تهذيبه

الخُلق عبارة عن «**الصورة الباطنة**»، كما ان **الخَلق** عبارة عن «**الصورة الظاهرة**». يقال: «فلان حسن الخَلق و الخُلق» أي الظاهر و الباطن، و لكل منهما هيئة و صورة إما قبيحة و إما جميلة.

فالخُلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الافعال بسهولة و يُسر من غير حاجة إلي فكر و روية، فان كان الصادر عن تلك الهيئة أفعالاً جميلة محمودة **عقلاً** و ممدوحة **شرعاً** سمّيت تلك الهيئة «**خلقاً حسناً**»، و ان كان الصادر منها أفعالا قبيحة سميت «**خلقاً سيئاً**».

و انما اشترط فيها **الرسوخ** لانّ من يصدر عنه بذل المال مثلاً علي الندرة لحاجة عارضة، لايقال «خلقه السخاء» ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ.

و انما شرطنا **السهولة** لانّ من يكلف بذل المال لايقال «خلقه السخاء».

و ليس الخُلق عبارة عن **الفعل**، فربّ شخص خلقه السخاء، و لايبذل اما لفقد المال أو لمانع آخر، و ربما يكون خلقه البخل و هو يبذل لباعث او رياء، و لا عبارة عن **القدرة** لانّ نسبة القدرة إلي الضدّين واحدة، و لا عن **المعرفة** فان المعرفة تتعلق بالجميل و القبيح جميعاً علي وجه واحد، بل هو عبارة عن هيئة النفس و صورتها الباطنة.

و كما ان حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لايتم بحسن العينين دون الانف و الفم و الخد، بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك لابد في الباطن من أربعة لابد من الحسن في جميعها حتي يتم حسن الخلق، فإذا استوت الاركان الأربعة و اعتدلت و تناسبت حصل حسن الخلق، و هي: قوة العلم، و قوة الغضب، و قوة الشهوة، و قوة العدل بين هذه القوي الثلاث.

فإذا أمهات الأخلاق الحسنة و الجميلة و أصولها أربعة: الحكمة، و الشجاعة، و العفّة و العدل. و لم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربعة الاّ رسول اللّه(ص)، و لهذا أثني اللّه عليه قائلاً: [وَإِنَّکَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ] {القلم:۴} و الناس بعده يتفاوتون في القرب و البعد، فينبغي ان يقتدي به، فانّه(ص) قال: «بعثت لاتمم مكارم الأخلاق.»

و قد أشار اللّه تعالي إلي هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالي: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِکَ هُمُ الصَّادِقُونَ] {الحجرات:۱۵}

فالايمان باللّه و رسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين، و هو ثمرة العقل و منتهي الحكمة، و المجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلي ضبط قوة الشهوة، و المجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلي استعمال قوة الغضب علي شرط العقل و حد الاعتدال، و قد وصف اللّه تعالي به قوما فقال: [أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ] {الفتح:۲۹} ، إشارة إلي ان للشدة موضعاً و للرحمة موضعاً، و ليس الكمال بالشدة في كل حال و لا في الرحمة بكل حال.

لاريب في أن **التزكية** موقوفة علي **معرفة** مهلكات الصفات و منجيّاتها، و العلم بأسبابها و

معالجاتها، و هذا هو الحكمة الحقّة التي مدح اللّه أهلها، و لم يرخص لأحد جهلها، و هي الموجبة للحياة الحقيقة، و السعادة السرمديّة، و التارك لها علي شفاجرف الهلكات، و ربما أحرقته نيران الشهوات.

و لما جاءت الشريعة النبويّة «علي صادعها ألف صلاة و تحيّة» حثّت علي تحسين الأخلاق و تهذيبها، و بيّنت دقائقها و تفصيلها بحيث اضمحل في جنبها ما قرّره أساطين الحكمة و العرفان، و غيرهم من أهل الملل و الأديان.

نذكر أولاً بعض المقدّمات النافعة في المطلوب، ثم نشير إلي أقسام الأخلاق، و مبادئها من القوي و نضبطها بأجناسها و أنواعها و نتائجها و ثمراتها ثم إلي المعالجة الكليّة لذمائم الأخلاق و الجزئيّة لكلّ خلق مذموم، ممّا له اسم مشهور، و ما ينشأ عنه من الأفعال المذمومة، و في تلوه نذكر ضدّه المحمود، و ما يدلّ علي فضله عقلاً و نقلاً، لأنّ العلم بفضيلة كلّ خلق و المداومة علي آثاره أقوي علاج لإزالة ضدّه.

انقسام حقيقة الإنسان و مقام علم الاخلاق

اعلم أن الإنسان منقسم إلي سرّ و علن، و روح و بدن، و لكلّ منهما منافيّات و ملائمات، و آلام و لذّات، و مهلكات و منجيّات.

و منافيات البدن و آلامه هي الأمراض الجسمانيّه. و ملائماته هي الصحّة و اللّذّات الجسمانيّة. و المتكفّل لبيان تفاصيل هذه الأمراض و معالجاتها هو «**علم الطبّ**». و منافيات الروح و آلامه هي رذائل الأخلاق التي تهلكه و تشقيه، و صحّته رجوعه إلي فضائلها التي تسعده و تنجيه و توصله إلي مجاورة أهل اللّه و مقربيه. و المتكفل لبيان هذه الرذائل و معالجاتها هو «**علم الأخلاق**».

ثم إن البدن مادّي فانٍ، و الروح مجرّد باق، فإن اتصف بشرائف الصفات كان في البهجة و السعادة أبداً، و إن اتصف برذائلها كان في العذاب و الشقاوة مخلّداً.

فضائل الأخلاق و رذائلها

فضائل الأخلاق من المنجيّات الموصلة إلي السعادة الأبديّة، و **رذائلها** من المهلكات الموجبة

للشقاوة السرمديّة، فالتخلّي عن الثانية و التحلّي بالأولي من أهمّ الواجبات. و الوصول إلي الحياة الحقيقيّة بدونهما من المحالات، فيجب علي كلّ عاقل أن يجتهد في اكتساب فضائل الأخلاق المثبتة من صاحب الشريعة و الاجتناب عن رذائلها، و لو قصّر أدركته الهلاكة الأبديّة، إذ كما أن الجنين لو خرج عن طاعة ملك الأرحام المتوسط في الخلق، لم يخرج إلي الدنيا سويّاً سميعاً بصيراً ناطقاً، كذلك من خرج عن طاعة نبيّ الأحكام المتوسط في الخلق، لم يخرج إلي عالم الآخرة كذلك. قال الله تعالي في محكم كتابه: [وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا] {الإسراء:٧٢}

فإن الأخلاق المذمومة في القلب، هي مغارس المعاصي، فمن لم يطهر قلبه منها، لم تتمّ له الطاعات الظاهرة و إن تخلّت عن مساوئ الأخلاق و تحلّت بمعاليها علي الترتيب العلمي، استعدّت لقبول الفيض من ربّ الأرباب، و لم يبق لشدّة القرب بينهما حجاب، و حينئذ يصير موجوداً تاماً أبديّ الوجود، سرمديّ البقاء، فائزاً بالرتبة العليا، و السعادة القصوي، قابلاً للخلافة الإلهيّة و الرئاسة المعنويّة، فيصل إلي اللذات الحقيقيّة، و الابتهاجات العقليّة التي ما رأتها عيون الأعيان، و لم تتصوّرها عوالي الأذهان.

الخلاصة

١. المسائل الأخلاقيّة، تخطي بأهميّةٍ كبيرةٍ في كلّ زمانٍ، ولكنّ في عصرنا الحاضر، إكتسبت أهمية خاصة.

٢. إحدي الأهداف المهمّة لبعثة النّبي الأكرم(ص)، هو تزكية النّفوس و تربيّة الإنسان.

٣. إنّ التّكامل الأخلاقي للفرد و المجتمع، هو أهم الأهداف التي تعتمد عليه جميع الأديان السّماوية، إذ هو أساس كلّ صلاحٍ في المجتمع.

٤. يمكن تعريف الأخلاق بأنّ: «الأخلاق هي مجموعة الكمالات المعنويّة و السّجايا الباطنيّة للإنسان».

٥. الخُلق عبارة عن «الصورة الباطنة»، كما ان الخَلق عبارة عن «الصورة الظاهرة».

٦. ليس الخُلق عبارة عن الفعل، أو القدرة أو المعرفة، بل هو عبارة عن هيئة النفس و صورتها الباطنة.

٧. فضائل الأخلاق من المنجيّات الموصلة إلي السعادة الأبديّة، و رذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمديّة.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٢

فی مقدمات الاخلاق (٢)

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

المقدمة

الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية، و النفحات القدسية، إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس، فما لم يرتفع عنها، لم تتضخ لها جليّة الحال اتضاحاً، كيف و القلوب كالأواني فإذا كانت مملوءة بالماء لايدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير اللّه لاتدخلها معرفة اللّه و حبّه و أنسه، و إلي ذلك أشار النبيّ(ص) بقوله: «**لولا أنّ الشياطين يحومون إلى قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات و الأرض**» فبقدر ما تتطهر القلوب عن هذه الخبائث، تلألأ فيها حقائقه، كما أشار إليه(ص): «**إن لربّكم فى أيّام دهركم نفحات، ألا فتعرّضوا لها**» فإن التعرّض لها إنما هو بتطهير القلوب عن الكدورات الحاصلة عن الأخلاق الرديّة، فكلّ إقبال علي طاعة و إعراض عن سيّئة يوجب جلاء و نوراً للقلب، يستعدّ به لإفاضة علم يقيني، و لذا قال سبحانه: [وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا] {العنكبوت:۶۹}

المحتوي العلمى

الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف

الرحمة الإلهيّة بحكم العناية الأزليّة مبذولة علي الكلّ، غيرمضنون بها علي أحد، لكنّ حصولها موقوف علي تصقيل مرآة القلب و تصفيتها عن الخبائث الطبيعيّة، و مع تراكم صدأها الحاصل منها لايمكن أن يتجلّي فيها شيء من الحقائق، فلاتحجب الأنوار العلميّة و الأسرار الربوبيّة عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالي شأنه عن ذلك، بل الاحتجاب إنّما هو من جهة القلب، لكدورته و خبثه و اشتغاله بما يضادّ ذلك.

ثمّ ما يظهر للقلب من العلوم، لطهارته و صفاء جوهره، هو **العلم الحقيقي** النوراني الذي لايقبل الشكّ و له غاية الظهور و الإنجلاء، لاستفادته من الأنوار الإلهيّة و الإلهامات الحقّة الربانيّة، و هو المراد بقوله(ع): «**إنّما هو نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء**».

و إليه أشار مولانا أميرالمؤمنين(ع) بقوله: «**إنّ من أحبّ عباد اللّه إليه، عبداً أعانه اللّه على نفسه، فاستشعر الحزن و تجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه**».

و بالجملة؛ ما لم يحصل للقلب التزكية، لم يحصل له معرفة، إذ **العلم الحقيقي** عبادة القلب و قربة السرّ، و كما لاتصحّ الصلاة التي هي عبادة الظاهر إلاّ بعد تطهيره من النجاسة الظاهرة، فكذلك لاتصحّ عبادة الباطن إلاّ بعد تطهيره من النجاسة الباطنيّة التي هي رذائل الأخلاق و خبائث الصفات، كيف و فيضان أنوار العلوم علي القلوب، إنما هو بواسطة الملائكة و قد قال رسول اللّه(ص): «**لاتدخل الملائكة بيتاً فيه كلب**» فإذا كان بيت القلب مشحوناً بالصفات الخبيثة التي هي كلاب نابحة، لم تدخل فيه الملائكة القادسة، و الحكم بثبوت النجاسة الظاهرة للمشرك، مع كونه مغسول الثوب، نظيف البدن، إنما هو لسراية نجاسة الباطنية، فقوله(ص): «**بنى الدين على النظافة**» يتناول زوال النجاستين، و ما ورد من أنّ «**الطهور نصف الإيمان**» المراد به طهارة الباطن عن خبائث الأخلاق، و كان النصف الآخر تحليته بشرائف الصفات و عمارته بوظائف الطاعات.

تأثير التربية علي الأخلاق

الخُلق عبارة عن «**ملكة للنفس مقضية لصدور الأفعال بسهولة من دون احتياج إلى فكر و رويّة**». و **الملكة**: «**كيفيّة نفسانيّة بطيئة الزوال**». و بالقيد الأخير خرج **الحال** لأنها كيفيّة نفسانيّة سريعة الزوال، و سبب وجود الخلق إما المزاج، أو العادة بأن يفعل فعلاً بالروية، أو التكلّف و يصبر عليه إلي أن يصير ملكة له و يصدر عنه بسهولة و إن كان مخالفاً لمقتضي المزاج.

و اختلف الأوائل في إمكان إزالة الأخلاق و عدمه، و ثالث الأقوال أن بعضها طبيعي يمتنع زواله و بعضها غير طبيعي حاصل من أسباب خارجة يمكن زواله. و رجح المتأخرون الأول و قالوا: ليس شيء من الأخلاق طبيعيّاً و لا مخالفاً للطبيعة. بل النفس بالنظر إلي ذاتها قابلة للاتصاف بكلّ من طرفي التضادّ، إما بسهولة إن كان موافقاً للمزاج، أو بعسر إن كان مخالفاً له، فاختلاف الناس في الأخلاق لاختلافهم في الاختيار و المزاولة لأسباب خارجة.

ثمّ المراد من التغيير ليس رفع الغضب و الشهوة مثلاً و إماطتهما بالكليّة، فإن ذلك محال، لأنهما مخلوقتان لفائدة ضروريّة في الجبلّة، إذ لو انقطع الغضب عن الإنسان بالكليّة لم يدفع عن نفسه ما يهلكه و يؤذيّه و امتنع جهاد الكفار، و لو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبق حياته، و لو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرّة لضاع النسل، بل المراد ردّهما من الإفراط و التفريط إلي الوسط، فالمطلوب في صفة الغضب خلوّ النفس عن الجبن و التهوّر و الاتصاف بحس الحميّة، و هو أن يحصل إذا استحسن حصوله شرعاً و عقلاً، و لايحصل إذا استحسن عدمه كذلك. و كذا الحال في صفة الشهوة.

حصول السعادة بإصلاح جميع الصفات و القوي دائماً

لاتحصل السعادة إلاّ بإصلاح جميع الصفات و القوي دائماً، فلاتحصل بإصلاحها بعضاً دون بعض، و وقتاً دون وقت، كما أن الصحّة الجسميّة، و تدبير المنزل، و سياسة المدن لاتحصل إلاّ باصلاح جميع الاعضاء و الاشخاص و الطوائف في جميع الأوقات، فالسعيد المطلق من أصلح جميع صفاته و أفعاله (فرديّا و اجتماعياً) علي وجه الثبوت و الدوام، بحيث لا يغيّره تغيّر الاحوال و الازمان، فلا يزول صبره بحدوث المصائب و الفتن، و لا شكره بورود النوائب و المحن، و لا يقينه بكثرة الشبهات، و لا رضاه بأعظم النكبات، و لا إحسانه بالإساءة، و لاصداقته بالعداوة.

شرف علم الأخلاق بشرف موضوعه و غايته

لما عرفت أن الحياة الحقيقيّة للإنسان تتوقّف علي تهذيب الأخلاق، الممكن بالمعالجات المقرّرة في هذه الصناعة، تعرف أنها أشرف العلوم و أنفعها، لأنّ «**شرف كل علم إنما بشرف موضوعه أو غايته**»، فشرف صناعة الطبّ علي صناعة الدباغة بقدر شرف بدن الإنسان و إصلاحه علي جلود البهائم، و موضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الإنسان و لبّه، و هو أشرف الأنواع الكونيّة، و غايته إكمال و إيصاله من أول أفق الإنسان إلي آخره، و لكونه ذا عرض عريض متصلاً، أوله بأفق البهائم، و آخره بأفق الملائكة، فإن فيه أخس الموجودات و منه أشرف الكائنات.

و هذا العلم هو الباعث للوصول إلي أعلي مراتبهما، و به تتمّ الإنسانية و يعرج من حضيض البهيميّة إلي ذري الرتب الملكيّة، و أيّ صناعة أشرف ممّا يوصل أخس الموجودات إلي أشرفها، و

لذلك كان السلف من الحكماء لايطلقون العلم حقيقة إلاّ عليه، و يسمّونه بالإكسير الأعظم، و كان أول تعاليمهم، و يبالغون في تدوينه و تعليمه، و البحث عن إجماله و تفصيله، و يعتقدون أن المتعلم ما لم يهذب أخلاقه لاتنفعه سائر العلوم.

أجناس الرذائل و أنواعها

قد ظهر أنه بإزاء كلّ فضيلة رذائل غيرمتناهية من طرفي الإفراط و التفريط، و ليس لكل منها اسم معيّن و لايمكن عدّ الجميع و ليس علي صاحب الصناعة حصر مثلها، لأنّ وظيفته بيان الأصول و القوانين الكلّيّة، لا إحصاء الأعداد الجزئيّة.

و القانون اللازم بيانه هو أن الانحراف عن الوسط إما إلي طرف الإفراط أو إلي طرف التفريط، فيكون بإزاء كل فضيلة **جنسان** من الرذيلة و لما كانت أجناس الفضائل أربعة، فتكون أجناس الرذائل ثمانية.

«اثنان» بإزاء الحكمة «الجربزة و البله»؛ و «اثنان» بإزاء الشجاعة «التهور و الجبن»؛ و «اثنان» بإزاء العدالة و هما: «الظلم و الانظلام».

أما جنسا الرذيلة **للقوة العقلية**، «فأولهما» (الجربزة و السفسطة) و هي من طرف الإفراط، و «ثانيهما» (الجهل البسيط) و هو من طرف التفريط و ضدهما (العلم و الحكمة).

و أما جنسا الرذائل **للقوة الغضبية**، «فأولهما» (التهور) و «ثانيهما» (الجبن)، و قد عرفت أن ضدهما من الفضيلة (الشجاعة).

و أما جنسا الرذائل المتعلقة **بالقوة الشهوية**، «فأحدهما» (الشره) و «ثانيهما» (الخمود) و ضدهما (العفة).

تنبيه

اعلم أن إحصاء الفضائل و الرذائل و ضبطهما، و إدخال البعض في البعض، و الإشارة إلي القوة الموجبة لها، مما لم يتعرض له علماء الأخلاق، بل إنما تعرضوا لبعضها، و يظهر من كلامهم في بعض المواضع المخالفة في الإدخال.

و السر فيه أن كثيرا من الصفات لها جهات مختلفة كل منها يناسب قوّة، فالاختلاف في الإدخال لأجل اختلاف الاعتبار للجهات.

ثم بعض الصفات ربما كان ببعض الاعتبارات محموداً معدوداً من الفضائل، و ببعض الاعتبارات معدوداً من الرذائل، و ذلك كالمحبّة و الخوف و الرجاء، فإن الحبّ إن كان متعلقاً بالدنيا و متعلقاتها كان مذموماً معدوداً من الرذائل، و إن كان متعلقاً باللّه و أوليائه كان محموداً معدوداً من الفضائل، و الخوف إن كان مما لايخاف منه عقلاً كان من رذائل قوة الغضب، و إن كان من المعاصي أو من عظمة اللّه كان من فضائلها، و الرجاء إن لم يكن في موضعه كان من الرذائل و إن كان في موقعه كان من الفضائل. و قس عليها غيرها مما له الاعتبارات المختلفة.

طريق معرفة الأمراض (الرذائل) النفسانية

الأمراض النفسانيّة هي انحرافات الأخلاق عن الاعتدال. و طريق معرفتها: أنك قد عرفت أن القوي الإنسانيّة محصورة في أنواع ثلاثة: **أحدها** قوة التمييز، و **ثانيها** قوة الغضب و يعبر عنها بقوة الدفع، **و ثالثها** قوة الشهوة و يعبّر عنها بقوّة الجذب. و انحراف كل منها إما في الكمّيّة او في الكيفيّة، و الانحراف في الكمّيّة إما للزيادة من الاعتدال أو للنقصان عنه، و الانحراف في الكيفيّة إنما يكون برداءتها. فأمراض كل قوة إما بحسب الإفراط أو التفريط، أو بحسب رداءة الكيفيّة.

فالإفراط في قوة التمييز: كالجربزة و الدهاء، و التجاوز عن حد النظر، و المبالغة في التنقير[1]، و التوقف في غير موضعه للشبه الواهية، و الحكم علي المجردات بقوة الوهم، و إعمال الذهن في إدراك ما لايمكن دركه، و التفريط فيه كالبلاهة، و قصور النظر عن درك مقدار الواجب، كإجراء أحكام المحسوسات علي المجردات. و الرداءة كالسفسطة في الاعتقاد، و الميل إلي العلوم الغير اليقينية – كعلم الجدل و الخلاف – أزيد مما يميل إلي اليقينيات و استعمالهما في مقام اليقينيات، و الشوق إلي علم الكهانة و الشعبذة و أمثالهما للوصول إلي الشهوات الخسيسة.

و أما الإفراط في قوة الدفع: كشدة الغضب و الغيظ و فرط الانتقام بحيث يتشبه بالسباع. و أما

---

١ . التنقير: البحث و التتبع.

التفريط، كعدم الغيرة و الحمية و التشبه بالأطفال و النسوان في الأخلاق و الصفات. و أما الرداءة فيها: كالغيظ علي الجمادات و البهائم أو علي الناس لا بسبب موجب للانتقام.

و أما الإفراط في قوة الجذب: فكالحرص علي الأكل و الجماع أزيد من قدر الضرورة. و التفريط فيه: فكالفتور عن تحصيل الأقوات الضرورية و تضييع العيال و الخمود عن الشهوة حتي ينقطع عنه النسل. أما الردادة فيها: كشهوة الطين و الميل إلي مقاربة الذكور.

ثم إنك قد عرفت أن أجناس الفضائل أربعة، فأجناس الرذائل بحسب الكمية ثمانية، لكل فضيلة ضدان كل منهما ضد للآخر، و بحسب الكيفية أربعة، و يحصل من تركيبها و امتزاجها أنواع و أصناف لايعد كثرة، كما عرفت.

أسباب الأمراض النفسانية

اعلم أن أسباب الانحراف في الأخلاق، إما **نفسية** حاصلة في النفس في بدو فطرتها، أو **حادثة** من مزاولتها للأعمال الردية، أو **جسمية** – و هي الأمراض الموجبة لبعض الملكات الردية – و السر في ذلك أن النفس لما كانت متعلقة بالبدن علاقة ارتباطية، فيتأثر كل منهما بتأثر الآخر، و كل كيفية تحدث في أحدهما تسري في الآخر. كما أن غضب النفس أو تعشقها يوجب اضطراب البدن و ارتعاشه، و تأثر البدن بالأمراض، لاسيما إذا حدثت في الأعضاء الرئيسية يوجب النقص في إدراك النفس و فساد تخيلها و كثيراً ما يحدث من بعض الأمراض السوداويّة فساد الاعتقاد و الجبن و سوء الظن، و من بعضها التهور، و يحصل من أكثر الأمراض سوء الخلق.

المعالجات الكلية لمرض النفس

سبب الانحراف إن كان مرضاً جسمانياً فيجب أن يبادر إلي إزالته بالمعالجات الطبية، و إن كان نفسانياً فالمعالجة الكلية هنا كالمعالجة الكلية في الطب الجسماني. و المعالجة الكلية فيه أن يعالج المرض أولاً بالغذاء الذي هو ضد المرض طبعاً، كأن يعالج المرض البارد بالغذاء الحار، فإن لم ينفع فبالدواء و إن لم ينجع فبالسمومات، و إن لم يحصل بها البرء فبالكي أو القطع، و هو آخر العلاج. فالقانون الكلي في المعالجة هنا أيضا كذلك، و هو أن يبادر بعد معرفة الانحراف إلي تحصيل الفضيلة

التي هي ضده، و المواظبة علي الأفعال التي هي آثارها، و هذا بمنزلة الغذاء المضاد للمرض، فكما أن حصول الحرارة في المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه. فكذا كل فضيلة تحدث في النفس تزيل الرذيلة التي هي ضدها. فإن لم ينفع فليوبخ النفس و يعيرها علي هذه الرذيلة فكراً أو قولاً أو عملاً، و يعاتبها و يخاطبها بلسان الحال و المقال: أيتها النفس الأمارة قد هلكت و تعرضت لسخط اللّه و غضبه، و عن قريب تعذبين في النار مع الشياطين و الأشرار. فإن لم يؤثر ذلك فليرتكب آثار الرذيلة التي هي ضد هذه الرذيلة، بشرط محافظة التعديل.

فصاحب الجبن مثلاً يعمل أعمال المتهورين، فيخوض في المخاوف و الأهوال، و يلقي نفسه في موارد الحذر و الأخطار. و صاحب البخل يكثر من بذل الأموال، بشرط أن يكف إذا قرب زوال الجبن و البخل لئلا يقع في التهور و الإسراف، و هذا بمنزلة المداواة بالسم. فإن لم ينفع ذلك لقوة استحكام المرض فليعذب النفس بأنواع التكاليف الشاقة و الرياضات المتعبة المضعفة للقوة الباعثة علي هذه الرذيلة، و هذا بمثابة الكي و القطع، و هو آخر العلاج.

الخلاصة

١. الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية، و النفحات القدسية، إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس، فما لم يرتفع عنها، لم تتضح لها جليّة الحال اتضاحاً.

٢. ما لم يحصل للقلب التزكية، لم يحصل له معرفة.

٣. لاتحصل السعادة إلاّ بإصلاح جميع الصفات و القوي دائماً، فلاتحصل بإصلاحها بعضاً دون بعض، و وقتاً دون وقت.

٤. إن علم الاخلاق أشرف العلوم و أنفعها، لأنّ «شرف كل علم إنما بشرف موضوعه أو غايته».

٥. بعض الصفات ربما كان ببعض الاعتبارات محموداً معدوداً من الفضائل، و ببعض الاعتبارات معدوداً من الرذائل.

٦. أسباب الانحراف في الأخلاق، إما نفسية، أو حادثة، أو جسمية.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٣

في المذاهب الاخلاقية

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

المقدمة

يقوم كل نظام أخلاقي علي ثلاثة اُصول موضوعية، هي:

١. ان للانسان حرية الاختيار.

٢. ان الانسان يسعي في أعماله الاختيارية نحو هدف مطلوب في ذاته.

٣. الطريق الوحيد لبلوغ ذلک الهدف هو التمسک بالقيم الاخلاقية، بمعني ان سعادة الانسان وشقاءه رهن بأعماله الاختيارية.

طبيعي ان من الانظمة الاخلاقية ما لاتُعني بتفاصيل هذه الاصول، فلا تطرحها في إطار اصولها الموضوعية، لكن التمعن الدقيق في طبيعة تلک الانظمة يبرهن علي انها تعتقد بتلک الاصول.

ولما كان النظام الاخلاقي الاسلامي يشترک مع جميع الانظمة الاخلاقية في الارتكاز علي الاصول المذكورة، ينهض السؤال عن الفارق الاساس بين النظام الاخلاقي الاسلامي وغيره من الانظمة الاخلاقية، وهو ما نوضح الاجابة عنه في السطور الاتية.

المحتوي العلمى

١. الأخلاق في مدرسة الموحّدين

هؤلاء يذهبون إلي أنّ اللّه تعالي خالق الكائنات كلّها، فنحن منه ونعود إليه. والهدف من خلق الإنسان، هو التّكامل في الجوانب المعنويّة و الروحيّة، و مادام التقدم المادي و التّطور الحضاري للبشرية، يتحرك في خطّ التكامل المعنوي، فهو يُعتبر هدفاً معنويّاً أيضاً.

ويمكن تعريف التّكامل المعنوي بأنّه: «**القرب من اللّه تعالى، والسّير على الطّريق الذى يقرّب الإنسان لصفات الكمال الإلهيّة**».

و إعتماداً علي هذا المعيار، فإنّ الأخلاق من وجهه نظر هذا المذهب، هي كلّ صفات الأفعال التي تساعد الإنسان في سيره علي هذا الطريق، و التّقييم الأخلاقي في هذا المذهب، يدور حول القِيَم و المُثل و الكَمالات الرّوحية و المعنويّة و القُرب من اللّه تعالي.

٢. الأخلاق المادية

من المعلوم أنّ المادّيين لهم مذاهب متعددّة، و المعروف منها الشيوعيّة، حيث يرون كلّ شيء من خلال منظار المادّة، و لايؤمنون باللّه والمسائل الروحيّة و المعنويّة، ويقولون بأصالة الإقتصاد، و يعطون للتأريخ ماهيّةً مادّيّةً و إقتصاديةً، فكلّ شيء يؤدي إلي تقوية الإقتصاد الشّيوعي في المجتمع، فانّه يعتبر من الأخلاق أو علي حد تعبيرهم: «كلّ شيء يعجّل في الثورة الشيوعيّة، فهو الأخلاق»، فمثلاً المعيار الأخلاقي للكَذب و الصّدق، يقاس بمدي تأثير ذلك السّلوك الأخلاقي علي الثّورة، فإذا أدّي الكذب إلي التسّريع بالثورة فهو أمر أخلاقي، وإذا أضرّ الصّدق بالثّورة، فهو أمر غير أخلاقي!

و المذاهب الماديّة الاخري كذلك، فكلّ مذهب يُفسّر الأخلاق حسب ما يرتئيه مسلكه، فالّذين يقولون بأصالة اللّذة، و الإستفادة من اللذائذ الماديّة، لايوجد شيء عندهم بإسم الأخلاق، أو بالأحري أنّ الأخلاق عندهم، هي الصّفات و الأفعال الّتي تمهد الطّريق للوصول إلي اللذّة.

وأمّا الّذين أعطوا الأصالة للفرد والمصالح الشخصيّة، والمجتمع محترم عندهم مادام منسجماً مع منافع الفرد الشّخصية، (كما هو الحال في المذاهب الغربية الرأسمالية)، فهم يفسّرون الأخلاق بالامور التي توصلهم إلي مصالحهم الماديّة و الشخصيّة، و يضحّون بكلّ شيء لأجل هذه الغاية.

٣. الأخلاق من وجهة نظر الفلاسفة العقليّين

أمّا الفلاسفة الذين يقولون بأصالة العقل، ويذهبون إلي أنّ غاية الفلسفة هي: «صَيرورة الإنسان عالماً عقليّاً مضاهياً للعالم العيني»، ففي مجال الأخلاق، يفسّرون الأخلاق بالصّفات و الأعمال التي تساعد الإنسان علي تحكيم العقل، و سيطرته علي القوي و النّوازع البدنية، بعيداً عن الخضوع للشّهوات و الطّبائع الحيوانيّة، و الأهواء النّفسية في حركة الحياة.

٤. الأخلاق في مذهب محوريّة الغير

جماعة اخري من الفلاسفة أعطت الأصاله للمجتمع، وقالوا أنّ الأصالة للجماعة لا للفرد، فهم يفسّرون الأخلاق بالأفعال التي يكون الغير فيها هو الهدف، وكلّ فعل يعود بالنّفع للإنسان نفسه، فهو فعل غير أخلاقي، والأفعال التي يكون محورها نفع الغير تكون أخلاقيّة.

٥. الأخلاق في المذهب الوجداني

قسم من الفلاسفة قالوا بأصالة الوجدان لا العقل، ويمكن تسميتهم ب: «الوجدانيّين»، أو بمؤيّدي: «الحسن والقبح العقلي»، و قصدهم من ذلك العقل العملي لا النّظري، فالأخلاق عندهم عبارةٌ عن سلسلة من الامور الوجدانيّة غير البرهانيّة، أي أنّها تُدرك بدون حاجةٍ إلي منطقٍ و استدلالٍ، فمثلًا الإنسان يدرك أنّ العدل حسنٌ، و الظّلم قبيحٌ، و يُشخّص أنّ الإيثار و الشّجاعة أمران جيّدان، الأنانيّة و الظّلم و البخل امورٌ قبيحةٌ، و لايحتاج في إدراك هذا المعني، إلي إستدلال عقلي من خلال دراسة تأثير هذه الأفعال و السّلوكيات في واقع الفرد والمجتمع.

وعليه يجب أن نتحرك من موقع تقوية الوجدان الأخلاقي في الإنسان، و نُزيل من الطّريق كلّ ما يُضعف الوجدان، وبعدها سنري أنّ الوجدان قاضٍ و حاكمُ جيّدٌ لتشخيص الأخلاق الحسنة من القبيحة.

المؤيدون: «للحُسن و القُبح العقليين»، رغم أنّهم يتكلّمون دائماً عن العقل، ولكن ومن الواضح أنّهم يقصَدون العقل الوجداني، لا العقل الإستدلالي، فهم يقولون إنّ حُسن الإحسان، و قبح الظّلم في الدائرة الأخلاقيّة لايحتاج فيهما إلي دليل وبرهان، فالإنسان السّليم النّفس يعيش هذه المفاهيم الأخلاقية، من موقع الوضوح في الرؤيّة والبداهة، وعلي هذا فإنّهم يقولون بالأصالة للوجدان في دائرة الأخلاق.

ولكن الكثير منهم لاينكرون سكوت الوجدان عن بعض الامور، و عدم إدراكه لها، وهنا يجب الإستعانة بالشّريعة والوحي لفصل الامور الأخلاقية عن غيرها، وبالإضافة إلي ذلك، إذا ورد تأييد من الشّرع لما حكم به العقل، فإنّ ذلك سيكون عاملاً مهماً في ترسيخ هذه المفاهيم في عالم الوجدان، و ترجمتها علي مستوي الممارسة والعمل.

تنبيه

فتتبيّن مما ذكرنا خصوصيات المذهب الأخلاقي للإسلام بصورةٍ كاملةٍ، حيث يري أنّ:

«أساس هذا المذهب الأخلاقى، هو الإيمان بربوبيّة اللّه تعالى، الذى هو الكمال المطلق و

مُطلق الكمال و أوامره ساريةٌ و جاريةٌ على جميع العالم، وكمال الإنسان فى تطبيق صفاته الجلاليةِ و الجماليّة، و القرب من اللّه تعالى أكثر فأكثر».

فإن المعيار الأخلاقي و الفضائل و الرّذائل في الإسلام تُعيّن من قبل الباري تعالي، وذاته ثابتةٌ لاتتغير، فالمُثل و القِيم الأخلاقيّة ستكون ثابتةً و لاتتغير، ويجب أن تكونَ هي القاعدةُ الأصلُ للأفراد والمجتمع في سلوكهم الأخلاقي، لا أن تكون الأخلاق تابعةٌ لرغبات و مُيول المجتمع.

الموحدون يعتقدون أنّ الفطرة والوجدان الإنساني إذا لم تتلوث؛ فستبقي ثابتةً أيضاً، بإعتبارها تمثل النّور المنعكس عن الذّات المقدسة للباري تعالي.

اصول المسائل الأخلاقيّة في الاسلام

من التّقسيمات الّتي يمكن إستيحاؤها و إستفادتها من مجموع الآيات القرآنية و روايات المعصومين(ع)، هو تقسيم اصول الأخلاق إلي أربعة أقسام:

١. المسائل الأخلاقيّة المتعلّقة **بالخالق**.

٢. المسائل الأخلاقيّة المتعلّقة **بالخَلق**.

٣. المسائل الأخلاقيّة المتعلّقة **بالنّفس**.

٤. المسائل الأخلاقيّة المتعلّقة **بالكون و الطّبيعة**.

فمسألة شكر المُنعم والخضوع أمام الباري تعالي، و الرّضا و التسّليم لأوامره، و ما شابهها، يُعتبر من المجموعة الاولي.

و التواضع، و الإيثار، و المحبّة، و حُسن الخلق، و المُواساة، تدخل في دائرة المجموعة الثّانية.

تزكية النّفس وتطهير القلب من الأدران، و تفعيل عناصر الخير، لمقاومة الضّغط و التّحديات التي يُواجهها الإنسان في حركة الواقع والحياة، تدخل في نطاق المجموعة الثّالثة.

و أمّا عدم الإسراف والتّبذير، و إتلاف المواهب الإلهيّة؛ فإنّه يُعتبر من القسم الرّابع.

إنّ هذه الشّعب الأربعة، تختلف عمّا جاء في كتاب «الأسفار» للفيلسوف المعروف: «ملّا صدرا الشّيرازي»، و أتباع مذهبه، فهؤلاء و طِبقاً لطريقة العُرفاء، شبّهوا الإنسان وحركته التكامليّة: ب:

المسافر، و عبّروا عن مسائل بناءِ الذّات و صياغة الشّخصيـة **بالسّير و السّـلوك**، و جعلـوا للإنسـان **أربعةَ أسفارٍ**، هي مَطمع السّالكين و العُرفاء، و أولياء اللَّه:

١. السّفر من الخلق إلي الحقّ.

٢. السّفر بالحقّ في الحقّ.

٣. السّفر من الحقّ إلي الخلق بالحقّ.

٤. السفر بالحقّ في الخلق.

ومن المعلوم أنّ هذه الأسفار أو المراحل الأربعة لبناء الذات، و السّير و السّلوك إلي اللَّـه تعـالي، تتحرك بإتجاهٍ آخر غير ما نحن بصددِه، و إن كانت تتشابه في بعض أقسام الفروع الأربعة، للأخلاق الآنفة الذّكر.

الخلاصة

١. الموحّدون يذهبون إلي أنّ اللَّه تعالي خالق الكائنات كلّها، فنحن منه ونعود إليه. والهدف من خلق الإنسان، هو التّكامل في الجوانب المعنويّة و الروحيّة.

٢. الأخلاق من وجهه نظر مذهب الموحدين، هي كلّ صفات الأفعال التـي تسـاعد الإنسان في سيره علي طريق التكامل.

٣. فإن المعيار الأخلاقي و الفضائل و الرّذائل في الإسـلام تُعـيّن مـن قبـل البـاري تعالي. ويجب أن تكونَ هي القاعدةُ الأصلُ للأفراد والمجتمع في سلوكهم الأخلاقي.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٤

فی الاخلاق الهية

الاستاذ: مهدی سازندگی

بکالوریوس

المقدمة

صرّح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبّه الإنسان في صفاته بالمبداء. بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلاً، لا لغرض آخر من جلب منفعة، او دفع مضرّة، و انما يتحقّق ذلك اذا صارت حقيقته المعبّر عنها بالعقل الالهي و النفس الناطقة خيراً محضاً، بأن يتطهّر عن جميع الخبائث الجسمانيّة، و الاقذار الحيوانيّة. و لايحوم حوله شيء من العوارض الطبيعيّة و الخواطر النفسانيّة، و يمتليء من الأنوار الالهيّة، و المعارف الحقيقيّة، و يتيقّن بالحقائق الحقّة الواقعيّة، و يصير عقلاً محضاً بحيث يصير جميع معقولاته كالقضايا الاولية، بل يصير ظهورها اشد، و انكشافها اتم، و حينئذ يكون له اسوة حسنة بالله سبحانه، في صدور الافعال و تصير الهيّة اي شبية بافعال الله سبحانه في انّه لصرافة حسنه يقتضي الحسن، و لمحوضة جماله يصدر عنه الجميل من دون داع خارجي، فتكون ذاته غاية فعله، و فعله غرضه بعينه، و كلما يصدر عنه بالذات و بالقصد الاول فانّما يصدر لاجل ذاته و ذات الفعل و ان ترشّحت منه الفوائد الكثيرة علي الغير بالقصد الثاني و بالعرض. قالوا ايضاً و اذا بلغ الانسان هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الالهيّة، و اللذّة الحقيقيّة الذاتيّة، فيشمئز طبعه من اللذات الحسيّة الحيوانيّة، لانّ من ادرك اللذّة الحقيقيّة علم انها لذّة ذاتيّة، و الحسيّة ليست لذّة بالحقيقة لتصرمها و دثورها و كونها دفع الم. و انت‌خبير بان هذا التصريح محل تامل المخالفته ظواهر الشرع، فتأمّل.

المحتوي العلمى

في معرفة اللّه تعالي و معرفة النفس

من الخَطوات الاولي في طريق إصلاح النّفس، و التّهذيب الرّوحي، و بلورة الأخلاق و الملكات الأخلاقية السّامية، في واقع الإنسان هي: «**معرفة النّفس**».

فكيف يمكن للإنسان أن يرقي في درجات الكمال الرّوحي و يتحرك علي مُستوي إصلاح عُيوبه، و التّخلص من رذائله الأخلاقيّة، والحال أنّه لايعرف نفسه من موقع الوعي لذاته؟

و هل للمريض أن يذهب إلي الطّبيب، و لمّا يعرف أنّه مُصابٌ بالمرض؟

و هل لِلتائه الضّال عن الطّريق، أن يعرف وجهته، و يتحرك في طريق العثور علي الجادة الصّحيحة، قبل أن يعرف أنّه ضالٌ عن الطريق؟

و هل للإنسان أن يُهيّيء أسباب و وسائل الدّفاع عن نفسه، و هو لايعرف أنّ العدوّ قد كَمَن له علي باب داره؟

من الطّبيعي، أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة هو بالنّفي، فكَذلك من لايعرف نفسه ولا عيوبه فإنّه لن يستطيع أن يتحرّك في عملّية إصلاح نفسه، ولن يستفيد من أطبّاء الرّوح، في خطّ التّربية و التّهذيب.

و بهذه الإشارة نعود إلي صُلب الموضوع، لنبيّن علاقة معرفة النّفس بِتهذيبها، و كذلك العلاقة بين: معرفة اللّه وتهذيب النّفس.

١. علاقة معرفة النفس بتهذيبها

كيف يُمكن لمعرفة النّفس أن تكون سبباً في تهذيب النّفس؟ دليلُهُ واضحٌ و بَيّنٌ، لأنّه:

أولًا: إنّ الإنسان عن طريق معرفة نفسه، سوفَ يعَي كرامةَ نفسه، و شرفَ ذاتِه، و عظمةَ الصّنع الإلهي في هذه الخِلقة، و بالتّالي سيُدرك، أهميّة الرّوح الإنسانيّة، التي هي نفحةٌ من نفحات قُدسه، نعم فإنّه سيُدْرك أنّ الجوهَرة الّثمينة، التي منحه اللّه تعالي إيّاها، عليه ألّا يُضيّعها و لايَبيعها بأبخسِ الأثمان، فلن يُضيّعها إلّامن كانَ يعيش الرّذائل الأخلاقيّة، و من غَرِق بِوحل الذّنوب، و مستنقع الخَطيئة.

ثانياً: الإنسان بمعرفته لنفسه، سيطّلع علي الأخطار التي تحدق به، جرّاء مِيوله النّفسية، وعنصر الهَوي و دوافع الشّهوة، التي تقع في خطّ التّقابل، مع سعادته و تكامله المعنوي في حركة الواقع النّفساني، و سيكون بإمكانه التّحرك في دائرة المُواجهة الواعية، للوقوف بوجهها و التّصدي لها.

و من البديهي، أنّ الإنسان الذي لايَخبُر نفسه لن يكون علي إحاطةٍ بوجود تلك الدوافع، ويبقي كالغافل عمّا يدور حواليه، بينما يكون الأعداء قد إحتوشوه من كلّ جانبٍ، و هو لايُحرّك ساكناً، و بالطّبع فإنّ هذا الشّخص، سيتلقّي ضرباتٍ قاصمةٍ من عدوّه، وبعدها يخضع لواقع السّيطرة من قِبل

العدو، و أنّي له ساعتها، التّدبير و التّفكير من موقع الشّعور الهادِيء، و البعيد عن الإنفعال و التّوترا!.

ثالثاً: بمعرفة النّفس، ستظهر له خَبايا نفسه، و إستِعداداتِها المختلفة، و لأجل رُقيّها و كمالها و السّير بها إلي اللّه، سيسعي الإنسان في خطّ التربيّة و التّهذيب، لِبلورة تلك الإستعدادات و الكَمالات، و يستخرج كُنوزها من واقعه الذّاتي، ليقترب بواسطتها من آفاق السّماء.

و حال الشّخص الذي لايتعامل مع ذاته، من موقع المعرفة و الوَعي، كحال الذي دَفَن في بيته كُنوزاً، و هو لايعلم بها، وهو بأمسّ الحاجة إليها لفقره المُدقع، فيموت جوعاً بدون أن يجد في نفسه باعثاً علي الانتفاع بها، في واقع الحياة.

رابعاً: إنّ كلّ واحدةٍ من المفاسد الأخلاقيّة، لها جذورها في النّفس الإنسانيّة، و بمعرفة النّفس، سيسعي الإنسان في عمليّة قلع تلك الجُذور، من واقع النّفس و غلق تلك الرّوافد التي تمدّها بالماء الآسن، و مُعالجة هذا الواقع السّلبي، بفتح روافد الماء الصّافي الرّقراق الذي يمدّها بالحَياة والوصال الحقيقي المنفتح علي الإيمان والصفاء النّفسي.

خامساً: والأهم من هذا وذاك، فإنّ معرفة النّفس، تؤدّي إلي معرفة الربّ، و معرفة صفاته الجلاليّة و الجماليّة، و التي هي من أقوي الدّوافع الذاتيّة، لتربية المَلَكات الأخلاقيّة، و الكَمالات الإنسانيّة، و طريقٌ قويمٌ لِلنجاة من الإنحطاط و الرّذيلة، و الصّعود بها إلي أعلي مراتب الكمال المعنوي، و آفاق المَثل الإنسانيّة.

و إذا أضفنا إلي ذلك كلّه هذه الحقيقة، و هي أنّ الرّذائل تقلب حلاوة السعادة إلي مرارة الشّقاء، و تجرّ البشريّة إلي حيث الويلات و الدّمار، فعندها ستتّضح مدي الأهميّة القُصوي، لمعرفة النّفس في حياة الإنسان والمجتمع البشري.

و قد وَرد في كتاب: «إعجاز الطبّ النّفسي»، للكاتب «كارل منينجر»: «معرفة النّفس عبارة عن الإحاطة بقوي الخير والمحبّة، ومعرفة عناصر الشّر و الكراهيّة في النفس الإنسانيّة، و أيّ تجاهلٍ و تغافلٍ عن وجود هذه القوي و العناصر في أنفسنا، و في الغير، بإمكانه أن يُعرّض اسس الحياة للإهتزاز والخلَل».

و في كتاب: «الإنسان ذلك المجهول»، وردت جملةٌ تعتبر شاهداً حيّاً علي مدّعانا، فيقول:

«لسوء الحظ فإنّ الإنسان المعاصر، لم يتحرّك علي مستوي التّعرف علي نفسه، إلي جانب التّقدم الصّناعي و التّطور العلمي، ولم يوفّق برنامج الحياة، وفق واقعه الطّبيعي، و الفِطري، لذلك فَمع ما في الحياة العصريّة من زينةٍ و تفاخرٍ، لكنّها لم توصل الإنسان للسّعادة المنشودة، فالتّقدم الذي حصل علي مستوي العلم والتّكنولوجيا، لم يحصل بتدبيرٍ و تفكيرٍ، بل حصل عن طريق الصّدفة المَحضة ..، فلو ركّز: «غاليلو» و «نيوتن» و «لافوازيه»، وغيرهم من العلماء علي جسم وروح الإنسان، لربّما تغيّرت الدنيا، ولمّا أصحبت كما هي عليه الآن».

و بناءاً عليه، فإنّ إحدي العقوبات التي أعدّها الباري تعالي، لِلمُعرضين عن اللّه من موقع الّتمرد علي الحقّ، وحذّر الباري تعالي، المسلمين من الوقوع فيها، هي **نسيان النّفس**، و **الغفلة عن الذّات**:

[وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِکَ هُمُ الفَاسِقُونَ] {الحشر:١٩}

معرفة النّفس في الرّوايات الإسلاميّة

و قد أغنتنا الرّوايات الشّريفة، الواردة عن النّبي الأكرم(ص)، و الائمّة الهداة(ع)، في هذا المجال، ومنحتنا زَخماً معرفيّاً كبيراً، علي مستوي بيان مَعطيّات معرفة النّفس، و أثرها الإيجابي في حركة الإنسان، في خطّ التّكامل المعنوي، و الأخلاقي، و منها:

١. ما ورد عن الإمام علي(ع)، أنّه قال: «**نالَ الفَوزَ الأكبَرَ، مَنْ ظَفَرَ بِمَعرِفَةِ النَّفس**».

٢. و يقول(ع)، في النّقطة المُقابلة لِهذا: «**مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ بَعُدَ عَنْ سَبِيلِ النَّجاةِ، وَ خَبَطَ فـى الضَّلالِ وَ الجَهالاتِ**».

٣. وَ وَرد في حديث آخر، عن هذا الإمام الهمام(ع): «**العارِفُ مَنْ عَرِفَ نَفْسَهُ فَأعْتَقَها وَ نَزَّهَها عَنْ كُلِّ ما يُبَعِّدُها**».

و يُستفاد من هذا التّعبير، أنّ معرفة النّفس سببٌ للتحرر من قيود الأهواء، و أسر الشّهوات، و تطهير النفس من الرذائل الأخلاقيّة.

٤. و نقرأ في حديث آخر، عن هذا الإمام الكبير(ع): «**أَكْثَرُ النّاسِ مَعْرِفَةً لِنَفْسِهِ، أَخْوَفُهُم لِرَبِّهِ**».

و نَستوحي من هذا الحديث الشّريف، العلاقة الوثيقة بين الإحساس بالمسؤوليّة، من موقع الخَوف من اللّه تعالي، الذي يعدّ منطلقاً لتهذيب النّفس في خطّ التّقوي، و بين معرفة النّفس.

٥. وَ وَرَد في حديثٍ آخر، عن الإمام نفسه، يقول: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ جاهَدَها وَ مَنْ جَهِلَ نَفْسَهُ أَهْمَلَها**».

فطبقاً لهذا الحديث الشريف، فإنّ الدعامة الأصلية لجهاد النفس، أو الجهاد الأكبر، كما ورد التّعبير عنه في الروايات الإسلاميّة، هي معرفة النّفس.

٦. وجاء في نهج البلاغة، في قصار الكلمات لأميرالمؤمنين(ع): «**مَنْ كَرُمَتْ عَلَيهِ نَفْسُهُ هانَتْ عَلَيهِ شَهَواتُهُ**».

فالشّخص الذي عرف نفسه، علي مستوي كرامتها الذّاتية، لايعيش الذّلة في إطار الخضوع للشّهوات، و الإستسلام للأهواء والنّوازع النّفسيّة.

٧. كما أنّ معرفة النّفس، تعتبر ركناً مُهمّاً في تهذيب النّفس، في خطّ التّكامل الأخلاقي و المعنوي، فالجهل بِكرامة النّفس، سبب للإبتعاد عن اللّه تعالي، ولِذا ورد في حديثٍ آخر، عن الإمام الهادي(ع): «**مِنْ هانَتْ عَلَيهِ نَفْسُهُ فَلا تأمَنْ شرَّهُ**».

و من مَضمون ما تقدّم، يتبيّن بوضوح، أنّ من الدّعامات الأساسيّة للفضائل الأخلاقية، و التّكامل المعنوي، هو **معرفة النّفس**، ولن يصل الإنسان إلي غايته المَنشودة، إلّا بعد عبور ذلك الممر الصّعب، ولذلك أكّد علماء الأخلاق، كثيراً علي هذه المسألة، لِكي لايغفل عنها السّائرون في الطّريق إلي اللّه تعالي.

الخلاصة

١. غاية المراتب للسعادة أن يتشبّه الإنسان في صفاته بالمبداء.

٢. من الخَطوات الاولي في طريق إصلاح النّفس، و التّهذيب الرّوحي هي: «معرفة النّفس».

٣. إنّ الإنسان عن طريق معرفة نفسه، سوفَ يعَي كرامةَ نفسه، و شرفَ ذاته، و عظمةَ الصّنع الإلهي في هذه الخِلقة، و بالتّالي سيُدرك، أهميّة الرّوح الإنسانيّة، التي هي نفحةٌ من نفحات قُدسه.

٤. إنّ كلّ واحدةٍ من المفاسد الأخلاقيّة، لها جذورها في النّفس الإنسانيّة، و بمعرفة النّفس، سيسعي الإنسان في عمليّة قلع تلك الجُذور.

٥. إنّ معرفة النّفس، تؤدّي إلي معرفة الربّ، و معرفة صفاته الجلاليّة و الجماليّة.

٦. من الدّعامات الأساسيّة للفضائل الأخلاقية، و التّكامل المعنوي، هو معرفة النّفس، ولن يصل الإنسان إلي غايته المَنشودة، إلّا بعد عبور ذلك الممر الصّعب.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٥

علاقة معرفة النفس و معرفة الله

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

مقدمه

قال الله العظيم في كتابه الحكيم : [ونفس وماسواها فألهما فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها]

لشخصية الانسان في هذه الحياة ثلاثة ابعاد ومن مجموع التفاعل بين هذه الابعاد الثلاثة تتكون شخصية الانسان:

البعد الاول: العقل.

البعد الثاني: النفس.

البعد الثالث: الجسد.

اما النفس فهناك اختلاف كبير عند الفلاسفة في تحديد المقصود منها حتى ان بعضهم انهى تعريفات النفس الى اربعين تعريفاً.

ولكننا نقصد بالنفس هنا «هي مركز العواطف والميول والشهوات لدى الانسان» يطلق عليها القرآن تارة عنوان «النفس» ويطلق عليها تارة اخرى اسم «القلب».

المحتوي العلمي

معرفة النفس طريقٌ لمعرفة الرَبّ

يقول الباري تعالي: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ] {فصِّلت:٥٣}

وَ وَرَد في آية اخري، قوله تعالي: [وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ] {الذاريات:٢١}

و إستدلّ بعض المحقّقين، بالآية الشّريفة، التي تتحدث عن عالَم الذَّرْ، علي هذه الحقيقة أيضاً، و هي أنّ: «**معرفة النّفس**»، تعتبر الأساس والقاعدة: «**لمعرفة اللّه تعالي**» حيث تقول الآية الكريمة: [وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا] {الأعراف:١٧٢}

نقرأ في تفسير الميزان

«فالإنسان وإن بلغ من التّكبر و الخُيلاء ما بلغ، و غرّته مساعدة الأسباب ما غَرّتهُ و إستهوته، لايسعه أن ينكر أنّه لايملك وجود نفسه، و لايستقلّ بِتدبير أمره، ولو ملك نفسه،- لوقاها ممّا يكرهه من الموت، و سائر آلام الحياة مَصائبها، و لإستقلّ بتدبير أمره، لم يفتقر إلي الخضوع، قبال الأسباب الكونيّة.

فالحاجة إلي ربٍّ:- مَلِكٍ مُدبّرٍ-؛ حقيقة الإنسان، والفقر مكتوبٌ علي نفسه، و الضعف مطبوعٌ علي ناصيته، لايخفي ذلك علي إنسانٍ له أدني الشّعور الإنساني، والعالم و الجاهل، و الصّغير و الكبير، و الشّريف و الوضيع، في ذلك سواء.

فالإنسان في أيّ منزلٍ من منازلِ الإنسانية نزل، يشاهد من نفسه أنّ له رباً يملكه و يدبّر أمره، وكيف لايشاهد ربّه، و هو يشهد حاجته الذاتيّة؟

ولذا قيل: إنّ الآية تشير إلي ما يشاهده الإنسان في حياته الدنيا. أنّه محتاج في جميع جهات حياته، من وُجوده وما يتعلق به وجوده من اللّوازم و الأحكام، و معني الآية أنّا خلقنا بني آدم في الأرض، و فرّقناهم، و ميّزنا بعضهم من بعضٍ بالتّناسل و التّوالد، وأوقفناهم علي إحتياجهم ومربوبيتهم لنا، فإعترفوا بذلك قائلين، بلي شَهدنا أنّك ربّنا».

و بناءاً علي ذلك، يثبت لنا أنّ التّعرف علي حقيقة الإنسانيّة، بخصوصياتها و صفاتها، هي السّبب و الأساس لمعرفة الباري تعالي شأنه.

و الحديث المعروف، الذي يقول: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عِرَفَ رَبَّهُ**»، ناظر إلي هذه المسألة بالذات.

و قد نقل هذا الحديث مرّةً عن الرّسول الأكرم(ص)، و مرّةً اخري عن أميرالمؤمنين(ع)، و مرّةً نُقل عن صُحف إدريس(ع).

فجاء في بحار الأنوار نقلاً عن صحف إدريس(ع)، في الصّحيفة الرّابعة، و التي هي صحيفة المعرفة: «**مَنْ عَرَفَ الخلْقَ عَرَفَ الخالِقَ، وَ مَنْ عَرَفَ الرِّزْقَ عَرَفَ الرَّازِقَ، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**».

شرف العلم و المعرفة و الحكمة

قد علم أن ضدّ الجنسين (الجربزة و السفسطة و الجهل) هو الحكمة، أعني العلم بحقائق الأشياء.

فلنذكر أولاً بعض ما يدل علي شرافته عقلاً و نقلاً ترغيباً للطالبين علي السعي في تحصيله و إزالة الجهل عن نفوسهم، فنقول:

لاريب في أن **العلم** أفضل الفضائل الكمالية و أشرف النعوت الجمالية، بل هو أجل الصفات الربوبيّة و أجمل السمات الألوهية، و هو الموصل إلي جوار رب العالمين و الدخول في أفق الملائكة المقربين، و هو المؤدّي إلي دار المقامة التي لاتزول و محل الكرامة التي لاتحول، و قد تطابق العقل و البرهان و إجماع أرباب الأديان علي: أن السعادة الأبدية و القرب من اللّه سبحانه لايتيسران بدونه، و أيّ شيء أفضل مما هو ذريعة إليهما.

و أيضا قد ثبت في الحكمة المتعالية: أن **العلم** و **التجرّد** متلازمان، فكلّما تزداد النفس علماً، تزداد تجرّداً، و لاريب في أن التجرّد أشرف الكمالات المتصورة للإنسان، إذ به يحصل التشبّه بالملإ الأعلي و أهل القرب من اللّه تعالي.

و من جملة العلوم، **معرفة اللّه** التي هي السبب الكلّي لإيجاد العالم العلوي و السفلي،كما دلّ عليه الخبر القدسي: «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق.**»

ثمّ من فوائد العلم في الدنيا، العزّ و الاعتبار عند الأخيار و الأشرار، و نفوذ الحكم علي الملوك و أرباب الاقتدار، فإن طباع الأنام من الخاص و العام مجبولة علي تعظيم أهل العلم و توقيرهم و وجوب إطاعتهم و احترامهم، بل جميع الحيوانات من البهائم و السباع مطيعة للإنسان مسخرة له، لاختصاصه بقوة الإدراك و مزيد التمييز. و لو تصفحت آحاد الناس لم تجد أحداً له تفوق و زيادة علي غيره في جاه أو مال أو غير ذلك إلاّ و هو راجع إلي اختصاصه بمزيد تمييز و إدراك، و لو كان من باب المكر و الحيل.

هذا و ما يدل علي شرافة العلم من الآيات و الأخبار أكثر من أن تحصي.

نبذة منها قوله تعالي: [إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] {فاطر:٢٨}

و قوله تعالي: [قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ]{الزُّمر:٩}

و قوله تعالي: [وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا] {البقرة:٢٦٩}

و قوله تعالي: [وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ] {العنكبوت:٤٣}

و قول النبي(ص): «اللّهم ارحم خلفائي. قيل: يا رسول اللّه من خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي يروون حديثي و سنّتي.»

و قوله(ص) لأبي ذرّ الغفاري: «جلوس ساعة عند مذاكرة العلم، أحب إلي اللّه تعالي من قيام ألف ليلة، يصلّي في كل ليلة ألف ركعة و أحب إليه من ألف غزوة، و من قراءة القرآن كله اثني عشر ألف مرة و خير من عبادة سنة صام نهارها و قام ليلها، و من خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب اللّه عزّوجلّ له بكل قدم ثواب نبي من الأنبياء، و ثواب ألف شهيد من شهداء بدر، و أعطاه اللّه بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة في الجنة و طالب العلم يحبه اللّه و تحبه الملائكة و النبيون، و لايحب العلم إلاّ السعيد و طوبي لطالب العلم، و النظر في وجه العالم خير من عتق ألف رقبة، و من أحب العلم وجبت له الجنة، و يصبح و يمسي في رضي اللّه، و لايخرج من الدنيا حتي يشرب من الكوثر و يأكل من ثمرة الجنة، و لايأكل الدود جسده و يكون في الجنة رفيق خضر(ع)».

و قول أميرالمؤمنين(ع): «إن كمال الدين طلب العلم و العمل به، و إن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال، و إن المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم، و قد ضمنه و سيفي لكم، و العلم مخزون عند أهله فاطلبوه».

و قوله(ع): «إذا مات مؤمن و ترك ورقة واحدة عليها علم، تكون تلك الورقة سترا بينه و بين النار، و أعطاه اللّه بكل حرف عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات».

و قول سيّدالساجدين علي بن الحسين(ع): «لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه، و لو بسفك المهج و خوض اللجج».

و قول الباقر(ع): «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد».

و قول الصادق(ع): «لو يعلم الناس ما في فضل معرفة اللّه تعالي ما مدوا أعينهم إلي ما متع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا و نعيمها، و كانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤن بأرجلهم، و لتنعموا بمعرفة اللّه و تلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء اللّه. إن معرفة اللّه تعالي أنس من كل وحشة، و صاحب من كل وحدة، و نور من كل ظلمة، و قوة من كل ضعف و شفاء من كل سقم، قد كان قوم قبلكم يقتلون و يحرقون و ينشرون و تضيق عليهم الأرض برحبها، فما يردهم عما هم عليه شيء مما هم فيه من غير تردة وتروا من فعل ذلك بهم و لا أذي بما نقموا منهم: [إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ] {البروج:٨} فاسألوا ربكم درجاتهم، و اصبروا علي نوائب دهركم تدركوا سعيهم».

و عن الرضا(ع) عن آبائه(ع) عن النبي(ص) أنه قال: «طلب العلم فريضة علي كل مسلم، فاطلبوا العلم في مظانه، و اقتبسوه من أهله، فإن تعلمه للّه تعالي حسنة، و طلبه عبادة، و المذاكرة به تسبيح، و العمل به جهاد، و تعليمه من لايعلمه صدقة، و بذله لأهله قربة إلي اللّه، لأنه معالم الحلال و الحرام، و منار سبيل الجنة، و المؤنس في الوحشة، و الصاحب في الغربة و الوحدة، و المحدث في الخلوة، و الدليل علي السراء و الضراء، و السلاح علي الأعداء. و الزين عند الأخلاء، يرفع اللّه به أقواما، و يجعلهم في الخير قادة، تقتبس آثارهم، و يقتدي بأفعالهم و ينتهي إلي آرائهم، ترغب الملائكة في خلتهم، و بأجنحتها تمسهم، و في صلاتها تبارك عليهم، و يستغفر لهم كل رطب و يابس حتي حيتان البحر و هوامه و سباع البر و أنعامه. إن العلم حياة القلوب من الجهل، و ضياء الأبصار من الظلمة و قوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار و مجالس الأبرار و الدرجات العلي في الآخرة و الأولي. الذكر فيه يعدل بالصيام و مدارسته بالقيام. به يطاع الرب و يعبد، و به توصل الأرحام، و يعرف الحلال و الحرام العلم إمام و العمل تابعه، يلهمه السعداء و يحرمه الأشقياء، فطوبي لمن لم يحرمه اللّه من حظه».

الخلاصة

١. إستدلّ بعض المحقّقين، بآيات متعددة علي أنّ: «معرفة النّفس»، تعتبر الأساس والقاعدة: و طريق «لمعرفة اللَّه تعالي».

٢. التّعرف علي حقيقة الإنسانيّة، بخصوصياتها و صفاتها، هي السّبب و الأساس لمعرفة الباري تعالي شأنه.

٣. لاريب في أن العلم أفضل الفضائل الكمالية و هو الموصل إلي جوار رب العالمين.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٦

معطيّات العلم و المعرفة في الاخلاق و التربية

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

من العوامل المهمة فى عمليّة تهذيب الأخلاق وترشيدها، هو الصعود بالمستوى العلمى والمعرفى للأفراد، فإنّ التجربة أثبتت أنّ الإنسان، كلّما إرتقى مستواه فى دائرة العلوم والمعارف الإلهيّة، أينعت سجاياه الإنسانيّة، و تفتحت فضائله الأخلاقيّة، و العكس صحيح، فإنّ الجهل وفقدان المعارف الإلهيّة، يؤثر تأثيراً شديداً على دعامات و اسس الفضيلة، و يهبط بالمستوى الأخلاقى للفرد، فى خطّ الإنحراف و الباطل.

المحتوي العلمى

معطيات العلم و المعرفة

إنّ العلم أو الحكمة و المعرفة، هى المنبع الرّئيسى للأخلاق، «كما نُقل عن سقراط الحكيم»، و أنّ الرّذائل الأخلاقيّة سببها الجهل.

فمثلاً المتكبّر و الحاسد، إنّما إبتلى بهذين الرذيلتين، بسبب عدم علمه بواقع الحال، فلاتوجد عنده صورةٌ واضحةٌ عن أضرارهما وتبعاتهما السلبيّة، على واقع الإنسان الدّاخلى، ويقولون أنّه لايوجد إنسان يخطو خطوةً نحو القبائح عن وعيٍ و علمٍ بها.

و بناءً على ذلک، إذا تمّ الصّعود بالمستوى العلمى لدى أفراد المجتمع، فإنّ ذلک بإمكانه، أن يكون عاملاً مساعداً، لتشييد صرح الهيكل الأخلاقى السّليم فى المجتمع.

و قد ورد فى القرآن الكريم هذا المعنى، فى بيان الهدف من البعثة: [هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ] {الجمعة:٢}

نشير ههنا الى علاقة العِلم والمعرفة بالفضائل الأخلاقيّة، و كذلک علاقة الجهل بالرذائل الأخلاقيّة:

١. الجهل مصدرٌ للفساد و الإنحراف

نقرأ فى الآية الكريمة من سورة الّنمل: [أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ] {النمل:٥٥}

فقرن سبحانه و تعالى هنا الجهل، بالإنحراف الجنسى والفساد الأخلاقى.

٢. الجهل سبب للإنفلات و التّحلل الجنسى

ورد فى سورة يوسف على لسان يوسف(ع)، فى أنّ الجهل قرينٌ للتحلل الجنسى، فقال تعالى: [قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ] {يوسف:٣٣}

٣. الجهل أحد عوامل الحسد

ورد ايضاً فى سورة يوسف(ع)، أنّه عندما جلس يوسف(ع) على عرش مصر، و تحدّث مع إخوانه الذين جاءوا من كنعان إلى مصر، لإستلام الحنطة منه، فقال: [قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ] {يوسف:٨٩}

أى أنّ جهلكم هو السبب فى وقوعكم فى أسر الحسد، الذى دفعكم إلى تعذيبه، و السّعى لقتله، و القائه فى البئر.

٤. الجهل مصدر التّعصب و العناد و اللؤم

فى سورة الفتح، نرى أنّ تعصّب مشركى العرب فى الجاهليّة، كان بسبب جهلهم و ضلالهم، فقال الله تعالى: [إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ] {الفتح:٢٦}

٥. علاقة الجهل بالذرائع

تاريخ الأنبياء مليءٌ بمظاهر التبرير، و خلق الذّرائع من قبل الأقوام السّالفة، فى مواجهة أنبيائهم، وقد

أشار القرآن الكريم مراراً إلى هذه الظاهرة، و مرّةً اخرى يشير إلى علاقة الجهل بهــا، فنقـرأ فـى سـورة البقرة: [وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ] {البقرة:١١٨}

فالتأكيد هنا على أنّ عدم العلم أو الجهل، هو الـذى يتـولّى خلـق الأرضـيّة للتـذرع، و تبـيّن الآيـة الكريمة، العلاقة الوثيقة بين هذا الإنحراف الأخلاقى مع الجهل، وكما أثبتته التجارب أيضاً.

۶. علاقة سوء الظنّ مع الجهل

ورد فى سورة آل عمران، الكلام عن مُقاتلى غزوة احد: [ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ] {آل عمران:۱۵۴}

ولا شكّ فى أنّ سوء الظّن، هـو مـن المفاسـد الأخلاقيّـة، و مصـدر لكثيـر مـن الرذائـل الفرديّـة و الإجتماعيّة فى حركة الواقع والحياة، وهذه الآية تبيّن علاقة الظّن بالجهل بصورة واضحة.

۷. الجهل مصدر لسوء الأدب

ورد فى سورة الحجرات، إشارةً للّذين لايحترمون مقام النبوة، و قال إنّهم قوم لايعقلون، و خاطبهم الله عتاباً: [إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَکَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ] {الحجرات:۴}

فقد كانوا يزاحمون الرّسول الأكرم(ص)، فى أوقات الرّاحة، و فى بيـوت أزواجـه، و يُنادونـه بـأعلى أصواتهم قائلين: يا مُحَمّد! يا مُحَمّد! اخرُجُ إلَينا.

فكان الرّسول(ص) ينزعج كثيراً من سوء أدبهم وقلّة حيائهم، ولكن حياؤه يمنعه من البوح لهم، وبقـى كذلک يتعامل معهم من موقع الحياء، حتى نزلت الآية، و نبّهتهم لضرورة التـأدّب أمـام الرسـول(ص)، و شرحت لهم كيف يتعاملون معه(ص)، من موقع الأدب و الإحترام.

و فى تعبير: «أكثرهم لايعقلون»، إشـارة لطيفـة للسّـبب الكـامن وراء سـوء تعـاملهم، و قلّـة أدبهـم

وجسارتهم، وهو فی الغالب عبارةٌ عن هُبوط المستوی العلمی، و الوعی الثقافی لدی الأفراد.

٨. أصحاب النّار لايفقهون

لاشک أنّ أصحاب النّار هم أصحاب الرذائل، و الملوّثین بألوان القبائح، وقد نوّه إلیهم القرآن الکریم، و عرّفهم بالجُهّال، و عدم التّفقه، و یتّضح منه العلاقة بین الجهل و إرتکاب القبائح، فنقرأ فی سورة الأعراف: [وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِکَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِکَ هُمُ الغَافِلُونَ] {الأعراف:١٧٩}

فقد بیّنت هذه الآیة وآیات کثیرةٌ اخری، العلاقة الوطیدة بین الجهل، و بین أعمال السوء و إرتکاب الرذائل.

٩. الصبر من معطیات العلم

فی سورة الأنفال، تنبّه المسلمین علی أنّ الصّبر الذی یقوم علی أساس الإیمان و المعرفة، بإمکانه أن یمنح المسلمین قوّة للوقوف بوجه الکفّار، الذین یفوقون المسلمین عدداً وعدّةً، تقول الآیة: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ] {الأنفال:٦٥}

نعم فإنّ جهل الکافرین، هو السبب فی عدم إستطاعتهم فی الصّمود بوجه المؤمنین، و فی مقابل ذلک فإنّ وعی المؤمنین هو السّبب فی صمودهم، بحیث یُعادل کلّ واحدٍ منهم عشرة أنفارٍ من جیش الکفّار.

١٠. النّفاق والفرقة ینشآن من الجهل

أشار القرآن الکریم فی سورة الحشر إلی یهود (بنی النضیر)، الذین عجزوا عن مُقاومة المسلمین، لأنّهم کانوا مُختلفین و مُتفرقین، رغم أنّ ظاهرهم یحکی الوحدة و الإتفاق، فقال: [لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا

يَعْقِلُونَ] {الحشر:١٤}

وبناءً على ذلک فإنّ النّفاق والفرقة و التشتت، و غيرها من الرذايل الأخلاقيّة، الناشئة من جهلهم وعدم إطّلاعهم على حقائق الامور.

النتيجة

تبيّن ممّا جاء فی أجواء تلک العناوين العشرة السّابقة، التی وردت فی سياق بعض الآيات القرآنية، علاقة الفضيلة بالعلم و المعرفة من جهة وعلاقة الرذيلة بالجهل، من جهةٍ اخرى، و قد ثبت لنا بالتجربة ومن خلال المشاهدة، أنّ أشخاصاً کانوا منحرفين بسبب جهلهم و عدم معرفتهم، وکانوا يرتکبون القبيح و يمارسون الرّذيلة فی السّابق، ولکنّهم إستقاموا بعد أن وقفوا على خطئهم، و تنبّهوا إلى جهلهم، و أقلعوا عن فعل القبائح و الرذائل، أو قلّلوها إلى أدنى حدٍّ.

و الدّليل المنطقی لهذا الأمر واضح جدّاً، وذلک لأنّ حرکة الإنسان نحو التّحلی بالصّفات والکمالات الإلهيّة، يحتاج إلى دافعٍ و قصدٍ، وأفضل الدّوافع هو العلم و المعرفة بفوائد الأعمال الصّالحة ومضار القبائح، وکذلک الإطّلاع و التعرّف على المبدأ و المعاد، و سلوکيات الأنبياء والأولياء ومذاهبهم الأخلاقية، فکلّ ذلک بإمکانه أن يکون عاملاً مساعداً، يسوق الإنسان للصّلاح و الفلاح، و الإبتعاد عن الفساد والباطل فی حرکة الحياة والواقع.

الخلاصة

١. من العوامل المهمة فی عمليّة تهذيب الأخلاق وترشيدها، هو الصعود بالمستوى العلمی.

٢. دّليل المنطقی لعلاقة العلم و الاخلاق واضح، لأنّ حرکة الإنسان نحو التّحلی بالصّفات والکمالات الإلهيّة، يحتاج إلى دافعٍ و قصدٍ، وأفضل الدّوافع هو العلم و المعرفة بفوائد الأعمال الصّالحة ومضار القبائح.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٧

فصل في الايمان (١)

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

الايِمان اذعان إلى الحقِّ على سبيل التصديق له واليقين. ولكنه صار اسماً لشريعة سيدنا محمد(ص).

و ينبغى أن نعلم أنّ للايمان مرتبتين، تعنى الأُولى منهما: التصديق بقول «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» وهذا هو الحد الاَدنى من الايمان، وهو الايمان بمعناه الاَعم الذى يصدق على كل من دخل فى دين الاِسلام مقراً بالله و بنبوة سيدنا محمد(ص).

و فيما يراد بالمرتبة الثانية من الايِمان ما هو فوق التصديق من الاقرار باللسان والعمل بالاركان، أى التزام مبادىء الشريعة الاِسلامية وأحكامها، من أداء الواجبات والعمل بالطاعات وتجنب المنكرات والشبهات، وهذا هو الايمان الممدوح فى القرآن والسُنّة.

المحتوى العلمى

حقيقة الايمان

إنَّ حقيقة الايِمان فى هذا الوجود هى أكبر وأكرم الحقائق. لم تدركها النفوس عن طريق دائرة الحس الضيقة، فليست هى بحقيقة مادية تُدرک بالحواس المعروفة ولكن هى حقيقة معنوية علوية تدركها القلوب السليمة، فتأخذ النفوس من أقطارها ، وتظهر ثمارها الطيبة نظافة فى الشعور ورفعةً فى الاَخلاق وإستقامة فى السلوک.

تلک الحقيقة التى تتجسد فى نفوس المؤمنين من خلال مظاهر عديدة، يمكن الاشارة إلى أبرزها اهتداءً بقبس من نور النبوة وحماة منهجها، وهى:

أولاً: التسليم لله تعالى والرِّضا بقضائه: يقول الرسول الاَكرم(ص): «إنَّ لكلِّ شىء حقيقةً وما بلغ عبد

حقيقة الاِيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[١]

فالمؤمن حقاً هو الواثق بالله تعالى وحكمته المستسلم لقضائه، والمتقبل لما يجيء به قدر الله في اطمئنان أياً كان.

ثانياً: الحب في الله والبغض في الله: وهو من أبرز المظاهر العاطفية التي تعكس حقيقة الاِيمان، فحينما يؤثر الاِنسان ـ على ما يحبه ويهواه ـ مايحبه الله تعالى ويرضاه، وحينما يكون غضبه لله لا لمصلحته الخاصة، فلا شك أنّ هذا الشعور العاطفي العالي يكون مصداقاً جلياً على عمق إيمانه ومصداقيته. ولذا ورد عن النبي(ص): «لايجد العبد حقيقة الاِيمان حتى يغضب لله، ويرضى لله، فإذا فعل ذلك فقد استحق حقيقة الاِيمان.»[٢]

ثالثاً: التمسك المطلق بالحق: يقول أميرالمؤمنين(ع): «إنَّ من حقيقة الاِيمان أن تؤثر الحقّ وإن ضرّك على الباطل وإن نفعك»[٣].

إنَّ ترجيح كفة الحق الضار على كفة الباطل النافع ما هي إلاّ مظهراً من مظاهر قوة الاِيمان الراسخ في أعماق النفس المؤمنة.

رابعاً: حب أهل البيت(ع) هو أحد الحقائق الهامة التي تميز الاِيمان الصادق عن الزائف. عن زر بن حبيش قال: رأيت أميرالمؤمنين(ع) على المنبر فسمعته يقول: «والذي فلق الحبة وبرء النسمة، أنه لعهد النبي(ص) إلى أنه لايحبك إلاّ مؤمن ولايبغضك إلاّ منافق»[٤]

وعن جابر بن عبدالله بن حزام الاَنصاري قال كنا عند رسول الله(ص) ذات يوم جماعة من الاَنصار فقال لنا: «يا معشر الاَنصار! بوروا أولادكم بحبّ علي بن أبي طالب، فمن أحبه فاعلموا أنه لرشدة ومن

---

١ ـ كنز العمال ١ : ٢٥ | ١٢ .
٢ ـ معاني الاخبار ، للصدوق : ١٨٧ باب معنى الاِسلام والاِيمان .
٣ ـ الخصال ، للشيخ الصدوق : ٥٣.
٤ ـ الارشاد ، للشيخ المفيد : ٢٥ .

أبغضه فاعلموا أنه لغية»[1]

وعن أبى الزبير المكى قال: رأيت جابراً متوكئاً على عصاه وهو يدور فى سكك الاَنصار ومجالسهم وهو يقول: «على خير البشر فمن أبى فقد كفر، يا معاشر الاَنصار أدبوا أولادكم على حب على فمن أبى فانظروا فى شأن أُمه»[2].

وأورد الثعلبى فى تفسيره ونقله عنه الزمخشرى فى الكشّاف، والقرطبى المالكى فى الجامع لاَحكام القرآن، والفخر الرازى فى التفسير الكبير قوله(ص): «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الاِيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزّف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السُنّة والجماعة.

ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً على عينيه آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة»[3].

فالاِمام على(ع) وأهل بيته(ع) رمز الاِيمان وعلامة الطهر وعليه فمن أحبهم فقد وجد فى قلبه حقيقة الاِيمان، فهم مصابيح الدجى وأعلام الهدى، من أحبهم ذاق طعم الاِيمان. قال أبوعبدالله(ع): «إنّه لايجد عبد حقيقة الاِيمان حتى يعلم أنّ ما لآخرنا لاَوّلنا».[4]

خامساً: التدبر والنظرة الواعية: قد تظهر حقيقة إيمان الاِنسان من خلال نظرته الفاحصة الواعية لمن

---

١ ـ الارشاد ، للمفيد : ٢٧ . وبوروا بمعنى : اختبروا.

٢ ـ أمالي الصدوق : ٧١ .

٣ ـ الكشاف ٣ : ٤٦٧ . وانظر التفسير الكبير ٢٧ : ١٦٥ ـ ١٦٦ . والجامع لاَحكام القرآن ١٦ : ٢٣.

٤ ـ الاختصاص ، للشيخ المفيد : ٢٦٨ .

حوله، فحينما يرى الناس منهمكين فى إعمار دنياهم وتخريب دينهم، فيأثرون الفانى على الباقى، يدرك ـ حينئذٍ ـ أنّ هؤلاء عقلاء فى دنياهم حمقاء فى دينهم. فهذه النظرة وذلک الاِدراک يکشفان عن وصـول الاِنسان لحقيقة الايمان الواعى. ومن هنا قال الرسول الاَكرم(ص) لاَبى ذر الغفارى رحمه الله: «يا أبـا ذرّ لاتصيب حقيقة الاِيمان حتى ترى الناس كلّهم حمقاء فى دينهم، عقلاء فى دنياهم»[1]

سادساً: السلوک العبادى السوى: قد تبرز حقيقة الاِيمان فى سلوک عبادى سوىّ ، من خـلال العمـل بأوامر الله واجتناب نواهيه والنصيحة لاَهل بيت رسوله(ص). وفى هذا الصدد قال رسـول الله(ص): «مـن أسبغ وضوءه وأحسن صلاته وأدى زكاة ماله وخزن لسانه وكفَّ غضـبه واسـتغفر لذنبـه وأدّى النصـيحة لاَهل بيت رسوله فقد استكمل حقائق الاِيمان وأبواب الجنة مفتحة له».[2]

وقد تظهر حقيقة إيمان العبد فى ضبطه لجوارحه وخاصة لسانه، فقـد ورد عـن الرسـول(ص) قولـه: «لايعرف عبدٌ حقيقة الاِيمان حتى يخزن من لسانه».[3]

سابعاً: الموقف الاجتماعى: وقد تظهر حقيقة الاِيمان فى موقف إجتماعى مشرّف كـأن ينفـق المـؤمن على ذوى الفاقة على الرغم من ضيق ذات يده، أو أن ينصف الناس من نفسه فلا يُسىء لهم ولا يظلمهم، أو يبذل علمه للجاهل منهم . كل موقف من هذا القبيل قد يأخذ بيـد المـؤمن إلـى مراقـى الصـعود فـى درجات الاِيمان، ويشكّل بمفرده حقيقة من حقائقه الناصـعة، يقـول الرسـول الاَكـرم(ص): «ثـلاث مـن الاِيمان: الاِنفاق من الاِقتار، وبذل السلام للعالم، والانصاف من نفسک»[4]

ثامناً: حالة الخوف والرجاء: قد تتمثل حقيقة الاِيمان فى الجانب النفسى عندما يكون المؤمن فى حالة نفسية بين الخوف والرجاء عاملاً وفق مقتضياتهما. قال أبو عبدالله الصادق(ع): «لايكـون المـؤمن مؤمنـاً

---

١ ـ مكارم الاَخلاق ، للطبرسى : ٤٦٥ .
٢ ـ أمالى الصدوق : ٢٧٣ .
٣ ـ أصول الكافى ٢ : ١١٤ | ٧ كتاب الايمان والكفر.
٤ ـ كنز العمال ١ : ٤٤ | ٨٨ .

حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو.»[١]

العلاقة بين الإيمان وقيمة الأفعال

العمل القيّم من وجهة نظر الإسلام هو العمل الذى يرتبط بالله تعالى من خلال النية، ومثل هـذه النيـة التى تحقّق العلاقة مع الله تتأتّى من الذين يقومون بالعمل لأجل الله، أو خوفاً من عذابه، أو أملاً فى ثوابه. إذنْ يجب أن يكونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر، فما لم يؤمن الإنسان بالله، لايمكن أن يقوم بعمل لأجله، وما لم يؤمن بيوم القيامة وهو يوم الحساب والثواب والعقاب لايمكن أن يقوم بعمل رجاءَ ثوابه أو خوفـاً من عذابه.

وعليه فانّ للإيمان دوراً أساسياً، ومن أراد القيام بعمل رجاء ثواب الله أو خوفاً مـن عذابـه عليـه أن يؤمن بيوم القيامة وهو يوم الحساب والجزاء. هذه الآصرة بين العمل و الإيمان من القـوة، بحيـث يمكـن القول بأن الذين يعملون رئاءً لايؤمنون ـ فى الحقيقة ـ بالله ويوم القيامة، قال تعالى بهذا الشأن: [كَالَّـذِى يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النّاسِ وَلايُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ]

ولو فرض انّ مؤمناً قام بعمل رئاءً ولم يكن الإيمان منشأً لعمله، أى إنّ ايمانه من الضعف مـا يـؤدى الى نسيانه اثناء العمل فلايذكر الله ولايوم القيامة، مثل هذا العمل يكون باطلاً وحرامـاً أحيانـاً، ويترتـب عليه العقاب بدل الثواب.

منشأ قيمة الإيمان

الإيمان أمر قلبى واختيارى فى الوقت ذاته ويختلف عن العلم والعقيدة، لأنّ العلم قد يحصل للإنسـان بنحو غير اختيارى بخلاف الإيمان، ومثل هذا العلم والعقيدة ليس إيماناً فقد يكون شخص عالمـاً بشـىء وكافراً به فى الوقت نفسه. وبديهى أنّ هذا الكفر المقرون بالعلم بالحقانيّة هو أسوء بكثير من الكفـر عـن

---

١ ـ أصول الكافى ٢ : ٧١ .

جهل. على أيّة حال، فانّ الإيمان ليس عين العلم ويفترق عنه، كما قال تعالى: [وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا]

إذنْ نستنتج أنّ الإيمان عمل اختيارى يتعلّق بالقلب ويمكن فى نفسه أن يدخل فى دائرة الاخلاق، لأنّ أىّ عمل اختيارى ـ جوارحياً كان أو جوانحياً ـ يدخل فى دائرة الاخلاق، فيكون من المناسب السؤال عن دافعه.

نستنتج أنّ الدافع فى ايمان الإنسان هو العلم والمعرفة أو طلب الكمال، ولو كان كلّ منهما دافعاً للإيمان كان منشأً لقيمته أيضاً، وإذا افترضنا أنّ من يكون منشأ ايمانه هو الدافع الشيطانى فانّ ايمانه لاقيمة له جزماً، ولكن مثل هذا الافتراض غير ممكن، لأنّ الإيمان كما قلنا أمر قلبى ومستور عن أنظار الآخرين ولذا لاسبيل للشيطان والرئاء والغشّ فيه، الاّ أن يكون المراد هو إظهار الإيمان فانّ ذلک ليس إيماناً بل نفاقاً، قال تعالى عن أمثال هؤلاء: [قالَتِ الأَعْرابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمّا يَدْخُلِ الإِيمانُ فِى قُلُوبِكم]

أجل، انّ الإيمان يتحقّق فى حالة جعل الإنسان قلبه مستعدّاً للتسليم بألوهية الله تعالى اختياراً ثمّ التزامه بمستلزماتها، وعليه لا يصحّ افتراض كون الإنسان مؤمناً دون أن يعمل، لأنّ العمل ثمرة الإيمان، ففى حالة توفّر شروطه الخارجيّة وتوجه التكليف للإنسان يقوم بأدائه. فمثلاً: إنّ الإيمان يستلزم أداء الصلاة ولكن بشرط دخول وقتها، ويتوجه الحكم الإلهى بوجوب الصلاة الى المكلف. فى هذه الحالة يكون مقتضى الإيمان هو أن يعمل الإنسان بواجب العبودية لله من خلال أداء الصلاة.

على هذا الأساس يمكن افتراض موارد يتخلف فيها الإيمان عن العمل، وهى الموارد التى يتحقّق فيها الإيمان ولكن لايصدر العمل من الإنسان لعدم توفّر الشروط الزمانية والمكانية وغيرها لإنجاز العمل، من قبيل أن يؤمن شخص قبل الظهر ثمّ يموت قبل الزوال ولم يدخل وقت الصلاة بعدُ. إنّه لم يقم بعمل بسبب عدم حلول ظرف العمل، لا أنّ ايمانه قاصر عن التأثير عليه ودفعه نحو العمل، فهو كالمؤمن الذى يموت

قبل حلول موسم الحج، فى هذه الحالة يكون قد ترک الحج ولكن بدون داع لتركه لكى يخالف الإيمـان، بل لأنّ وقته لم يحضر بعد ولم يمهله العمر.

الإيمان منشأ التقوى

علمنا أنّ الإيمان يقتضى العمل الصالح ويحثّنا على القيام به. ونـذكّر هنـا بهـذه الملاحظـة وهـى أنّ الإيمان يمكن أن يكون منشأً للتقوى، فيما لو كان حيّاً وفعّالاً والاّ لاستوى وجوده وعدمه، وعجـز عـن بعث دافع قوى فينا لممارسة الأعمال الصالحة وترک الأعمال القبيحة وستغشاها الغفلة.

فمن الضرورى بقاء الوعى والإنتباه حيَّين كى يكونا مؤثّرين. إنّ الإهتمام بالشؤون الماديّة إذا تعـدَّى حدَّه الطبيعى فسوف يُنسى الإهتمام بالمعنويات والمصالح الحقيقية والأبدية، وفـى هـذه الحالـة لا يُثمـر الإيمان ولا تترتب عليه الآثار والنتائج المتوخّاة. مثل هذا الإنسان لايراعـى المصـلحة أو المفسـدة فـى عمله، بل سوف تُمسخ هويّته ويخرج عن طور الإنسانية وسيكون ــ حسب التعبير القرآنى ــ كالأنعام، كما قال تعالى:

[أُولئِکَ كَالاَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ]

إنّ حقيقة المسخ الإنسانى هى نسيان الكمالات الإنسـانية، وإن كـان مـن الممكـن أن يفكّـر جيّـداً بمصالحه الماديّة ومكاسبه الدنيويّة ويراعى الدقة اللازمة فى سبيل ذلک، ولكنه يغفل عن مصيره النهـائى وعاقبة أمره، قال تعالى فى حقه:

[نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ]

إنّ نسيان الله عزّ وجلّ والغفلة عن مبادئ الإيمان يستوجب نسيان الإنسان نفسه وانقلابه الى حيوان.

إنّ السير فى الآفاق والأنفس ودراسة تأريخ حياة الأقوام التى خلت من قبل ينتشل الإنسان من هذه الغفلة، ويمهّد لامتلاک الإنسان قلباً وبصراً وسمعاً، كما قال القرآن الكريم:

[أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ]

الخلاصة

١. للايمان مرتبتين، حد الاَدنى من الايمان: التصديق بقول «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله».

٢. حد الاعلى من الايمان و هو فوق التصديق من الاقرار باللسان والعمل بالاركان.

٣. مظاهر الايمان يظهر فى مواضع متعددة، نموذج منها: ١. فى التسليم لله تعالى والرِّضا بقضائه، ٢. فى الحب فى الله والبغض فى الله، ٣. فى التمسک المطلق بالحق، ۴. فى حب أهل البيت(ع)، ۵. فى التدبر والنظرة الواعية، ۶. فى السلوک العبادى السوى، ٧. فى الموقف الاجتماعى، ٨. فى حالة الخوف والرجاء.

۴. الإيمان أمر قلبى واختيارى فى الوقت ذاته ويختلف عن العلم والعقيدة.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٨

فصل في الايمان (٢)

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

لم يعد الحديث عن الاِيمان حديثاً تكرارياً، ولا خطاباً «رجعياً» كما كـان يـذاع مـن قبـل الـدعوات المادية وهى فى ذروة تصاعدها وفى طور التأسيس لكياناتها المستقلّة، لم يعد كذلک بعد أن وجدت هذه الدعوات نفسها مضطرة إلى استعارة الكثير من قيم الاِيمان ومبادئه السامية.

ذلک حين أثبتت لها تجارب الحياة ان دعوتها المادية إنّما هى «مثالية» من نمط آخر، إذ أنها كانـت تريد أن تصنع انساناً غير هذا الانسان، أو أنها كانت تظنّ ان ما جاءت به الاَديان إنّما هو محض خرافـة، فلمّا عركتها التجارب أدركت بأنّها غارقة فى خيال بعيد حين خيل إليها إنّ الاِنسان ما هو إلاّ كتلـة مـن اللحم والدم والعظام التى يجب أن تعيش فى اطار هذه المكونات ــ ولاَجلها وحسب ــ فمـن الطبيعـى ان تهزم مثل هذه الاَفكار أمام طبيعة الاِنسان الثنائية التى لايمكن الغاء إحدى قطبيها بحال من الاَحوال. فلم يعد الاِيمان إذن حديث خرافة انما هو حديث طبيعة الاِنسان وطبيعة الحياة أيضاً.

المحتوي العلمى

عندما ندقق النظر، نجد أن القرآن الكريم حين تحدث عن الايمان، فقد تحدث عنه فى أبعاد متعـددة، ولم يجعله حديثاً تأنس به الروح فى يومها من أجل أن تطمئن لغدها، أُنساً صوفياً وحسب.

لقد تحدث القرآن عن الاِيمان كقضية فرد يرجو لقاء ربه والفوز فـى الحيـاة الآخـرة، وتحـدّث عنـه كقضية مجتمع وأُمّة، لها دورها الاَكبر فى تقرير مصيرها الحضارى ووجودها على الاَرض.

ما هو متعلَّق الإيمان؟

بما أنّ الإيمان أو المؤمن قد ذُكرا على نحو الاطلاق فى الكثير من الآيات ولم يُذكر متعلّقهما، كقولـه تعالى: [الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحات]

وقوله: [مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً]

أو قوله: [وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]

فعلينا تبيان متعلَّق الإيمان استناداً الى القرآن الكريم نفسه.

قال بعض: إنّ المراد من الإيمان الذى استُند إليه فى القرآن هو الإيمان بالهدف. فيكون كلّ مؤمن بهدفه مصداقاً لهذه الآيات، ولو سئل ما الهدف؟ لقال: تأسيس مجتمع لا طبقى، حتّى عبّروا عنه بـ (المجتمع اللاطبقى التوحيدى) ودافعهم فى مثل هذا التفسير والتسمية هو أن يؤمن الإنسان ويعتقد بأن مثل هذا المجتمع اللاطبقى سوف يتحقق. ولكى نسدّ الطريق أمام مثل هذه التشكيكات الشيطانية يلزم تحديد متعلَّق الإيمان بهدى من القرآن الكريم نفسه.

حينما نتأمّل القرآن فى هذا المجال نلاحظ فى الكثير من الآيات تعبيرات مختلفة عن الإيمان بالله، كقوله تعالى:

مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ

أو وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ

أو قوله: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ

أو قوله: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ.

وفيها تصريح بلفظ الإيمان وذكر لمتعلقه وهو «الله». مثل هذه الآيات بإمكانها أن تفسر الآيات المطلقة جيّداً، وتبيّن متعلَّق الإيمان فى القرآن الكريم. وعليه فانّ الإيمان بـ «الله» سيكون من مصاديق ومتعلقات الإيمان المذكور بشكل مطلق بلسان القرآن ومطلوباً وقيّماً.

وفى موارد كثيرة من القرآن ذُكر «الإيمان بالله وباليوم الآخر» متقارنين:

مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وفى بعض الموارد ذُكر الإيمان «بما أنزل على النبى(ص)»:

وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّد وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ.

وفى بعض الآيات ذُكر الإيمان «بالله ورسله»:

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ.

وفى آيتين ذكرت أمور أُخرى كمتعلّقات للإيمان غير الإيمان بالله ورسله، ويمكن القول: إنّهما بلحاظ ذكر متعلقات الإيمان أشمل الآيات كافة، قال تعالى فى إحداهما:

وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآْخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ.

وقال فى ثانيهما:

آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ.

المستفاد من مجموع هذه الآيات هو إمكانية جعل متعلقات الإيمان على غرار التبويب الذى قام به العلماء العظام وهو التوحيد، والنبوة والمعاد بصفتها اصول العقيدة.

أما الكتب والرسل والرسول الخاصّ والنبيون فقد قُصدوا فى أصل النبوة. والملائكة بلحاظ كونها الواسطة فى الوحى ونزول الكتاب على الأنبياء ستكون متعلّقاً للإيمان أيضاً. وعليه يمكن القول بأنّ المراد من الإيمان فى القرآن الكريم هو الإيمان بالاصول الثلاثة، وأهمّها هو الإيمان بالله بحيث لو كان جامعا وكاملا لوفّر الإيمان بالأصلَين الآخَرين أيضاً. وبما أنّ الله رب الإنسان ويهديه بمقتضى ربوبيته، وتتمّ إلهية الإله للإنسان عن طريق الوحى فسيكون الإيمان بالله متضمناً للإيمان بالنبوة.

إذنْ ينشأ الإيمان بالنبوة من الإيمان بالتوحيد، كما أنّ مقتضى العدل الإلهى هو التفريق بين المؤمن والكافر والمتقى والفاسق فى الأجر والجزاء. ومن المتيقن به أنّ إثابة الصالحين وعقاب العاصين غير ممكن الاّ فى عالم الآخرة، وعليه فانّ الإيمان بالله وعدله يتضمن فى نفسه الإيمان بالمعاد.

الإيمان يجب أن يكون مطلقاً

الإيمان بالمتعلقات التى ذكرناها سابقاً، من قبيل: الله عز وجل، والملائكة، والكتب، والرسل ويوم الجزاء لابدّ أن يكون مطلقاً، فمن يقول: آمنت بنبوة رسول الإسلام(ص) ولا أؤمن بنبوة سائر الأنبياء، أو يقول: اعتقد بجميع الأنبياء ولكنى أرفض الحكم الفلانى الذى جاء به أحد الأنبياء(ع) لم يكفِه ذلک لأن يكون مؤمنا بل سيكون كافراً. فالإيمان يجب أن يكون مطلقاً بجميع الأنبياء(ع) وجميع ما أنزل الله عزّ وجلّ ولا يقبل التبعيض. ومن يعتقد بالتبعيض فى هذه الموارد لم ينفعه ذلک الإيمان ولا تأثير له فى الوصول الى سعادته الأُخروية. بهذا الشأن قال تعالى فى القرآن: [أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْض فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِکَ مِنْكُمْ إِلاّ خِزْىٌ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَمَا اللهُ بِغافِل عَمّا تَعْمَلُونَ].

وقال أيضاً: [إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْض وَنَكْفُرُ بِبَعْض وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِکَ سَبِيلاً * أُولئِکَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً].

ولعل السبب فى استحقاق المعتقد بالتبعيض فى ايمانه أشدَّ العذاب هو أنّ من ثبتت لديه رسالة نبى وصحة كتاب سماوى ثمّ أنكر بعضه فانّ عامله هو الجحود والعناد، فمن الطبيعى أن يتعرض لأشد العذاب، لأنّ الحقيقة قد توضّحت لديه بنحو كامل. وعلى أيّة حال، فانّ ما يوجب السعادة هو الإيمان المطلق الخالى من كلّ تبعيض بالنسبة للأنبياء(ع) ومضمون رسالتهم، كما قال تعالى: [وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا].

بهذا الشأن وصف الله المتقين بقوله: [وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْکَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ].

مراتب الإيمان والكفر

ينبغى القول: انّ الإيمان ـ وهكذا الشرک والنفاق ـ ذو مراتب ودرجات تتناسب مع كلّ مرتبة، فالإنسان إمّا يسمو أو يتسافل، وينال درجات من الجنة ومقاماتها أو درکات من جهنم. وعليه فانّ الإيمان وإن كان ضعيفا هو أول وأيسر ما يُتقبّل من الإنسان ويستوجب سعادته، ولكن لابدّ لكلّ مؤمن أن يحظى بمراتب أعلى من الإيمان، والقرآن الكريم يصرح أيضاً بأن الإيمان قابل للازدياد، قال تعالى:

[هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ]

وهكذا الكفر والنفاق. ومن الطبيعى أن يقارن صاحب المرتبة الأُولى للإيمان مراتب من الكفر والشرک، وقد أشار عزّ وجلّ الى هذه الحقيقة فى القرآن بقوله:

[وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ]

وبملاحظة المعنى الوسيع للتوحيد فى القرآن الكريم ـ كما مرّ ـ نعرف أنّ تحصيل مراتب الإيمان المتكاملة لايتيسّر لأغلب الأشخاص وذلک بأن لايخاف ولايرجو الاّ الله تعالى حتّى يبلغ ذروة التوحيد الذى يختص بأولياء الله الذين لايرَون وجوداً مستقلاً لغير الله تعالى.

فعلى ضعاف الإيمان الذين اختلط ايمانهم بالشرک ولم يبلغوا درجة التوحيد الخالص السعى الجاد للتحرّر من الشرک والسير على نهج التوحيد.

ثمّ إنّ للكفر والنفاق ـ كالإيمان ـ مراتب مختلفة شدّة وضعفاً. وقد أطلق القرآن لفظ (المنافق) على أشخاص يكثر أمثالهم فى المجتمع الإسلامى كالذين كانوا يتخلفون عن الجهاد، ويصدّهم التعلّق بالدنيا عن العمل بواجباتهم وكانوا يصلّون وهم كسالى:

[وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاّ وَهُمْ كُسالى وَلا يُنْفِقُونَ إِلاّ وَهُمْ كارِهُونَ]

والذين قال عنهم القرآن الكريم:

[وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا]

وهذه من علامات النفاق التی تلاحظ فی أوساط المؤمنین أیضاً.

الحاصل أنّ هناک مراتب من الکفر والشرک والنفاق تقارن مراتب الإیمان و لهذه الحالة أسباب مختلفة، أهمُّها أمران:

١. عدم تکامل المعرفة، أی إنّ عدم وصول الإنسان الی بعض مراتب التوحید أو بعض مقامات الأنبیاء(ع) وأولیاء الله ناشئ من ضحالة معرفته وقصوره فی طریق تحصیل هذا العلم فلا یتحصل لدیه، فیبقی ایمانه ضعیفا وناقصا.

٢. عدم تزکیة النفس وتهذیب الأخلاق الذی له دور أهمُّ ویحول دون اهتمام الإنسان بما فهمه وعرفه. کالنصاری الذین جاؤوا الی الرسول الأکرم(ص) وتحدّثوا معه عن عقیدتهم، الاّ أنّهم لم یؤمنوا رغم أنّهم أُفحموا فی البحث وعجزوا عن الکلام، فقال(ص) عنهم بأنّهم رغم معرفتهم لم یؤمنوا لإدمانهم شرب الخمر وأکلهم لحم الخنزیر، إذ کان علیهم لو أسلموا أن یترکوا ذلک، الاّ أن إدمانهم لذینک الأمرین حالَ دون اسلامهم. ومن المعلوم أن لاخصوصیة للخمر ولحم الخنزیر، فانّ الإنسان کلّما بدا له التعارض بین مقتضی أمر ثابت لدیه وبین أهوائه ورغباته المتنوعة فانّ الأخیرة تحول دون ایمانه بتلک الحقیقة الثابتة، سواءً أکان المیل الی الخمر ولحم الخنزیر أو شیء آخر.

شروط الإیمان

الآن حیث نتوجه لإعداد الشروط الممهِّدة لتحصیل الإیمان علینا أولاً أن نکتسب العلم الصحیح، الاّ أنّ العلم لوحده لایکفی لتحقّق الإیمان، بل لابدّ مع ذلک تهیّؤ أجوائنا الروحیة لقول الحق، لأن أعمال الإنسان الاختیاریة تنشأ من مصدرین: أحدهما المعرفة والرؤیة، ثانیهما المیل والرغبة. إنّ هذین المصدرین من مقولتین مختلفتین.

وبناءً علی ذلک علینا السعی لنیل الإیمان فی مجالین:

الأول: تعميق معرفتنا،

الثاني: تحفيز ميولنا الفطريّة للإيمان وممارسة الأعمال الصالحة، وهناک ــ طبعاً ــ نوع من الترتُّب بين المعرفة والميول، إذْ إنّ تحفيز الميول مسبوق بنوع من المعرفة.

الخلاصة

١. أنّ الإيمان أو المؤمن قد ذُكرا على نحو الاطلاق فى الكثير من الآيات ولم يُذكر متعلّقهما، ولكن المستفاد من مجموع الآيات القرآنية هو إمكانية جعل متعلقات الإيمان على غرار التبويب الذى قام به العلماء العظام وهو التوحيد، والنبوة والمعاد بصفتها اصول العقيدة.

٢. ألإيمان يجب أن يكون مطلقاً بجميع الأنبياء(ع) وجميع ما أنزل الله عزّوجلّ ولايقبل التبعيض. ومن يعتقد بالتبعيض فى هذه الموارد لم ينفعه ذلک الإيمان ولا تأثير له فى الوصول الى سعادته الاُخروية.

٣. إنّ الإيمان و الشرک ذو مراتب ودرجات تتناسب مع كلّ مرتبة.

٤. لتقارن مراتب من الكفر والشرک مع مراتب الإيمان أسباب مختلفة، أهمُّها أمران: ١. عدم وصول الإنسان الى بعض مراتب التوحيد. ٢. عدم تزكية النفس وتهذيب الأخلاق.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۹

أثر الاِيمان والكفر علي الفرد

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

إنَّ الايمان بالله تعالى هو منبع الفضائل، كما أنّ الكفر به هو مصدر الرذائل كلّها. فبينما كان الفرد مدَّنساً بالشرک، وعبداً لاَهوائه ولاَصنامه الموهومة وللقوى الاجتماعية المتنفذة، أصبح ببركة الايمان مطهراً من الشرک وسيداً على نفسه ووجد طريقاً للخلاص من جاهليته فى الاعتقاد والسلوک. وبينما كان المجتمع الجاهلى ممزقاً و فاقداً للعدالة غدا بفضل عقيدة التوحيد قوياً موحداً يرتكز على قواعد الحق والعدل.

المحتوي العلمى

المبحث الاَول: أثر الإيمان والكفر علي الفرد

كان الاِسلام نقطة البدء فى ميلاد إنسان جديد، يعشق القيم والحكمة، ويتطلع إلى آفاق العلم والمعرفة، ويمتاز بسكينة النفس والسلوک المثالى وعمق الحس الاِنسانى.

إنَّ هذا التحوّل لم ينطلق من فراغ، ولم يحدث على سبيل الصدفة، وإنّما حصل نتيجة مباشرة لمعطيات الاِيمان الحضارية، التى يمكن الاِشارة إلى أبرزها عبر آثاره المتعددة بالنقاط الآتية:

أولاً: أثره العلمى:

فتح الاِسلام بنوره النوافذ المغلقة أمام عقل الاِنسان الجاهلى الذى لم يكن له سابق عهد بأبسط العلوم والمعارف التى جاء بها الاِسلام العظيم، ووجه تفكير ذلک الاِنسان الوجهة الصحيحة إذ دفعه إلى تعقّل ما فى هذا الكون الفسيح من قوى وأسرار وطلب منه التأمل فى أقطار السموات والاَرض لغايات كثيرة أهمها معرفة الحق تعالى والبرهان على وجوده الشريف من خلال ما يشعره الاِنسان وما يراه، وكذلک ليكتشف من خلال هذا التأمل القوانين الرائعة التى تحكم هذا العالم بمنتهى الدقة، مما ساعد هذا على

ميلاد حركة علمية ومعرفية استفاد منها العلماء الالهيون، وعلماء الطبيعة منذ فجر الاِسلام إلى يومنا هذا، ولم تقتصر آثار الايمان بدين الاِسلام على تلك المعطيات العلمية، بل هناک الكثير منها والتى لازالت منبعاً ثرّاً لعلماء الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتاريخ والفلسفة والكلام زيادة على ما فى دستور الاِسلام القرآن العظيم من نظم ودساتير وسياسات هى فى منتهى الدقة والاِحكام.

وبالجملة فإنّ الحضارة الاِسلامية التى دانت لها أوربا قروناً عديدة إنّما نشأت بفعل الاِيمان بهذا الدين وما أوجبه من السعى المتواصل نحو المعرفة والتى ترجمها فى أحداثه التاريخية الأُولى بضرورة القضاء على الأُمّية ـ كما فى فداء أسرى بدر ـ بصفتها وباء الأُمم ومعول هدمها، ومن هنا جاء الحث على أهل العلم أن يعلّموا الناس ما يجهلون، وفى ذلک يقول أميرالمؤمنين(ع): «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا»[1].

كما حثَّ الاِسلام مريديه على الاستزادة من العلم النافع الذى يقرّب الانسان من الله تعالى، يقول الرسول الأكرم(ص): «إذا أُتى علىَّ يوم لاأزداد فيه علماً يقرّبنى إلى الله تعالى فلا بورک لى فى طلوع شمس ذلک اليوم».[2]

وقد حدد وصيه الاِمام على(ع) المعطيات الاِيجابية للعلم ودوره المهم فى تقدم الاِنسان وسعادته، عندما قال: «اكتسبوا العلم يكسبكم الحياة».[3]

لقد أولى الدين للعلم أهمية بالغة وجعل له تقدماً رتبياً حتى على العبادة، يقول الرسول الأكرم(ص): «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم».[4]

وروى أبو حمزة عن أبى جعفر(ع) أنّه قال: «عالم يُنتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد».

---

١ ـ نهج البلاغة ، صبحى الصالح : ٥٥٩ | حكم ٤٧٨ .
٢ ـ كنز العمال ١٠ : ١٣٦ | خ ٢٨٦٨٧ .
٣ ـ غرر الحكم .
٤ ـ كنز العمال ١٠ : ١٤٥ | خ ٢٨٧٤٠ .

وهذه النصوص تعطينا صورة صادقة على توجيه الاِسلام للفرد نحو ميادين العلم والمعرفة، وذلک لاَنَّ المعرفة بصيرة، والبصيرة قوة.

ثانياً: أثره العملی:

ويظهر هذا الاَثر واضحاً على أخلاق المؤمن وسلوكه، فبينما يتّبع الكافر سلوكاً إنتهازياً لايؤمن بنظافة الوسيلة ولاشرف الغاية، ويضع مصالحه الآنية فی سلّم الاَولوية، غاضاً النظر عن القيم والاَخلاق، نجد بالمقابل الاِنسان المتسلح بالاِيمان يسلک سلوكاً مثالياً يرتكز على الثوابت الاَخلاقية وقواعد السلوک السوّی، والملاحظ أنّه كلما كمل إيمان الفرد كلّما حسنت أخلاقه وتكاملت فضيلته، وفی الحديث الشريف:

«.. وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً..»[1]. ونظراً لوجود هذه العلاقة بين الاِيمان والاَخلاق نجد التوجهات الاَخلاقية تحتل حيزاً كبيراً من التعاليم الدينية.

لذلک نجد أنّ الافراد الذين يعيشون فی مجتمعات بعيدة عن نور الاِيمان تغلب عليهم سمة الانحطاط الخلقی، ذلک لاَنَّ الحياء فرع الاِيمان، بل فی التعبير النبوی «الحياء والايمان فی قرن واحد، فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر»[2].

أضف إلى ذلک أنّ الاِيمان يوجه الفرد نحو العمل والكسب الحلال، ويحذّره من التكاسل والاتّكال على الآخرين، فمن وصايا الاِمام الصادق(ع) لشيعته خاصة وللمسلمين عامّة: «لاتكسلوا فی طلب معايشكم، فإنَّ آباءنا قد كانوا يركضون فيها ويطلبونها».[3]

وقد ترجم هذا الاِمام العظيم وصيته الذّهبية هذه إلى سلوک مثالی، فعن الفضيل بن أبی قرّة قال: دخلنا على أبی عبدالله(ع) وهو يعمل فی حائط له فقلنا: جعلنا الله فداک، دعنا نعمل لک، أو تعمله

---

١ ـ كنز العمال ١ : ٣٨ | ح ٧٧ .

٢ ـ كنز العمال ١ : ١٢٠ | ح ٥٧٦٦ .

٣ ـ من لايحضره الفقيه ٣ : ٩٥ دار صعب ـ بيروت ١٩٨١ م.

الغلمان؟! قال: «لا، دعونى فإنّى أشتهى أن يرانى الله عزَّوجلّ أعمل بيدى وأطلب الحلال فى أذى نفسى».[1]

وقد جسّد لنا بسلوكه المثالى مبدأ القدوة الحسنة، الذى هو أحد الاَساليب التربوية التى يتّبعها أهل البيت(ع)، ذلک لاَنَّ «القدوة الحسنة والمثال الفعلى ــ أى التأثير دون إقناع منطقى ــ تقوم بدور كبير فى تكوين الاتّجاهات. فالاَفعال أعلى صوتاً من الاَقوال، وإيحاء السلوک أقوى من إيحاء الاَلفاظ».

مما تقدم ظهر لنا أنّ الاِيمان يدفع الفرد نحو السلوک المثالى الذى يتجسد فى الاَخلاق الحسنة و العمل الصالح.

ثالثاً: أثره النفسى:

عندما يذكر المؤمن ربّه ويتصل بالقوة العظمى الاِلهية، يتبدد خوفه ويتغلب على ضعفه ويطمئن قلبه، قال تعالى: [الَّذينَ آمنُوا وتَطمئنُّ قلُوبُهُم بذكرِ اللهِ ألا بذكرِ اللهِ تَطمَئنُّ القُلُوبُ]، وقال أيضاً: [الَّذينَ آمنُوا ولم يَلبِسُوا إيمانَهُم بِظُلمٍ أولئک لهُمُ الاَمنُ وهُم مُهتدُونَ].

فالاِيمان يضفى على النفس طمأنينة عند هبوب عواصف الاَحداث، ويرفع الاِنسان فوق مستوى الخوف، وفى تاريخ أهل البيت(ع) شواهد جمّة على ذلک، فهذا قنبر مولى أميرالمؤمنين(ع) وكان يحبُّ الاِمام عليّاً(ع) حباً شديداً، فإذا خرج الاِمام على(ع) خرج على أثره بالسيف، فرآه ذات ليلة فقال: «يا قنبر! ما لک؟ قال: جئتُ لاَمشى خلفک، فإنَّ النّاس كما تراهم يا أميرالمؤمنين! فخفتُ عليک، قال(ع): ويحک أمن أهل السماء تحرسنى، أم من أهل الاَرض؟! قال: لا، بل من أهل الاَرض، قال(ع): إنَّ أهل الاَرض لايستطيعون لى شيئاً إلاّ بإذن الله عزَّوجلَّ من السّماء فارجع» فرجع[2].

وقال يعلى بن مرّة : «كان علىّ يخرج بالليل إلى المسجد يصلّى تطوّعاً، فجئنا نحرسه، فلمّا فرغ أتانا

---

١ ـ من لا يحضره الفقيه ٣ : ٩٩ .

٢ ـ توحيد الصدوق : ٣٣٨ .

فقال: «ما يجلسكم؟ قلنا: نحرسک، فقال: أمن أهل السماء تحرسون، أم من أهل الاَرض؟ قلنا: بل من أهل الاَرض، قال: إنَّه لايكون فى الاَرض شيء حتى يُقضى فى السماء، وليس من أحد إلاّ وقد وكّل به ملكان يدفعان عنه ويكلآنه حتى يجيء قدره، فإذا جاء قدره خلّيا بينه وبين قدره، وإنَّ عليَّ من الله جُنّة حصينة فإذا جاء أجلى كشف عنّى ... وأنّه لايجد طعم الاِيمان حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[1].

فالاِيمان يبعث نحو التسليم بقضاء الله وقدره وبذلک يبعد عن النفس شبح الخوف وهاجس القلق، وهو عنصر هام فى معالجة أمراض النفس، وقد اعترف بذلک كثير من علماء النفس المتخصصين منهم الدكتور: إرنست ادولف، استاذ مساعد بجامعة سانت جونس الامريكية، عندما سُئل عن الاَسباب الرئيسية للاَمراض العصبية؟ فأجاب: «إنَّ من الاَسباب الرئيسية لهذه الاَمراض الشعور بالاِثم أو الخطيئة والحقد والخوف والقلق والكبت والتردد والشک والغيرة والاِثرة والسأم، ومما يؤسف له أنّ كثيراً ممن يشتغلون بالعلاج النفسى قد ينجحون فى تقصى أسباب الاضطراب النفسى الذى يسببه المرض، ولكنهم يفشلون فى معالجة هذه الاضطرابات، لاَنهم لايلجأون فى علاجها إلى بث الاِيمان بالله فى نفوس هؤلاء المرضى.»[2]

والملاحظ أنّ أهم ما يعتمد عليه العلاج النفسى هو مساعدة الفرد على الاعتراف بخطاياه، وذلک أنّ الاعتراف يعيد إلى النفس المضطربة اتزانها وطمأنينتها. وقد أقرَّ القرآن من حيث المبدأ بفكرة الاعتراف هذه، ولكن حوّل وجهته من اعتراف الاِنسان المعروف أمام أبناء جنسه إلى الاعتراف أمام ربّه وخالقه، فينفس الاِنسان ـ بذلک ـ عن الاحتقان والشعور بالاثم الذى يحسّه فى قرارة نفسه، عندما يقف ـ مثلاً ـ بالصلاة بين يدى ربّه رافعاً يده فى قنوته قائلاً: [ربَّنا ظَلمنَا أنفُسَنا وإن لم تَغفر لنا وتَرحَمنَا لنكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرينَ].

---

١ ـ كنز العمال ١ : ٣٤٧ | خ ١٥٦٤.

٢ ـ الخطايا فى الاِسلام ، لعفيف عبدالفتاح طبارة : ٢٢ ـ ٢٣ دار العلم للملايين ـ بيروت ط ١ .

الخلاصة

١. الاِيمان بالله تعالى هو منبع الفضائل، كما أنّ الكفر به هو مصدر الرذائل كلّها.

٢. بسط العلم و المعارف فى ساحات الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتاريخ والفلسفة والكلام من آثار الاِيمان على الفرد

٣. الاِنسان المتسلّح بالاِيمان يفعل و يسلک سلوکاً مثالياً يرتكز على الثوابت الاَخلاقية وقواعد السلوک السوّى. و الاِيمان يوجه الفرد نحو الاخلاق الحسنة و العمل الصالح فى المجتمع.

۴. عندما يذكر المؤمن ربّه ويتصل بالقوة العظمى الاِلهية، يتبدد خوفه ويتغلب على ضعفه ويطمئن قلبه. فالاِيمان يضفى على النفس طمأنينة عند هبوب عواصف الاَحداث، ويرفع الاِنسان فوق مستوى الخوف.

۵. الاِيمان يبعث الانسان نحو التسليم بقضاء الله وقدره.

۶. الايمان يساعد الفرد على الاعتراف بخطاياه، و الاعتراف يعيد إلى النفس المضطربة اتزانها وطمأنينتها.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۱۰

أثر الاِيمان والكفر علي المجتمع

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

من الشواهد التى تعكس لنا النَّقلة الحضارية الكبرى التى أحدثها الاِيمان على صعيد الفرد والمجتمع ما قاله جعفر بن أبى طالب قدس سره للنجاشى ملك الحبشة لمّا سأله الاَخير عن سبب هجرتهم ومفارقتهم دين قومهم، فأجابه قائلاً : «أيُّها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الاَصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الاَرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منّا الضعيف، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ماكنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاَوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الاَمانة، وصلة الرّحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً.»[١]

المحتوي العلمى

المبحث الثاني: أثر الإيمان والكفر علي المجتمع

يعتبر الاِيمان عنصراً أساسياً من عناصر التماسک الاجتماعى فهو يدفع أفراد المجتمع نحو التعاون والتفاهم ويبعدهم عن التنازع والتخاصم.

ويمكن تلمّس آثار الاِيمان والكفر على المجتمع بالنقاط الآتية:

أولاً: الاخاء والاحترام والنصيحة

يمثل الاِيمان نقطة إنطلاق كبرى فى العلاقات البشرية فهو ينقل الناس من حالة العداء والبغضاء إلى حالة الود والاخاء، قال تعالى: [إنَّما المُؤمِنُونَ إخوةٌ فأصلِحُوا بين أخَويكُم].

١ ـ السيرة النبوية ، لابن هشام ١ : ٣٤٩ دار الفكر ـ القاهرة .

وقد ذكّر تعالى المؤمنين بنعمة الاخاء التى قلبت حياتهم الاجتماعية رأساً على عقب ونقلتهم من حالة الكفر والعداء إلى حالة الايمان والاخاء، قال عزَّ من قائل: [واعتصمُوا بحبلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفرّقُوا واذْكرُوا نِعمتَ اللهِ عليكُم إذ كُنتُم أعدآءً فألّفَ بينَ قُلوبِكُم فأصبَحتُم بِنعمَتِهِ إخواناً وكُنتُم على شَفَا حُفرةٍ مّن النَّار فأنقذكُم مِنها].

أضف إلى ذلک أنّ الاِسلام يحث المؤمن على إبداء مظاهر الاحترام والمحبة لاخوانه ويُبشره عن ذلک بالثواب الجزيل، عن أبى عبيدة قال: سمعتُ أبا جعفر(ع) يقول: «إذا إلتقى المؤمنان فتصافحا أقبل الله بوجهه عليهما وتتحاتُّ الذنوب عن وجوههما حتى يتفرقا».[1] ولا يقتصر الاَمر على مظاهر الاحترام والاِكرام بل يتعداهما إلى إبداء النصيحة، قال الرسول الاَكرم(ص): «المؤمن أخو المؤمن لا يدع نصيحته على كلِّ حال».[2]

ثانياً: تغيير الروابط الاجتماعية

بينما يدفع الكفر بأبناء المجتمع نحو هاوية العصبية المقيتة ويركز على روابط الدم والرَّحم ومظاهر اللون والمكان وما إلى ذلک من روابط جاهلية، كما قال تعالى: [إذ جَعَلَ الّذينَ كفرُوا فى قُلُوبِهم الحَميّةَ حَمِيّةَ الجَاهليةِ].

نجد أنّ الايمان يفتح آفاقاً جديدة من العلائق بين البشر ترتكز على الاَخاء والمساواة، وغدا معيار التفاضل الوحيد بين البشر يقوم أساساً على الايمان والتقوى والفضيلة، قال تعالى: [يـا أيُّهـا النَّـاسُ إنّـا خلقنَاكُم من ذَكَر وأُنثى وجعلنَاكُم شُعوباً وقَبائلَ لِتَعارفُوا إنَّ أكرَمَكُم عندَ اللهِ أتقاكُم].

ثالثاً: الايمان يمنح البركة والقوّة

الايمان يدفع الاَفراد نحو التقدم المطرَّد، والسير إلى الاَمام وعدم الانكفاء إلى الوراء، قال النبى(ص):

١ ـ أصول الكافى ٢ : ١٨٢ | ١٧ .

٢ ـ كنز العمال ١ : ١٤٢ | خ ٦٨٧ .

«من اعتدل يوماه فهو مغبون، ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون، ومن لم يتفقد النقصان من نفسه فهو فی نقصان، ومن كان فی نقصان فالموت خيرٌ له».[1]

إذن فالاِيمان يُحفز أفراد المجتمع على التقدم نحو الاَفضل، والاستفادة من طاقاتهم وقدراتهم على النحو الاَكمل.

الخلاصة

١. الاِيمان عنصراً أساسياً من عناصر التماسک الاجتماعی فهو يدفع أفراد المجتمع نحو التعاون والتفاهم ويبعدهم عن التنازع والتخاصم.

٢. يمكن ان يعد من آثار الايمان على المجتمع: ١. الاخاء والاحترام والنصيحة، ٢. تغيير الروابط الاجتماعية، ٣. الاِيمان يمنح البركة والقوّة

٣. الاِيمان يُحفز أفراد المجتمع على التقدم نحو الاَفضل، والاستفادة من طاقاتهم وقدراتهم على النحو الاَكمل.

١ ـ تنبيه الخواطر ٢ : ٢٩.

بسمه تعالى

الاخلاق الاسلامية

الدرس ١١

فصل في العبادة

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

الواقع أنّ الحديث عن هذا الموضوع، طويلٌ وعريضٌ، وقد تناوله العلماءُ، العظماءُ، فى كتبهم الأخلاقيّة والتفسيريّة و الفقهيّة، بصورةٍ مُفصّلةٍ ووافيةٍ، ولكن يمكن القول و بإختصارٍ شديدٍ. علينا قبل معرفة حقيقة العبادةِ و مفهومها، أوّلًا أن ندرس مفهوم كلمة «عبد»، و هى الأصل و الجَذر اللّغوى، لكلمة: «العِبادة».

المحتوي العلمى

تعريف العبادة

«العبُد» لُغة تُطلق على الإنسان، الذى لاحول له ولاقوّة، فى مقابِل مولاه، فإرادته تابعةٌ لإرادة مَولاه، ولايملك شيئاً فى عرضِ ما يملكه مولاه، و لا حقَّ له فى التّقصير فى طاعة سيّده.

و عليه فإنّ العبودية، هى آخر وأقصى مراحل الخُضوع والخُشوع، فى مقابل السيّد، حيث إنّ كلّ شىءٍ فى حياته يراهُ من هبته و إنعامه و إكرامه، ومن هنا يتبيّن لنا بوضوح، أنّه لا أحد يستحقّ هذه الدّرجة من العِبادة، و يكون مَعبوداً سوى اللّه تعالى، فهو الفَيض اللّامتناهى الذى لاينقطع أبداً.

و من بُعدٍ آخر، أنّ «العُبوديّة»: هى قمّة و نهاية التّكامل المعنوى، للرّوح فى حركة التّكامل المعنوىللإنسان، و غايةُ ما يطمح إليه الإنسان، من حالة القُرب من اللّه تعالى، و التّسليم المُطلق لِلذات المُقدسة، فالعبادة لاتنحصر بالرّكوع و السّجود و القيام و القُعود، بل إنّ روح العِبادة هى التّسليم المطلق للّه تعالى، و لذاته المُقدسة و المَنزّهة من كلٍّ عيبٍ و نقصٍ.

و من البديهى أنّ العبادة، هى أفضل وسيلةٍ للرّقى المعنوى، و تحصيل الكَمال المطلق، فى حركة الإنسان والحياة، وتقف حائلًا أمام كلّ رذيلةٍ، فإنّ الإنسان يسعى لِلقُرب من معبوده، لِتَتَجلى فى نفسه إشعاعاتٌ من نور قُدسه و جَلاله و جَماله، و يكون مظهراً و مرآةً لصفات الجمال و الكَمال الإلهيّة، فى

واقعه النّفسی و سلوکه العملی.

و فی حدیثٍ عن الإمام الصادق(ع)، أنّه قال: «العبُودِیّةُ جَوهَرَةٌ کُنْهُها الرُّبُوبِیَّةُ».

و هو إشارة لتلک الإنعکاسة الربّانیة، التی تتجلّی فی العبد جرّاء العِبادة الخالصةِ، المنفتحة علی اللّـه، حیث یصل بواسطتها إلی درجاتٍ من الرّقی و الکمال، بحیث یمکنه معها السّیطرة علی الکَـون، و یکـون صاحبٌ بالولایة التَّکوینیّة، أو هو: کالحدید الأسود، الذی یحمّر جرّاء مجاورته لِلنـار، وهـذه الحـرارة و النّورانیة لیست من ذاته، لکنّها من معطیات تلک النار.

و منها نعود لِلقرآن الکریم، لنستوحی ممّا فیه من آیاتٍ حول العبادة، و مـا لهـا مـن دورٍ فـی تنمیـة الفضائل الأخلاقیة:

١. [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] {البقرة:٢١}

تحرّکت الآیة لتخاطب جمیع الناس بدون إستثناء، أن یسلکوا إلی اللّه من موقع العِبـادة، وأرشـدتهم لِطریق التقوی. و التّأکید علی مسألة الخلقة للأوّلین، لعلها تقع فی دائرة تنبیه العَرب الجاهلین، الذین کانوا یستدلون بعبادتهم للأصنام، بسنّة آباهم، فیقول الباری: إنّنا خلقناکم و الجِبلّة الأولـین، نعـم فهـو الخـالق والمالک لکلّ شیءٍ و لایستحق العبادة أحدٌ إلّاهو، وإذا ما توجه الإنسـان، حقیقـةً نحـو البـاری تعـالی، فستتفتح فی جوانحه عناصر الخیر و التّقوی، لأنّ ما یوجد من الشّوائب فی النفس، إنّما هو بِسبب التّوجه لغیر اللّه، من موقع العبادة الزّائفة.

فهذه الآیة تبیّن معالم الرّابطة والعلاقة الوثیقة، بین العبادة و التقوی.

٢. [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] {البقرة:١٨٣}

تطرقت الآیة للحدیث عن عبادةٍ مهمّةٍ، و هی الصّوم و علاقته بالتّقوی، و من المعلوم أنّ الصّوم یُنـوّر القلب و یجلوه، بحیث یحسّ معه الإنسان أنّه یعیش القُرب من الحسنات، و البُعد عن السّیئات و القَبائح، والإحصائیات التی ترد فی هذا الشّهر من المصادر المختصّة عن الجرائم، تشیر إلی أنّها تصل إلـی أدنـی

مستوى، فى شهر رَمضان، و أنّ الشرّطة فى هذا الشّهر المُبارک، يتفرّغون لِلأهتمام بامور اخـرى، إداريّـة عالقة بالأشهر الماضية!!.

و هذا الأمر إنّ دلّ على شيءٍ، فهوَ يدلّ على أنّ الإنسان، كلّما إقترب من اللّه تعالى، فى خطّ العبوديّة و الطّاعة، فإنّه يبتعد عن الموبقات و الآثام، و القبائح بنفس المقدار.

٣. [وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ] {العنكبوت:٤٥}

أشارت الآية إلى علاقة الصّلاة بالنّهى عـن الفَحشـاء و المنكـر، و خاطبـت الرّسـول الكـريم(ص)، بإعتباره قدوة واسوة للآخرين. «فالفَحشاء و المنكر»، عبارةٌ عَنْ مجموعة الأفعال غير الأخلاقيّـة، التـى تنبع وتنشأ من الصّفات الأخلاقيّة، و النّزعات الشّريرة الموجودة فى مطاوى النّفس البشرية، حيث تـؤثّر بدورها فى سلوک الإنسان، و تفرز الأخلاق الظاهريّة لَه، و «الصّـلاة» تمثّـل أداةَ ردعٍ لتلـک الأخـلاق المنحرفة، فى دائرة السّلوک، لأنّ الأذكار و الأدعية، تعمل على تهذيب النّفس، و ترويضها و تطويعها فى طريقِ الخَير و الصّلاح، و حالة القُرب من البارى تعالى، هذه هى التى تتولى إبعاد الإنسان عن منبع الشّر و الرّذيلة، الذى هو عبارةٌ عن هوى النّفس و حبّ الدنيا، من خلال الإنفتاح على آفاق المَلكوت، لِتَغـرف نفسه من أنوار القُدس، وترتفع به إلى عالم الخلودِ و الكَمالِ المُطلق.

فالمصلّى الحقيقى سيبتعد عن الفحشاء و المنكر لامُحالة، لأنّ الصّـلاة و العِبـادة تَصـون الـنّفس مـن المنكرات، و تحول دون إختراق الرذائل للنّفس الإنسانية، وتعمل على تَفعيل عناصر الخَير، فـى أعمـاق الوِجدان.

٤. [إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّـهُ الخَيْـرُ مَنُوعًـا * إِلَّـا المُصَـلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ] {المعارج: ١٩-٢٣}

تحدّثت الآية عن حالة الجَزع و البخل، اللّذان هما من السجّايا الوضيعة فى واقع الإنسان، و خُصوصاً الجَزع فى حالة سيطرة المشكلات و الشّرور، و البُخل فى حالة إنفتـاح أبـواب الثّـراء أمـام الإنسـان، و

إستثنت الآية المصلّين. فهذه الآيات الكريمة، تبيّن لنا بصورةٍ جيدة، أنّ التّوجه للّه تعالى، و السّير فى خطّ العبادة و الدُّعاء و المناجات، له دورٌ هامّ فى مَحو الرّذائل الأخلاقيّة، من قبيل البُخل و الجّزع من واقع النّفس.

۵. [خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا] {التوبة:۱۰۳}

تشيرُ الآية إلى تطهير النّفس، بواسطة «الزّكاة»، و التى بدورها تُعتبر، من العبادات الإسلاميَّةِ المُهِمَّةِ، فى ديننا الحنيف، و جُملة: «تُزكيّهم بها»، هى دليلٌ واضحٌ على هذه الحقيقة، و هى أنّ الزّكاة تعمل على تطهير النفس، من البَخل و الحِرص و حُبِّ الدنيا، وتزرع فى نفسه صفة الكرم، و حبّ الخير لِلناس، وتثير فى نفسه الحركة، على مستوى حمِاية الفقراء و المحتاجين.

و ما ورد من روايات فى هذا الصدد، تبيّن هذه الحقيقة أيضاً، ومنها الحديث النبوى الشريف: «ما تَصَدَّقَ أَحَدُكُم بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ– وَلا يَقْبَلُ اللّهُ إِلّاالطَّيِّبَ–، إلّاأَخَذَها الرَّحمانُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كانَتْ تَمْرَةً فَتَربُو مِنْ كَفِّ الرَّحمانِ فى الجِنان حَتّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ».

هذا الحديث الشّريف يبيّن تلك العلاقة الوثيقة المباشرة، بين هذه العبادة المهمّة و بين توطيد العلاقة مع اللّه تعالى، و تفعيل الحالات المعنوية فى واقع الإنسان ومحتواه الداخلى.

۶. [الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] {الرعد:۲۸}

تتحرك الآية من موقع الإشارة إلى عبادة مهمّةٍ اخرى، و هى عبادة «الذّكر» للّهِ تعالى، و ما لَها من دورٍ فى بعث الطّمأنينة، فى واقع الرّوح. فالطّمأنينة تقترنُ دائماً مع التّوكل على البارى تعالى؛ و عدم الوقوع فى أسر الماديّات والامور الدنيويّة، من الإنخداع بِبَريق الدُنيا، و الطّمع و البُخل و الحَسد و ما شابهها من الامور، فَمع وجود هذه الحالات السّيئة فى واقع النفس، فسوف لن يذوق الإنسان معها الرّاحة و الطّمأنينة.

و عليه، فإنّ ذكر اللّه تعالى بإمكانه إزالة هذه الصّفات السّلبية عن القلب، و تطهير النّفس منها لِتَتهيأ

الأرضيّة المساعدة، فى تَفتّح براعم السّكينة و الطّمأنينة فى واقع القلب و الرّوح.

أو بتعبيرٍ أدق، إنّ جميع الإضطرابات الرّوحية، و أشكال القلق النّفسى، فى واقع الذّات البشريّة، ناشئة من هذه الرّذائل الأخلاقيّة، وستزول وتقلع جذورها بذكر اللّه، الذى يعمل على تسكين روح الإنسان، و تجفيف مصادر القلق هذه، لِتحل محلّها السّكينة والهدوء النّفسى.

٧. [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ] {البقرة:١٥٣}

تناولت الآية دور الصّلاة و الصّيام فى رفع المعنويات، و تقوية عناصر الخير فى وجدان الإنسان. و قد فسّرت بعض الرّوايات الإسلاميّة الصّبر بالصيام، من حيث كون الصّوم أحد المَصاديق البارزة لِلصبر، و إلّا فالصّبر له مفهومٌ وسيعٌ يشمل كلّ أنواع المُقاومة، و التّحدى لِلأهواء النّفسانية و الوساوس الشيطانية، فى طريق طاعة اللّه تعالى، وكذلک تَستوعب الآية حالة الصّبر على المصائب و المحن، التى تصيب الإنسان فى حركة الواقع.

و قد وَرد فى حديثٍ عن أميرالمؤمنين(ع)، أنّه كلّما أهمّه شيءٌ إندفع مُسرعاً نحو الصّلاة، وبعدها يتلو هذه الآية ثلاث مرّاتٍ: «كانَ عَلىٌّ(ع) إذا أحالَهُ أَمْرٌ فَزِعٌ قامَ إِلى الصَّلاةِ ثُمَّ تَلا هذِهِ الآيـةَ: «و اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»».

نعم فإنّ العبادة ترسخ فى النّفس محاسنها، و تصقلها و تعمل على تفعيل عناصر الخير فيها، من: التّوكّل و الشّهامة و الصّبر و الإستقامة، و تستأصل الرّذائل الأخلاقيّة من قَبيل: الجُبن و الشّک و الإضطراب و التّوتر النّاشىء من حالات الصّراع، وحبّ الدنيا وتزيحها عن واقع النّفس، وبهذا تحيى العبادة فى واقع النّفس، شطراً مُهمّاً من الفضائل الأخلاقية، وكذلک تقوم بإلغاء الكثير من عناصر الشّر، و قوى الإنحراف و الرّذيلة من وجود الإنسان.

فى حقوق التى تلزم الإنسان

روى الصدوق فى الفقيه عن زين العابدين(ع) قال: «حقّ اللّه الأكبر أن تعبده لاتشرک به شيئاً، فإذا

فعلت ذلک باخلاص جعل لک علی نفسه أن یکفیک أمر الدنیا و الآخرة. و حقّ نفسک علیک أن تستعملها بطاعة اللّه تعالی.

... و حق الصلاة أن تعلم أنها وفادة إلی اللّه عزّوجلّ و أنت فیها قائم بین یدی اللّه تعالی، فإذا علمت ذلک قمت مقام العبد الذلیل الحقیر الراغب الراهب الراجی الخائف المستکین المتضرع المعظّم لمن کان بین یدیه بالسکون و الوقار، و تقبل علیها بقلبک و تقیمها بحدودها و حقوقها.

و حق الحجّ أن تعلم أنه وفادة إلی ربک و فرار إلیه من ذنوبک، و فیه قبول توبتک و قضاء الفرض الذی أوجبه اللّه تعالی علیک.

و حقّ الصوم أن تعلم انه حجاب ضربه اللّه عزّوجلّ علی لسانک و سمعک و بصرک و بطنک و فرجک لیسترک به من النار، فان ترکت الصوم خرقت ستر اللّه علیک.

و حقّ الصدقة أن تعلم انها ذخرک عند ربّک و ودیعتک التی لایحتاج الی الاشهاد علیها، و کنت لما تستودعه سرّاً أوثق منک بما تستودعه علانیة، و تعلم انها تدفع البلاء و الأسقام فی الدنیا و تدفع عنک النار فی الآخرة.

فی غرور أرباب العبادة

فمنهم فرقة اهملوا الفرائض و اشتغلوا بالفضائل و النوافل، و ربما تعمقوا بالفضائل حتی خرجوا إلی العدوان و السرف، کالذی یغلب علیه الوسوسة فی الوضوء فیبالغ فیه و لایرتضی الماء المحکوم بطهارته فی فتوی الشرع، و یقدر الاحتمالات البعیدة فی النجاسة قریبة، و إذا آل الأمر إلی أکل الحلال قدر الاحتمالات القریبة بعیدة، و قد یطول الأمر فی وسواسه فی الوضوء و التطهیر حتی تضیع الصلاة و یخرجها عن وقتها.

و منهم من غلب علیه الوسوسة فی نیة الصلاة، فتفوته الجماعة و یخرج الوقت، و ان کبر ففی قلبه

تردد فی صحّة نیته، و یفوته الحضور و الخضوع و الخشوع.

و منهم من یغلب علیه الوسوسة فی إخراج الحروف فلا یزال یعالجها حتی یذهل عن معانی القرآن.

و منهم من اغتر بقراءة القرآن فیهذّه هذّا، و ربما یختم فی الیوم و اللیلة مرة و لسانه یجری به و قلبه یتردد فی أودیة الأمانی، و اللّه تعالی یقول: [لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ] {الحشر:٢١} و قلبه لایخشی، و لو قرأ قلیلاً مع تدبر و تفکر و آداب لکان خیراً من الکثیر بدونه.

و منهم من اغتر بالمواظبة علی الصوم، و عنی نفسه بالجوع و العطش و لم یحفظ لسانه من الغیبة و قلبه من الصفات الخبیثة، فقد أهمل الفرض و طلب النفل.

و منهم من اغتر بالحج و زیارات المشاهد، فیخرج إلی الحج و الزیارة من غیر خروج عن المظالم و قضاء الدیون و طلب الزاد الحلال، و یضیع فی الطریق الصلاة، و یعجز عن طهارة الثوب و البدن.

و منهم من یتقلّد امامة مسجد أو أذانه و یظن انه علی خیر، و لو أمّ غیره أو أذّن فی وقت غیبته قامت علیه القیامة و لو کان أورع منه و أعلم.

و منهم من یأمر الناس بالمعروف و ینهی عن المنکر و ینسی نفسه، و إذا أمر عنف و طلب الرئاسة و العز، و إذا ردّ علیه إذا باشر منکراً غضب و قال: انا المحتسب فکیف ینکر علی، و انما غرضه الرئاسة.

و منهم من جاور فی الحرمین أو المشاهد و اغتر بذلک و لم یطهر ظاهره و باطنه من الآثام و الخبائث، و لم یزل قلبه و عیناه ممتدة إلی أوساخ أموال الناس، و غفل عن ان مجاورته لحب الحمد، و لو لم یعلم أحد بمجاورته لما هانت علیه المجاورة.

و منهم من تزهد فی المأکل و الملبس و المسکن و ظن انه من الزاهدین فی الدنیا، و اللّه یعلم منه الرغبة فی الرئاسة و الجاه و المنزلة فی قلوب الناس الذی هو أعظم لذات الدنیا.

و منهم من یحرص علی التغافل لصلاة اللیل و سائر الرواتب و لایجد للفریضة لذة و لایشتد حرصه علی المبادرة إلیها فی أول الوقت.

و منهم من أشار إليهم بعض العارفين: قوم تسموا بأهل الذكر و التصوف و المسمون يـدعون البـراءة من التصنع و التكلف، يلبسون خرقاً و يجلسون حلقاً، يخترعون الأذكـار و يتغنـون بالأشـعار و يعلنـون بالتهليل و ليس لهم إلى العلم و المعرفة سبيل، ابتدعوا شهيقاً و نهيقـاً و اخترعـوا رقصـاً و تصـفيقاً، قـد خاضوا الفتن و أخذوا بالبدع دون السنن، رفعوا أصواتهم بالنداء و صاحوا الصيحة الشنعاء.

و منهم من يدعى علم المعرفة و مشاهدة المعبود و مجاورة المقـام المحمـود و الملازمـة فـى عـين الشهود، و لايعرف من هذه الأمور الاّ الأسماء، و لكنّه تلقف من الطامات كلمات يرددهـا لـدى الأغبيـاء كأنه يتكلم عن الوحى أو يخبر عن السماء، ينظر إلى أصناف العباد و العلمـاء بعـين الازدراء يقـول فـى العباد انهم أجراء متعبون و فى العلماء انهم بالحديث عن اللّه لمحجوبون، و يدعى لنفسه من الكرامات ما لايدعيه ملک مقرب، لا علماً أحكم و لا عملاً هذّب، يأتى إليه الرعاع الهمج من كل فج أكثر من اتيانهم مكة للحج، يزدحم إليه الجمع و يلقون إليه السمع، و ربما يخرون له سجودا كأنهم اتخذوا معبودا، يقبلون يديه و يتهافتون على قدميه، يأذن لهم فى الشهوات و يرخص لهم فى الشبهات، يأكل و يأكلون كما تأكل الانعام و لايبالون من حلال أصابوا أم من حرام، و هو لحلوائهم هاضم و لدينه و أديانهم حاطم، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة و من أوزار الذين يضلونهم بغير علم الا ساء ما يزرون.

تنبيه

نستنتج ممّا ذُكر آنفاً: أنّ العِبادة لَها دورها الفاعل، والعميق فى تَهذيب الأخلاق، و يمكن تَلخيص هذا المعنى فى عدّة نقاط:

١. إنّ التوجه لِلمبدأ، والإحساس بحضور اللّه تعالى، مع الإنسان فى كلّ وقتٍ و مكانٍ، يدفع الإنسان نحوَ المزيد من مُراقبة أعماله وحركاته وسكناته، و يُساعده على السّيطرة على ميولـه الذّاتيـة، و أهوائـه النفسيّة، لأنّ العالم محضر اللّه، والمعصية فى حال الحضور، تمثّل الإنحراف عن خطّ الحقّ، و بالتّالى فهى

عين الوقوع فى لُجّة الكُفران للنعمة.

٢. إنّ التّوجه لصفات جَلاله و جَماله، التى وردت فى العبادات و الأدعية، يثير فى نفس الإنسان حالةً من لُزوم الإقتباس، من تلك الأنوار القُدسيّة، و يعيشها فى واقعه الرّوحى، ليسير فى طريق التّكامل الأخلاقى.

٣. التّوجه للمَعاد والمحكمة الإلهيّة العظيمة فى يوم القيامة، يمثّل أداةً فاعلةً لتطهير و تزكيّة النّفس، خوفاً من العقاب و الحِساب فى غدٍ.

۴. العِبادة و الدّعاء، تضفى على الإنسان هالاتٍ من النّور لاتوصف، فلا تستطيع معها ظُلمات الرّذيلة أن تقف أمامها، فيحسّ الإنسان بالقُرب الإلهى، و صفاء الضّمير بعد كلّ عبادةٍ، شريطَة أن تكونَ مقرونةً بحضور القلب.

۵. إنّ مضامين العبادات و الأدعية، غنيٌّ جدّاً بالتّعاليم والآداب الأخلاقيّة، فهى ترسمُ الطّريق لِلسالك نحو اللّه تعالى، و هى فى الحقيقة دروسٌ قيّمةٌ، توصل الإنسان السّالک لِهدفه السّامى، من أقصر طريقٍ، و بدونِ العبادة و المُناجاة، و خاصّةً فى حالات الخَلوة مع اللّه، تعالى و لاسيّما فى وقت السّحر، فسوف لن يصل الإنسان إلى غايته المنشودة.

الخلاصة

١. «العبُد» لُغة تُطلق على الإنسان، الذى لاحول له ولاقوّة، فى مقابِل مـولاه، فإرادتـه تابعةٌ لإرادة مَولاه، ولايملک شيئاً فى عرضِ ما يملكه مولاه، و لا حقَّ له فى التّقصير فـى طاعة سيّده.

٢. إنّ العبودية، هى آخر وأقصى مراحل الخُضوع والخُشوع، فى مقابل السيّد.

٣. العبادة لاتنحصر بالرّكوع و السّجود و القيام و القُعود، بل إنّ روح العِبادة هى التّسليم المطلق للّه تعالى.

٤. يمكن ان نشير الى فوائد العِبادة فى تَهذيب الأخلاق:

١. التوجه لِلمبدأ، والإحساس بحضور اللّه تعالى، ٢. التّوجه لصفات جَلاله و جَماله، ٣. التّوجه للمَعاد والمحكمة الإلهيّة العظيمة فى يوم القيامة، ٤. العِبادة و الدّعاء، تضـفى علـى الإنسان هالاتٍ من النّور، ٥. مضامين العبادات و الأدعية، ترسمُ الطّريق لِلسالک نحو اللّـه تعالى.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ١٢

فصل في الإخلاص

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

من أمراض القلب الخطرة جداً هو الرياء في النوايا والعمل، فإنّه كدبيب نملة سوداء في ليلة ظلماء على صخرة صلداء، فمَن يحسّ بدبيبها؟! وإنّ الرياء من عمل الشيطان الرجيم ليضلّ الناس ويغويهم.

و يقابل الرياء الإخلاص، «والأعمال بالنيّات» و «لكلّ امرئ ما نوى»، والنيّة من عمل الجوانح، وهو القصد القلبي نحو العمل المقصود إتيانه والمنشود فعله. ولو كانت النيّة خالصة لله سبحانه، فإنّها توجب قبول الأعمال، فإنّ الكلم الطيّب ــ وهو الذي فيه الإخلاص كما ورد في الأثر ــ يصعد إلى الله سبحانه، وإنّما يتقبّل الله من المتّقين، والإخلاص أساس التقوى.

والإخلاص من جنود العقل، كما أنّ الرياء من جنود الجهل، ولا يجتمعان في قلب واحد للتضادّ، كما في النور والظلام.

المحتوي العلمي

حقيقة الاخلاص

الاخلاص هو «تجريد النيّة من الشوائب و المفاسد». قال اللّه تعالى: [وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ] {البيّنة:٥} و قال تعالى: [أَلَا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ] {الزُّمر:٣} و قال: [إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ] {النساء:١٤٦}.

و في الكافي عن الرضا(ع): ان أميرالمؤمنين(ع) كان يقول: «طوبى لمن أخلص للّه العبادة و الدعاء، و لم يشغل قلبه بما ترى عيناه، و لم ينس ذكر اللّه بما تسمع أذناه، و لم يحرك صدره بما أعطى غيره.»

و عن الصادق(ع) في قوله تعالى: [لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا] {هود:٧} قال: «ليس يعني أكثرهم عملاً و انما الإصابة خشية اللّه و النية الصادقة و الخشية.» ثم قال: «الابقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من

العمل، و العمل الخالص الذى لاترید أن یحمدک علیه أحد الا اللّه عزّوجل، و النیة أفضل من العمل، ألا و ان النیة هی العمل، ثم تلا قوله تعالی: [قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ] {الإسراء:۸۴} یعنی علی نیّته.»

و عن السدی عن الباقر(ع) قال: «ما أخلص عبد الایمان باللّه أربعین یوماً – أو قال: ما أجمل عبد ذکر اللّه أربعین یوماً – الاّ زهده اللّه فی الدنیا، و بصره داءها و دواءها، و أثبت الحکمة فی قلبه، و أنطق بها لسانه.»

مراتب الاخلاص

و اعلم ان الإخلاص له مراتب متفاوتة:

أولها مرتبة الشاکرین، و هم الذین یعبدون اللّه تعالی شکراً علی نعمائه الغیر المتناهیة، کما قال تعالی: [وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا] {النحل:۱۸}.

و قال أمیرالمؤمنین(ع) فی نهج‌البلاغة: «ان قوماً عبدوا اللّه رغبةً فتلک عبادة التجار، و ان قوماً عبدوا اللّه رهبةً فتلک عبادة العبید، و ان قوماً عبدوا اللّه شکراً فتلک عبادة الأحرار.»

ثانیها عبادة المقرّبین، و هم الذین یعبدون اللّه تقرّباً إلیه، و المراد بالقرب إما بحسب المنزلة و الرتبة و الکمال، حیث إن واجب الوجود کامل من جمیع الجهات و الممکن ناقص من جمیع الجهات، فإذا سعی العبد فی إزالة النقائص و الرذائل عنه قرب قربا معنویّاً، کما ورد فی الحدیث «تخلّقوا بأخلاق اللّه».

و أما القرب من حیث المحبّة و المصاحبة کما إذا کان شخص بالمشرق و آخر بالمغرب و بینهما کمال المحبة و الارتباط و لایغفل أحدهما عن ذکر صاحبه و نشر مدائحه و کمالاته یقال: بینهما کمال القرب. و إذا کانا متقاربین فی المکان و بینهما ضد ذلک یقال: بینهما کمال البعد. و یراد بالقرب و البعد المعنویان.

ثالثها عبادة المستحین، و هم قوم یبعثهم علی الأعمال و الطاعات الحیاء من اللّه تعالی، حیث علموا

بأنه مطلع على ضمائرهم و عالم بما فى خواطرهم و محيط بدقائق أمورهم، فاستحوا من أن يبارزوه بالمعاصى و بادروا إلى الطاعات و العبادات،كما ورد «اعبد اللّه كانک تراه فإن لم تكن تراه فانه يراک».

و فى وصية لقمان لولده: «يا بنى إذا أردت أن تعصى ربک فاعمد الى مكان لايراک اللّه فيه.»

رابعها عبادة المتلذّذين، و هم الذين يلتذون بعبادة ربهم بأعظم مما يلتذ به أهل الدنيا من نعيم الدنيا. ففى الكافى عن الصادق(ع) قال: «قال اللّه تبارک و تعالى: يا عبادى الصديقين! تنعموا بعبادتى فى الدنيا فانكم تتنعمون بها فى الآخرة.»

و عنه(ع) قال: «قال رسول اللّه(ص): أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها و أحبها بقلبه و باشرها بجسده و تفرغ لها، فهو لايبالى على ما أصبح من الدنيا على عسر أم على يسر.»

و قال(ص): «جعلت قرة عينى فى الصلاة.»

خامسها عبادة المحبّين، و هم الذين وصلوا بطاعتهم و عبادتهم إلى اعلا درجات الكمال من حب اللّه تعالى، كما قال تعالى: [يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ] {المائدة:۵۴}.

و قال أميرالمؤمنين(ع): «فهبنى يا الهى! صبرت على عذابک، فكيف أصبر على فراقک؟!.»

و قال سيّدالشهداء(ع) فى دعاء عرفة: «أنت الذى أزلت الأغيار عن قلوب أحبائک حتى لم يحبوا سواک و لم يلجئوا إلى غيرک.»

و قال(ع): «يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين.»

و قال ولده السجاد(ع) فى المناجاة الانجيليّة: «و عزّتک لقد أحببتک محبة استقرت فى قلبى حلاوتها و أنست نفسى ببشارتها.»

و قال فى المناجاة الأخرى: «الهى فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليک فى حدائق صدورهم، و أخذت لوعة محبتک بمجامع قلوبهم.»

و فى الحديث القدسى: «يابن عمران! كذب من زعم انه يحبّنى فإذا جنّه الليل نام عنّى، أليس كل

محبّ يحب خلوة حبيبه.»

سادسها عبادة العارفين، و هم الذين بعثهم على العبادة كمال معبودهم و انه أهل للعبادة فعبـدوه، كمـا قال سيّدالعارفين و أميرالمؤمنين(ع): «إلهی ما عبدتک خوفاً من نارک و لا طمعـاً فـی جنّتـک و لكـن وجدتک أهلا للعبادة فعبدتک.»

سـابعها عبادة اللّه لنيل ثوابه أو الخلاص من عقابه، و هذه العبادة قد اختلف فيها: فذهب جماعة مـن أصحابنا إلى بطلانها، لأن هذا القصد مناف للاخلاص الذی هو إرادة وجه اللّه سبحانه وحـده، و ان مـن قصد ذلک فانما قصد جلب النفع إلى نفسه و دفع الضرر عنها لا وجه اللّـه سـبحانه، و الأصـلح الصـحة للآيات القرآنية و الأحاديث المعصومية كقوله تعالى: [لِمِثْلِ هَـذَا فَلْيَعْمَـلِ العَـامِلُونَ] {الصَّـفات:٦١} و قولـه تعالى: [وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا] {الأعـراف:٥٦} و قوله: [وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا] {الأنبيـاء:٩٠} و قولـه: [يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] {الحـج:٧٧} أی راجين الفلاح و هو الفوز بالثواب، و قوله تعالى: [رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَـاءِ الزَّكَـاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ] {النور:٣٧و٣٨}

و ما ورد فی الأخبار المتظافرة بطرق عديدة من أن من بلغه ثواب علـى عمـل فعملـه ابتغـاء ذلـک الثواب أوتيه و ان لم يكن الأمر كما بلغه. و قال الصادق(ع): «العباد ثلاثة: قوما عبدوا اللّه عزّوجلّ خوفاً فتلک عبادة العبيد، و قوم عبدوا اللّه طلباً للثواب فتلک عبادة الأجراء و قوم عبدوا اللّه عزّوجلّ حباً لـه فتلک عبادة الأحرار، و هی أفضل العبادة.» و الأفضلية تستلزم وجود الفضـيلة. و نحـو ذلـک الأخبـار الواردة فی الأعمال المأمور بها لقضاء الحوائج و تحصيل الولد أو المـال و التـزويج أو الشـفاء أو طلـب الخيرة أو نحو ذلک، و لو كان مثل هذه النيّات مفسداً للعبادات لكان الترغيب و الترهيب و الوعد عبثاً بل مخلاً بالمقصود.

و کیف یمکن للعبد الضعیف الذلیل الذی لایملک لنفسه نفعاً و لا ضراً و لا موتاً و لا حیاةً و لا نشوراً أن یستغنی عن جلب النفع من مولاه لنفسه أو دفع الضرر عنها، و العبادة المقصود بها الثواب أو الخلاص من العقاب انما وقعت بأمره تعالی، فطالبها طالب لرضاه و أمره.

و تکلیف سائر الناس بتلک المراتب العلیة و الدرجات السنیة لعله تکلیف بالمحال، فإن أکثر الناس لایسعهم تلک القصود، و تلک المراتب مختصة بهم(ع) و من یقرب من مرتبتهم کسلمان و أبی ذر و المقداد، و من ادعی تلک المراتب فانما یصدق فی دعواه إذا علم من نفسه انه لو أیقن أن اللّه تعالی یدخله بطاعته و عبادته النار و بمعصیته الجنة یختار الطاعة و یترک المعصیة، و أین عامة الخلق من هذه الدرجة؟ نعم ربما یتجه ذلک بناء علی زعم من زعم ان النیة هی الاخطار بالبال و ان لم یکن له داع و باعث علی القرب، و قد عرفت خلافه، فإن الداعی و الباعث علی القرب إذا لم یکن حاصلاً قبل فلایمکن الإتیان به بتصویر بالجنان أو نطق باللسان.

و ان کنت فی ریب من ذلک فانظر إلی نفسک حین یغلب علیها حب التدریس لإظهار الفضیلة و الصیت و حب العبادة لاستمالة القلوب و مع ذلک اخطرت ببالک حین ایقاعهما انک تدرس هذا الدرس و تعبد هذه العبادة قربة إلی اللّه تعالی کنت بمعزل عن الإخلاص، و کان اخطارک ذلک من الخناس الذی یوسوس فی صدور الناس، و لم ینفعک ذلک الاخطار، و لم یخلصک عن استحقاق النار، و کان ذلک کاخطار الشبعان اشتهی هذا الطعام قاصداً حصول الاشتهاء.

طریق الوصول الی الاخلاص

و اعلم ان الطریق إلی الإخلاص کسر حظوظ النفس، و قطع الطمع عن الدنیا، و التجرد للآخرة بحیث یغلب ذلک علی القلب، و کم من أعمال یتعب الإنسان فیها و یظنّ انها خالصة لوجه اللّه تعالی و یکون فیها مغروراً، لأنه لایدری وجه الآفة فیها، کما حکی عن بعضهم انه قال: قضیت صلاة ثلاثین سنة

كنت صلّيتها فى المسجد جماعة فى الصف الأول لأنى تأخرت يوما لعذر، و صلّيت فى الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثاني، فعرفت ان نظر الناس اليّ فى الصف الأول كان يسرّني، و كان سبب استراحة قلبى من ذلک من حيث لاأشعر.

و هذا باب دقيق غامض قلّما تسلم الأعمال عن مثل ذلک، و قل من يتنبّه له. و الغافلون عنه يرون حسناتهم فى الآخرة كلّها سيّئات، و بدا لهم من اللّه ما لم يكونوا يحتسبون، و بدا لهم سيئات ما عملوا، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، أ فمن زين له سوء عمله فرآه حسنا.

الخلاصة

١. الاخلاص هو «تجريد النيّة من الشوائب و المفاسد».

٢. ان للإخلاص مراتب متفاوتة: مرتبة الشاكرين، مرتبة المقرّبين، مرتبة المستحين، مرتبة المتلذّذين، مرتبة المحبّين، مرتبة العارفين، مرتبة لنيل ثوابه أو الخلاص من عقابه.

٣. ان الطريق إلى وصول الإخلاص ثلاثة: كسر حظوظ النفس، و قطع الطمع عن الدنيا، و التجرد للآخرة.

بسمه تعالى

الاخلاق الاسلامية

الدرس ١٣

في موانع الإخلاص

الاستاذ: مهدى سازندگى

بكالوريوس

تمهيد

أشار علماء الأخلاق الأفاضل إلى هذه المسألة إشارات دقيقة وواضحة، فقال البَعض، إنّ موانع الإخلاص وآفاته على نحوين: جليّةٌ، و خفيّةٌ. فبعضها خطر جداً، و البعض الآخر أضعف، و الشّيطان و النّفس الأمّارة، يسعيان لتكدير صفاء القلب، و تلويثه بالرّياء، بالمستوى الذى يحوّل الإنسان إلى كيان مهزوزٍ، أمام حالات الخطر، و يشلّ فيه إرادة المُواجهة.

المحتوي العلمى

موانع الاخلاص

فَبعضٌ من مراحل الرّياء واضحةٌ للعيان، بحيث يمكن لكلّ فرد التّوجه إليها، مثلما يأمر الشّيطان المصلى بالتوءدة بصلاته، كى يراه الناس ويقولوا هذا إنسانٌ مؤمنٌ، فلا يتحرّكون من موقع الغِيبة له و الوَقيعة فيه. فهذه من حيل الشّيطان الجليّة.

و يمكن أن تكون وساوس الشيطان بصورةٍ أخفى، حيث تتلبّس بلباس الطّاعة، فمثلاً، يلقى فى نفسک: أنّک إنسانٌ معروفٌ، و النّاس تشير إليک بالبَنان، و يجب أن تكون طاعتک وعبادتک على أتمّ الصّحة، لکى يقتدى بک الناس فى أعمالهم، وستكون شريكاً معهم فى ثوابهم، فَهنا ستستسلم لأحابيل الرّياء من دون أن تشعر.

أو تكون الخُدع والحيل أشدّ وأقوى وأخفى، فمثلاً يقول للمصلّى إنّ العبادة فى السرّ يجب أن تكون مثلها فى العلانية، والذى تكون عبادته فى السّر، أدنى مستوى من العلانية، يعتبر من المرائين، و بهذه الصّورة يدفعه ليحسن صلاته وينمّق عبادته فى الخفاء، ليكون كذلک فى صلاته أمام الناس، و هذا نوعٌ من الرّياء الخَفى، و يمكن أن يغفل عنه الكثيرون، وكذلک المراحل الأخفى والأشد.

نعم فإنّ آفات الإخلاص كثيرةٌ، و لايستطيع أىّ إنسانٍ العبور منها، إلّا بتوفيق ربّانى، و لطفٍ إلهى.

فضيلة الإخلاص فى العمل

الخلوص حالة للإنسان تكون أعماله واقواله مظهراً لها. وإذا كانت صفحة الخلوص حاكمة على قلب إنسان فستكون أقواله مخلصة، أعماله مخلصة، ولاشىء فى نظره غير الله. وإذا استطاع الإنسان أن يصبغ جميع أقواله وأفعاله بصبغة الإخلاص فانه أمر جيد، يقول القرآن: [صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً] {البقرة:١٣٨}

أى أن أحسن صبغة هى صبغة الله، وكذلک يقول القرآن الشريف: ان الدين جاء أصلاً من أجل العبادة، لاصرف العبادة، بل العبادة التى فيها لون الخلوص.

[وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ] {البيّنة:٥}

لم يؤمروا بغير العبادة، ولكن العبادة المصبوغة بلون الخلوص، والذى يريد أن يكون عمله نورانياً ومملوءاً بركة، وفيه خير الدنيا والآخرة، يجب أن يكون ساعياً لا فى صلاته وصيامه فقط بل لتكون جميع أعماله مصبوغة بهذه الصبغة؛ لتكون جميع أعماله مخلصة، فمثلاً المرأة التى تقوم بأعمال المنزل وترعى زوجها وأطفالها إذا أرادت سعادة الدنيا والآخرة، إذا أرادت لبيتها أن يزدهر ويمتلئ فرحاً؛ إذا أرادت أن يكون لها أولاد صالحون، وإذا أرادت محبة زوجها، فيجب عليها أن ترعى زوجها وأولادها فى سبيل الله، أن يكون فى عملها صبغة الله، وصبغة الله هذه تجعل أعمالها مباركة وتعطى لها ثواب المجاهدين فى الخطوط الأمامية للجبهة. وكلما كان الخلوص أكبر كان ثوابه أكثر، حتى يصل درجة تعطى هذه المرأة ثواب الشهيد.

وكذلک الرجل فبالإضافة إلى أن عليه الإخلاص فى صلاته وصيامه يجب عليه الإخلاص فى أعماله الدنيوية. أى ينبغى أن يكون الاخلاص أيضاً فى المشقة التى يتحملها فى سبيل رفاه زوجته وأطفاله ليحفظ ماء وجهه، أى يكون عمله قربة إلى الله تعالى، فبالإضافة إلى البركة والنورانية يعطى ثواب الشهادة

أيضاً، وكلما كانت درجات الخلوص أكثر كان ثواب هذا الرجل أكثر، ويمكن أن يرفع الإخلاص قيمة عمل ما إلى حد يكون أفضل من الدنيا والآخرة.

نموذج من إخلاص على(ع)

يقول الرسول الأكرم(ص): «ضربة علىّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين».[1]

ذلک السيف الذى ضرب فيه أميرالمؤمنين(ع) رأس عمرو بن عبد ودّ وتلک الضربة، ثوابها أفضل من عبادة الجن والإنس، أى لو جعلنا عبادة جميع الإنس والجن فى جهة، وثواب تلک الضربة فى جهة أخرى، لكان ثواب تلک الضربة أفضل، لأن فيها صبغة الإخلاص، إخلاص أميرالمؤمنين(ع). وهناک قضية ينقلها المورخون وهى أنه عندما أسقط على(ع) عمراً على الأرض ليحز رأسه صدر منه فعل بقصد إهانة علىّ، فقام على(ع)، وفى ذلک الظرف العجيب الذى كان يضطرب فيه المسلمون، وفى ذلک الظرف الذى قال فيه النبى(ص) لما برز على(ع) إلى الميدان: «برز الإيمان كلّه إلى الشرک كلّه»[2].

أى أن الإيمان والشرک صار وجهاً لوجه. أى أنه إذا خسر علىّ خسر المسلمون جميعاً، وإذا خسر عمرو خسر المشركون جميعاً. فى ذلک الظرف العجيب والاستثنائى ترک أميرالمؤمنين(ع) عمراً. سار عدة أقدام ثم جثا على صدره وقطع رأسه. فسأل النبى(ص) علياً(ع) عن سبب تأخير قطع رأس عمرو. فقال على: يا رسول الله! لقد أهاننى فغضبت منه، فلو قطعت رأسه حينئذٍ لم يكن جميع عملى خالصاً لله تعالى، بل كان جزء منه انتقاماً لنفسى، فأردت أن يكون جميع عملى خالصاً له سبحانه، ولهذا قمت عنه وتمشيت قليلاً حتى ذهب عنى الغضب وحينئذٍ رجعت إليه وقطعت رأسه ليكون عملى مائة بالمائة لله تعالى. لم تكن أكثر من ضربة بالسيف ولكنها «أفضل من عبادة الثقلين» لأنها قد صبغت بالإخلاص، وذلک أيضاً إخلاص أميرالمؤمنين علىّ(ع).

---

١ ـ بحار الأنوار: ج٣٩ ص٢.

٢ ـ بحار الأنوار: ج٣٩ ص٣.

رواية حول الإخلاص

نقل المرحوم الشهيد فی کتاب منية المريد رواية تقول: جیء بشخص إلی صف المحشر وسئل ماذا کان عملک؟ فقال: قضيت سبعين سنة من عمری فی ترويج أحکام الدين، وکان کلامی قال الباقر وقال الصادق، وأخيراً فقد طالعت فی العلوم الدينية کثيراً حتی صرت عالماً. تحملت المشقة سبعين عاماً فی سبيل دين الله، وصار شعری أبيض فی سبيل الدين.

فيأتی الخطاب: نعم ولکن کان هذا منک لأجل أن يقال لک ما أکثر علمک! قضی سبعين عاماً من عمره ولکن بدون إخلاص. ويأتی الخطاب: ألقوه فی جهنم.

ويقول: ثم يؤتی بشخص آخر إلی صف المحشر فيقال له: ما کان عملک؟ فيقول: لقد جمعت خلال عمری مالاً کثيراً، ولکن کل ما جمعته أعطيته للفقراء والضعفاء. سبعون عاماً من عمری قضيتها فی خدمة خلق الله.

فيأتی الخطاب: نعم لقد کنت إنساناً خيراً ورأی الناس من يدک خيراً کثيراً ولکن لماذا کان منک هذا العمل؟ کان من أجل أن يقال لک: بارک الله فيک إنک إنسان خير ومحب للخير. کان عملک تظاهراً ورياءً ولم يکن قربة لله. وهذا يجب أن يذهب أيضاً إلی جهنم.

ثم يؤتی بشخص ثالث إلی صف المحشر ويقال له: ماذا کان عملک؟ فيقول: کنت مجاهداً فی الخطوط الأمامية من جبهات القتال، ضربت وقتلت حتی استشهدت.

فيأتی الخطاب: نعم ذهبت إلی الجبهة وقتلت الأعداء حتی قُتلت ولکن من أجل ماذا؟ من أجل أن يقال ما أکثر شجاعته. نعم هذا الشخص الذی کان فی الجبهة نراه هنا لم يکن عمله فی سبيل الله وليس لعمله تلک الصبغة. ويأتی الخطاب: ألقوه أيضاً فی نار جهنم.

لکن يأتون بمذنب إلی صف المحشر، وعندما ينظر إلی حسابه وکتابه يری بأن مصيره إلی جهنم لأن أعماله خفيفة وذنوبه ثقيلة، ولکنه قد ذرفت عيناه قطرة من الدمع فی إحدی الليالی فی سبيل الله، فبکی

لذنوبه، وذرفت عيناه قطرة من الدمع فى عزاء الإمام الحسين(ع)، فيغفر لهذا ويدخل الجنة.

لم يشاهد أويس القرنى النبى الأكرم(ص) ولكن عشق النبى كان راسخاً فى قلبه إلى درجة أنه عندما كسرت رباعية النبى فان رباعيته كسرت أيضاً وهو فى اليمن مع ما بينهما من فاصلة بعيدة. لقد كانت العلاقة عجيبة بين أويس والنبى. عندما جاء أويس إلى المدينة كان النبى(ص) قد ذهب فى غزوة له. فرجع أويس لأن أمّه أوصته أن يرجع سريعاً. وحينما وصل النبى المدينة قال: أرى هنا نور الله واشم رائحة الله.

من هنا نعلم أن أويساً القرنى وصل إلى هذه الدرجة بإخلاصه بحيث يقول النبى(ص): ارى نور الله فى المدينة.

قال سبحانه و تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا] {مريم:٩٦}

يقول: ان من يعمل لله تعالى بصدق وعلى ضوء إيمانه فان رب العالمين سيجعل محبته فى القلوب حتى يحبهم الجميع.

ويقول الإمام الصادق(ع): «من أراد عزاً بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان، فلينتقل من ذلّ معصية الله إلى عز طاعته»[1].

الخلاصة

١. قال بَعض علماء الأخلاق إنّ موانع الإخلاص وآفاته على نحوين: جليّةٌ، و خفيّةٌ. فبعضها خطر جداً، و البعض الآخر أضعف، و الشّيطان و النّفس الأمّارة، يسعيان لتكدير صفاء القلب، و تلويثه بالرّياء.

٢. بَعضٌ من مراحل الرّياء يحاسب من موانع الواضحة للاخلاص.

٣. آفات الإخلاص كثيرةٌ، و لايستطيع أىّ إنسانٍ العبور منها، إلّا بتوفيق ربّانى، و لطفٍ إلهى.

٤. الخلوص حالة قلبية للإنسان تكون أعماله واقواله مظهراً لها.

---

١ ـ بحار الأنوار: ج٧٥ ص١٩٢.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ١٤

مراتب الإخلاص

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

قال النبى(ص): «لاتجلسوا عند كل داع مدع يدعوكم من اليقين إلـى الشـک ومـن الإخـلاص إلـى الرياء، ومن التواضع إلى الكبر، ومن النصيحة إلى العداوة ومن الزهـد إلـى الرغبـة. وتقربـوا إلـى عـالم يدعوكم من الكبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الشک إلى اليقين، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن العداوة إلى النصيحة. ولايصلح لموعظة الخلق إلا من خاف هـذه الآفـات بصـدقه، وأشـرف علـى عيوب الكلام، وعرف الصحيح من السقيم وعلل الخواطر وفتن النفس والهوى».[1]

المحتوي العلمي

موجز عن المراتب الخمس للاخلاص

البحث حول فضيلة الإخلاص والخلوص. وتوجد خمس مراتب للخلوص.

المرتبة الأولى: وهى أن يكون العمل لله فقط ولكن المحرک هى الدنيا.

المرتبة الثانية: يكون العمل لله، والنية لله، ولكن المحرک والداعى هى الآخرة. والدخول إلى الجنة أو عدم الدخول إلى جهنم.

المرتبة الثالثة: تكون النية لله ولكن المحرک مقام لقاء الله ووصول الإنسان إلى مقام عندالله.

وهذه المراتب الثلاث وخاصة المرتبة الثالثة عالية جداً. والعبـادة فيهـا مقبولـة، وفيهـا ثـواب الـدنيا والآخرة. ولكن ينبغى الالتفات إلى أن لكل مرتبة من هذه المراتب الثلاث حجاب نورانى، وفى كل مـن هذه المراتب توجد أنية مختبئة.

فإذا كانت الدنيا المحرک فقد جاء بالعمل لنفع نفسه، وإذا كانت الآخرة فقد جاء بالعمـل أيضـاً لنفـع

---

[1] ـ بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٢، ص٥٢.

نفسه، وإذا كنانت المرتبة الثالثة فهى غير خالية أيضاً من الذاتية. وليس فيها حجب ظلمانية، ولكن فيها حجب نورانية، ويقال له فى اصطلاح أهل القلوب الجنة: الشهوة العقلية لا الشهوة الجنسية، وان كان يوجد بين المرتبة الثالثة والمرتبتين الأولى والثانية من فرق كبير.

الشكر و الحياء لله، مرتبة رابعة للخلوص

المرتبة الرابعة من الخلوص هى أن لاتكون أى ذاتية فى العبادة وتكون العبادة أو ترك المعصية من أجل شكر مقام الربوبية فقط.

نقرأ فى الروايات أن النبى الأكرم(ص) والزهراء(س) عبدا الله سبحانه حتى تورمت قدماهما، وكانت الزهراء(س) تقف على رجل واحدة من شدة التعب ثم تقف على الأخرى. تقول أم سلمة: قلت لرسول الله(ص) لماذا كل هذه العبادة؟ فقال: «ألا أكون عبداً شكوراً».

ألا ينبغى أن أشكر الله الذى أعطانى كل هذه النعم؟ وكل نعم الله تعالى لها شكر، وإذا أردنا أن نحصى مليوناً من نِعم الله سبحانه فانا لا نستطيع.

[وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا] {النحل:١٨}

فان مراتب الخلوص هى عبادتنا له سبحانه شكراً على نعمه التى وهبها لنا.

والأهم من ذلک الاجتناب عن الذنوب لأننا فى مرأى ومسمع منه تعالى. أى ان الدافع لترک الذنوب هو الخجل والحياء منه سبحانه، يقول القرآن: [وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ] {التوبة:١٠٥}

أى ارتكب أىّ ذنب تريد ولكن لاتغفل انک فى مرأى ومسمع من الله تعالى، وفى مرأى ومسمع من رسول الله(ص)، وفى مرأى ومسمع من جميع الأئمة الطاهرين.

ومن هذا القبيل إن الإنسان إذا نظر وإذا تحدث وإذا تصور يجب أن يعلم أنه فى مرأى ومسمع من الله ورسوله والأئمة الطاهرين(ع). فجميع هؤلاء حاضرون وناظرون. وشىء جيد ألا يقدم الإنسان على

المعصية على الأقل حياءً من الله تعالى. ويطلق أهل القلوب الحية على هذا اسم العبــادة الاســتحيائية. أي أن الإنسان عندما يرى بأن الله تعالى ناظر إليه يسـتحى فلايغتــاب ولايــتهم ولايكــذب ولايمــد بصــره وترتدى المرأة الحجاب الصحيح ولايأكل أموال الناس بالباطل، وأخيراً لايكون فى ذمّته حق لله ولا حق للناس لأنه فى مرأى ومسمع من الله سبحانه.

يريد الله منا أن نكون أوفياء، ويقول فى ثلاث مواضع (سورة الانعام، حج و زمر) عن غير الأوفياء له سبحانه: [مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ]

أى أن هؤلاء الناس لم يعرفوا حق الله. هؤلاء الناس غير أوفياء لله تعالى. ولكن ربما يكون الخطــاب ممزوجاً بالعتاب، يقول: [قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ] {عبس:١٧}

قتل الإنسان ما أكثر خيانته، لأنه فى ملك الله يأكل رزق الله وفى مقابل ذلک يعصيه. قـد أعطـاه الله تعالى جميع نِعم وخيرات هذا العالم ولكنه لايصلى ركعتين لله، أو يصليها كسلاناً، أو يصليها بشكل سيئ، وحقيقة أن مثل هؤلاء الأشخاص هم من أتعس أفراد البشرية الذين لايهتمون بالمقام الإلهى المقدس.

المحبة لله، مرتبة خامسة للخلوص

هى تلک المرتبة التى تكون العبادة فيها لله تبارک وتعالى فيجتنب عن الذنب من أجـل الله سـبحانه، ودافعه إلى ذلک هو محبة الله تعالى فى قلبه عشق الله؛ وذلک العشق والمحبة له سبحانه يلجئـه ليصــلى ولايخالف الخالق جل شأنه.

ومحبة الله تعالى قد أحرقت جميع الأوثان فى قلبه. ومحبة الله هى من النيران التـى تحطـم الأوثــان، تحطم الأوثان ثم تحرقها أيضاً. وإذا تمكن حبّ الله فى قلب فانه لايرى شيئاً فى هذا العالم إلا حسن.

وإذا استطاع المرء أن يجعل محبة الله فى قلبه وكانت محركاً له للاجتنــاب عــن الـذنوب، فــان هــذه العبادة هى عبادة الأحرار كما قال الإمام السجاد(ع).

ماذا تعنى عبادة الأحرار؟ ربما كان الإنسان عبداً لبطنه، وربما كان عبداً للرئاسة، وربما كان عبداً لهواه، وربما كان عبداً للشيطان.

ولكن حينما يمزق كل هذه العبوديات ولايكون عبداً إلا لله سبحانه، فمثل هذا الإنسان هو إنسان حرّ. وعندما يكون إنساناً حراً فان عبادته تكون عبادة الأحرار، فعبادة الأحرار هى تلک العبادة التى لايكون فى القلب أى شيء سوى محبة الله تعالى.

المحبة لله، مرتبة أخيرة للخلوص

وأما المرتبة الأخيرة للخلوص فهى حيث لايكون هناک محرک غير الله سبحانه. يعنى أن يأتى بالعبادة لله تعالى فقط. لقد كان الدافع والمحرک فى القسم الخامس هو «محبة الله»، وأما المحرک والدافع فى هذا القسم فهو نفس «الله».

يقول أميرالمؤمنين على(ع): «إلهى ما عبدتک خوفاً من نارک ولا طمعاً فى جنّتک، بل وجدتک أهلاً للعبادة فعبدتک».

يعنى: إلهى لم أعبدک من أجل جنّتک ونارک، أنا العبد وأنت المولى، وجدت أنه يجب أن أنحنى إجلالاً لک. ولهذا فان محركى ودافعى هو أنت.

وقد ذكر القرآن الشريف فى آية هذا النوع من العبادة. و هى الآية نزلت فى حق علىّ والزهراء والحسنين(ع) وكذلک خادمتهم فضة، حينما كانوا صياماً واعطوا إفطارهم وهو الخبز مدّة ثلاثة أيام إلى مسكين ويتيم وأسير وأفطروا على الماء فقط. فنزلت سورة «هل أتى» فى ذكر هذا الإيثار. يقول تعالى: [وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا] {الإنسان:٨}

يعنى أنهم أعطوا غذاءهم الذى يحبّونه إلى مسكين ويتيم وأسير. ولكن من أجل أى شيء؟

[إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا] {الإنسان:٩}

هنيئاً لمن وصل إلى هذه المرتبة. وهنيئاً لمن كانت محبة الله هى المحرّک له للعبادة.

معطيات الإخلاص

بما أنّ حالة الإخلاص، تُمثّل أغلى جوهرةٍ تُحفظ فى خزانة الرّوح، و ما يترتّب على هذه الحالة من معطيات إيجابيةٍ مهمّةٍ، فقد أوردت الرّوايات تلک المسألة، بصورةٍ بليغةٍ جميلةٍ، و منها: «ما أَخْلَصَ عَبْدٌ للّهِ عَزَّوَعَلَّ أَربَعِينَ صَباحاً إلّاجَرَتْ يَنابِيعُ الحِكْمَةُ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسانِهِ».

و فى حديثٍ آخر عن أميرالمؤمنين(ع)، أنّه قال: «عِنْدَ تَحققُ الإخلاصُ تَسْتَنِيرُ البَصائِرُ».

وَ وَرد عنه(ع) أيضاً: «فِي إخلاصِ النيّاتِ نَجاحُ الامورِ».

و يتّضح من ملاحظة هذا الحديث، أنّ النيّة كلّما أخلصت، كان الإهتمام بِباطن الأعمال أقوى، أو بتعبيرٍ أدق: إنّ الجَودة و الدّقة على مستوى السّلوک و العمل، ستكون فى ذَروتها، ونجاح العمل سيكون مضموناً، و العَكس صحيحٌ، فإذا كان الهدف يتركز على معالم الظاهر فقط، دون أن يولّى أهميّةً للمحتوى، فسيكون مصير العمل إلى الفَشل و الخَيبة.

و لذلک قال أميرالمؤمنين(ع): «لَو خَلُصَتِ النِّيَّاتُ لَزَكَّتِ الأَعمالُ».

الخلاصة

١. للخلوص خمس مراتب:

المرتبة الأولى: وهى أن يكون العمل لله فقط ولكن المحرک هى الدنيا.

المرتبة الثانية: يكون العمل لله، والنية لله، ولكن المحرک والداعى هى الآخرة.

المرتبة الثالثة: تكون النية لله ولكن المحرک مقام لقاء الله ووصول الإنسان إلى مقام عندالله.

المرتبة الرابعة هى أن لاتكون العبادة أو ترک المعصية من أجل شكر مقام الربوبية فقط.

المرتبة الخامسة هى أن تكون العبادة فيها محبة لله تعالى.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ١٥

في الرّياء

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

نشير فى هذا الدرس الى النقطة المقابلة للإخلاص و هى: «الرّياء»، و قد ورد ذمّه بكثرةٍ فى الآيات و الروايات الشريفة، التى نهرت النّاس من هذا العمل المُشين، و إعتبرته من أوضح مصاديق الشّرک الخفى، و علّة بطلان الأعمال، و علامة من علامات النّفاق.

و نجد فيها أنّ الرّياء يهدم الفضائل، و يزرع بذور الرّذائل فى روح الإنسان، وُ يشغله عن الهدف الأساسى الحقيقى، فى خطّ الرّسالة و الإستقامة. و هو أداةٌ قويةٌ مؤثرةٌ بيد الشّيطان الرّجيم، لإضلال و صرف النّاس عن الطّريق الصّحيح، و تحويلهم من دائرة الإيمان، إلى دائرة الكفر و الإنحراف.

المحتوي العلمى

الرياء

اعلم ان الرياء يتفاوت فبعضه أشد و أغلظ من بعض، و يختلف باختلاف أركانه، و أركانه ثلاثة: المراءى به، و المراءى لأجله، و نفس قصد الرياء:

الركن الأول: نفس قصد الرياء

و له درجات أربع:

«الأولى» – و هى أغلظها – ان لا يكون مراده الثواب أصلا، كالذى يصلى بين أظهر الناس الفرض أو النفل و لو انفرد لم يصل.

«الثانية» ان يكون له قصد الثواب أيضا قصدا ضعيفا.

«الثالثة» ان يكون قصد الثواب و قصد الرياء متساويين، بحيث لو كان كل منها خاليا من الآخر لم يبعثه على العمل.

«الرابعة» أن يكون اطلاع الناس مرجحا و مقويا لنشاطه، و لو لم يكن لكان لا يترک العبادة. و الكل حرام و مبطل للعمل لما تقدم من قوله تعالى فى الحديث القدسى: «انا اغنى الأغنياء عن الشرک»، و قوله تعالى: «و لايشرک بعبادة ربه أحدا» ١٨: ١١٠، وقوله(ع) فى علامة المرائى: «يكسل فى الخلوة و ينشط عند الناس.»

الركن الثانى: المراءى به

و هو الطاعات، و هو ينقسم إلى: الرياء بأصول العبادات، و إلى الرياء بأوصافها:

القسم الأول له درجات ثلاث:

«الأولى» الرياء بأصل الايمان، و هو أغلظ أبواب الرياء، و أصحابه من المنافقين المخلدين فى النار، و ربما كان حال هذا أشد من الكافر حيث جمع بين كفر الباطن و نفاق الظاهر.

«الثانية» الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصول الدين، كالرياء بالصلاة و الزكاة و الحج و الجهاد، و هذا أهون من الأول.

«الثالثة» الرياء بالنوافل و السنن التى لو تركها لا يعصى و لكن يكسل عنها فى الخلوة و ينشط عند الناس.

القسم الثانى الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، و هى أيضا على ثلاث درجات:

«الأولى» أن يرائى بفعل ما فى تركه نقصان العبادة، كالذى يكون غرضه تخفيف القراءة و الركوع و السجود فإذا رآه الناس أحسن الركوع و السجود و القيام.

«الثانية» أن يرائى بفعل ما لا نقصان فى تركه و لكن فعله فى حكم التتمة و التكملة للعبادة، كالتطويل فى الركوع و السجود و مدّ القيام و تحسين الاعتدال و طول القراءة و التأنى فيها و فى الأذكار.

«الثالثة» أن يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل، كحضوره الجماعة قبل القوم و قصده الصف

الأول و يمين الامام و نحو ذلک.

الركن الثالث: المراءى لأجله

و له درجات ثلاث:

الأولى – و هى أشدها – ان يكون مقصده التمكن من معصية، كالذى يرائى بعباداته و يظهر التقوى و الورع بكثرة النوافل و الامتناع من أكل الشبهات، و غرضه أن يعرف بالأمانة فيولى القضاء و الأوقاف و الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يودع الودائع فيجحدها.

الثانية أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة.

الثالثة ان يكون غرضه ان لاينظر إليه بعين النقص و ان يعدّ من الخاصة و الزهاد، كالذى يمشى مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشى و يترک العجلة کی لا يقال انه من أهل اللهو و السهو لا من أهل الوقار، أو يبدر منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلک بالاستغفار و تنفس الصعداء و إظهار الحزن.

و نعود هنا للآيات القرآنية الكريمة، التى ترينا وجه المرائى القبيح، و النّتائج السلبيّة المترتّبة على الرّياء:

١. [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ] {البقرة:٢٦۴}

٢. [فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا] {الكهف:١١٠}

٣. [إِنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا] {النساء:١۴٢}

۴. [وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا] {النساء:٣٨}

۵. [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ] {الأنفال:۴٧}

۶. [فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ] {الماعون:۵-٧}

الرّياء فی الرّوايات الإسلاميّة

تطرقت الرّوايات لهذا الأمر بقوّةٍ و أهميّة بالغة، و عرّفت الرّياء بأنّه من أخطر الذّنوب.

ما وَرد عن الرّسول الأكرم(ص)

١. أنّه(ص) قال: «أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيكُمْ الرّياء و الشَّهوةُ الخَفِيّةُ».

ويمكن أن يكون المراد من الشّهوة الخفيّة، هو المقاصد الخفيّة للرياء.

٢. و أيضاً ما نقل عنه(ص): «أدنى الرِّياءِ شِركٌ».

٣. وأيضاً عنه(ص): «لا يَقْبَلُ اللَّهُ عَملًا فِيهِ مِقدارُ ذَرَّةٍ مِنْ رياءٍ».

۴. و عنه(ص): «إِنَّ المُرائِی يُنادی يَومَ القِيامَةِ يا فاجِرُ يا غادِرُ يا مُرائی ضَلَّ عَمَلُکَ وَ حَبَطَ أَجْرُکَ إِذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَکَ مِمَّن كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ».

۵. و قال أحد أصحاب الرسول الأكرم(ص)، رأيت رسول اللّه(ص) فی يوم ما باكياً، فقلت: ما يُبكيك يا رسول اللّه؟ فقال: «إِنّی تَخَوَّفْتَ عَلى أُمَّتِی الشِّرکَ، أَمّا إِنّهُمْ لا يَعْبُدُونَ صَنَماً وَلا شَمْساً وَ لاقَمَراً وَلا حَجراً، وَلَكِنَّهُم يُراؤُونَ بِأَعْمالِهِم».

۶. و فی حديث آخر عنه(ص) قال: «إِنَّ المَلَکَ لَيَصْعَدُ بِعَمَلِ العَبْدِ مُبْتَهِجاً بِهِ فَإِذا صَعَدَ بِحَسَناتِهِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِجْعَلُوها فِی سِجِّينٍ إِنَّهُ لَيسَ إِيَّایَ أَرادَ بِها».

٧. و أيضاً عنه(ص): «يَقُولُ اللَّهُ سُبْحانَهُ إِنِّى أَغْنَى الشُّرَكاءِ فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا ثُمَّ أَشْرَكَ فِيهِ غَيرِى فَأَنَا مِنْهُ بَرِىءٌ وَهُوَ لِلَّذِى أَشرَكَ بِهِ دُونِى».

هذه الأحاديث عن رسول اللَّه(ص)، بيّنت أنّ إثم الرّياء بدرجةٍ من الشدّة، بحيث لايضاهيه شىءٌ من الذّنوب و الخطايا، و ما ذلک إلّا للنتائج السّيئة للرّياء فى نفس وروح الإنسان، وكذلک على مستوى الفرد والمجتمع.

ما ورد عن الأئمّة(ع)

٨. ما ورد عن الإمام الصادق(ع)، ينقل عن جدّه(ع): «سَيأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمانٌ تَخْبُثُ فِيهِ سَرائِرِهُمْ وَتَحْسُنُ فِيهِ عَلانِيَّتِهِم، طَمَعاً فى الدُّنيا لا يُرِيدُونَ بِهِ ما عِنْدَ رَبِّهِم يَكُونَ دِينُهُمْ رِياءً، لايُخالِطُهُم خَوْفٌ، يَعُمُّهُمُ اللَّهُ بِعِقابٍ فَيَدْعُونَهُ دُعاءَ الغَرِيقِ فلا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ».

٩. و فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق(ع)، أنّه قال: «كُلُّ رِياءٍ شِرْكٌ، إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِلنَّاسِ كانَ ثَوابُهُ لِلنّاسِ، وَ مَنْ عَمِلَ لِلَّهِ كانَ ثَوابُهُ عَلَى اللَّهِ».

١٠. و فى حديث عن أميرالمؤمنين(ع)، قال: «المُرائِى ظاهِرُهُ جَمِيلٌ وَ باطِنُهُ عَلِيلٌ».

علامات المُرائى

فقد طرح العلّامة المرحوم الفَيض الكاشانى سؤالًا فى كتابه: «المحجّة البيضاء»، و قال: فبأىّ علامةٍ يُعرف العالم و الواعِظ، أنّه صادق مخلصٌ فى وعظه، غير مريدٍ رئاء النّاس؟.

ثم قال فى جواب هذا السؤال: «فاعلم أنّ لذلک علاماتٍ، إحداها أنّه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً و أغزرُ منه علماً، و النّاس له أشدّ قبولاً، فرح به ولم يحسده، نعم لا بأسَ بالغِبطة، و هى: أن يتمنّى لنفسه مثل عمله، والاخرى أنّ الأكابر إذا حَضروا مجلسه لم يتغيّر كلامه، بل يبقى كما كان عليه، فينظر إلى الخلق بعينٍ واحدةٍ، و الاخرى: أن لايحبّ إتّباع النّاس له فى الطريق، و المشى خلفه فى الأسواق، و

لذلک علاماتٌ کثیرةٌ یطول إحصاؤها».

و أفضل المعاییر لمعرفة المرائی من غیره، هو ما وردنا عن النبی(ص) و الأئمّة الأطهار(ع)، ومن جملة الأحادیث:

١. فی حدیثٍ عن الرسول الأکرم(ص)، قال: «أَمّا عَلامَةُ المُرائی فَأَربَعَةٌ: یَحْرُصُ فی العَمَلِ للّٰهِ إذا کانَ عِنْدَهُ أَحَدٌ وَیَکْسَلُ إذا کانَ وَحْدَهُ وَ یَحْرُصُ فی کُلِّ أَمْرِهِ عَلَی المَحمَدَةِ وَیُحْسِنُ سَمْتَهُ بِجُهْدِهِ».

٢. وَ وَرد فی نفس هذا المعنی فی حدیثٍ عن أمیرالمؤمنین(ع)، بألفاظٍ جمیلةٍ، فقال: «لِلمُرائی أرْبَعة عَلاماتٍ: یَکْسَلُ إذا کانَ وَحدَهُ، وَ یَنْشُطُ إذا کانَ فی النّاسِ، وَ یَزیدُ فی العَمَلِ إذا اثنِیَ عَلَیهِ، وَیَنْقُصُ مِنْهُ إذا لَمْ یُثْنَ عَلَیهِ».

و خلاصة القول: إنّ کلّ عملٍ، کان القصد منه المباهاة للناس، فهو دلیلٌ علی الرّیاء، و مهما کان هذا القصد غامضاً و خفیّاً فی دائرة الوعی، فهو دلیلٌ علی إزدواجیّة شخصیّة الإنسان فی التعامل مع نفسه، فی الخلأ والملأ.

و هذا الأمر فی الحقیقة بالغ فی الدقّة و الغموض، لدرجةٍ أنّ الإنسان یخدع وجدانه و ضمیره، بإتیان نفس الأعمال التی یأتی بها فی الملأ، و بدرجةٍ عالیةٍ من الجودة و الحُسن، فی خلوته لیقنع نفسه أنّه لا یُرائی، لأنّه یساوی بأعماله فی الظّاهر والباطن، ولکنّ الحقیقة هی إزدواجیّة ذلک الشّخص، ففی کلا الحالتین یکون مرائیاً.

بالطّبع یجب إجتناب الإفراط و التّفریط فی هذه المسائل، لأننا وجدنا اناساً إمتنعوا من أداء کثیرٍ من الواجبات و حُرموا من الثّواب حذراً أو خوفاً من الرّیاء، فلم یؤلّفوا کتاباً، ولم یرشدوا أحداً من النّاس، ولم یصعدوا المنابر، لا لِشیءٍ إلّا لأنّهم کانوا یعیشون الخوف من الوقوع فی الرّیاء؟!

و قد ورد فی الرّوایات، أنّ من یقصد القُربة إلی اللّٰه تعالی، إذا أتی بعملٍ ما علانیةً، و عرف به الناس وفرح هو من ذلک، ما دام قصده هو التّقرب إلی اللّٰه سبحانه و تعالی، فلن یؤثّر ذلک علی عمله.

سبب الرياء و علاجه

اعلم ان الرياء بالعبادة انما ينشأ من حب لذة الحمد، و الفرار من ألم المذمة، و الطمع مما فـى أيـدى الناس، فالعلاج ان يعرف العبد مضرة الرياء، و ما يفوته من صلاح قلبه، و ما يحرم عنه فـى الحـال مـن التوفيق و فى الآخرة من المنزلة عند اللّه، و ما يتعرض له من العقاب و المقت و الخزى، و ما يفوته مـن ثواب الآخرة و رضاء اللّه و انه قد أتعب بدنه و أحبط أجره، و قد خسر الدنيا و الآخرة لما يتعرض لـه فى الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإن رضاء الناس غاية لا تدرک، و کلما يرضى به فريق يسخط به فريق، و رضاء بعضهم فى سخط بعض، و من طلب رضاهم فى سخط اللّـه سـخط اللّـه عليهم و أسخطهم عليه.

و الأمور کلها و القلوب بيد اللّه يقلبها کيف يشاء، و من أصلح فيما بينه و بين اللّه أصلح اللّه فيما بينه و بين الناس، و من اسخط اللّه الذى بيده جميع الأمور برضاء الناس الذين لايملکون لأنفسهم نفعـاً و لا ضراً و لا موتاً و لاحياةً و لا نشوراً فهو أحمق سفيه، و کيف يبعثه على العمل الطمع بما فى أيدى الناس و هو يعلم ان اللّه هو المسخر للقلوب بالمنع و الإعطاء.

يوجد طريقان لِمُعالجة حالة الرّياء، فالرّياء مَثَلُه کَمَثَلِ سائر الأخلاق السلبيّة و السّـلوکيّات الذّميمـة، ففى بادىء الأمر، علينا التّرکيز على معرفةِ العِلَل، و جذور هذه الحالة السّلبية فى الواقع النّفسـى، لأجـل القضاء عليها، ثم التّحرک نحو دراسة عواقبها المؤلمة، و الکشف عنها فى عمليّة التّصـدى لهـا، و تـوخى جانب الحَذر منها.

بالطّبع لقد أشرنا، أنّ الرّياء هو: «الشّرک الأفعالى»، و الغفلة عن حقيقة التّوحيد، فإذا ما تأصلت حقيقة التّوحيد الأفعالى فى قلوبنا، و إستحکمت فى نفوسنا، و إستيقنّا أنّ العزّة للّه جميعاً، من موقـع المشـاهدة الوجدانية، و رأينا أنّ الرّزق والضرّ و النّفع بيده و هو المسخّر للقلوب، فسوف لن نختار سواه بـدلًا، ولـن نُدنّس أنفسنا و أفعالنا بحالة الرّياء الشّنيعة، التى لاتنسجم مع خطّ التّوحيـد فـى دائـرة الأفعـال، فالـذى

يعيش اليقين الرّاسخ بهذه الحقيقة، و هى أنّ مَنْ يكون مع اللّه تعالى، يكون كلّ شيءٍ معه، و بدونه فهو لا شيء، ويرى بعين البصيرة، مِصداق قوله تعالى: [إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ] {آل عمران:١٦٠}

وإذا أدركنا هذه الحقيقة القرآنية التى تقرر أنّ العزّة للّه‌تعالى: [أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعًا] {النساء:١٣٩}

أجل إذا ترسّخَ الإيمان بهذه الحقائق الإيمانيّة فى أعماق الرّوح، فلايجد الإنسان فى نفسه باعثاً على الرّياء و النّفاق، و كسب الجاه والمقام لدى الناس و المُفاخرة و المُباهاة.

و قال بعض علماء الأخلاق، إنّ دعامة الرّياء وأساسِه هو حبّ الجاه و المُقام، و عند تحليلنا لمفهوم الرّياء، نجد أنّه يتكون من ثلاثة أركانٍ:

«حبّ الثّناء والمدح من الناس»، و «الفرار من مذمّتهم»، و «الطّمع لِما فى أيديهم».

ثم يضرب لذلک مثلاً و هو المجاهد فى سبيل اللّه، فتارةً يكون قصدُه المُباهاة و المفاخرة، و إظهار شجاعته وبطولاته للناس، واخرى خوفاً من أن يتّهمه الناس بالجُبن و الخوف، و ثالثةً يكون دافعه الحصول على الغنائم، و الفائز الوحيد، هو الذى يدافع عن الحقّ و الدّين لا غير.

و يعتقد البعض، أنّ إحدى طرق المعالجة، هى السّعى إلى إخفاء العبادات و الحسنات، و لايُمارسها فى العلن، ليتخلّص تدريجيّاً من هذه العقدة المستعصيّة فى الذّات المرائيّة.

ولكن هذا لايعنى، عدم الحضور فى صلاة الجَماعة و الجُمعة و الحج، لأنّها تعدّ أيضاً خسارةً كُبرى لاتُعوّض.

الخلاصة

١. النقطة المقابلة للإخلاص هی: «الرّياء» و هو أداةٌ قويةٌ مؤثرةٌ بيد الشّيطان الرّجيم، لإضلال و صرف النّاس عن الطّريق الصّحيح.

٢. ان الرياء يتفاوت فبعضه أشد و أغلظ من بعض، و يختلف باختلاف أركانه، و أركانه ثلاثة: المراءى به، و المراءى لأجله، و نفس قصد الرياء.

٣. اعلم ان الرياء بالعبادة انما ينشأ من حب لذة الحمد، و الفرار من ألم المذمة، و الطمع مما فی أيدی الناس.

۴. علاج الرياء ان يعرف العبد مضرة الرياء، و ما يفوته من صلاح قلبه، و ما يحرم عنه فی الحال من التوفيق و فی الآخرة من المنزلة عند اللّه، و ما يتعرض له من العقاب و المقت و الخزی، و ما يفوته من ثواب الآخرة و رضاء اللّه و انه قد أتعب بدنه و أحبط أجره، و قد خسر الدنيا و الآخرة لما يتعرض له فی الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق.

۵. قال بعض علماء الأخلاق، إنّ دعامة الرّياء وأساسِه هو حبّ الجاه و المُقام، و عند تحليلنا لمفهوم الرّياء، نجد أنّه يتكون من ثلاثة أركانٍ: «حبّ الثّناء والمدح من الناس»، و «الفرار من مذمّتهم»، و «الطّمع لِما فی أيديهم».

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۱۶

فصل في التوكل

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

التولكل هو: الاعتماد على الله تعالى فى جميع الامور، وتفويضها اليه، والاعراض عما سواه. وباعثه قوة القلب واليقين، وعدمه من ضعفهما او ضعف القلب، وتأثره بالمخاوف والاوهام.

والتوكل هو: من دلائل الايمان، وسمات المؤمنين ومزاياهم الرفيعة، الباعثة على عزة نفوسهم، وترفعهم عن استعطاف المخلوقين، والتوكل على الخالق فى كسب المنافع ودرء المضار.

يتفاوت الناس فى مدارج التوكل تفاوتاً كبيراً ، كتفاوتهم فى درجات ايمانهم: فمنهم السباقون والمجلون فى مجالات التوكل، المنقطعون الى الله تعالى، والمعرضون عمن سواه، وهم الانبياء والاوصياء(ع)، ومن دار فى فلكهم من الاولياء.

ومن اروع صور التوكل واسماه، ما روى عن ابراهيم(ع): «انه لما القى فى النار، تلقاه جبرئيل فى الهواء، فقال: هل لک من حاجة؟ فقال: اما اليک فلا، حسبى الله ونعم الوكيل. فاستقبله ميكائيل فقال: ان اردت ان اخمد النار فان خزائن الامطار والمياه بيدى، فقال: لا اريد. واتاه ملک الريح فقال: لو شئت طيرت النار. فقال: لا اريد، فقال جبرائيل: فأسال الله. فقال: حسبى من سؤالى علمه بحالى»[1].

ومن الناس من هو عديم التوكل، عاطل منه، لضعف احساسه الروحى، وهزال ايمانه. ومنهم بين هذا وذاک على تفاوت فى مراقى التوكل.

المحتوي العلمى

فضل التوكل

قال اللّه تعالى: [وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] {المائدة:٢٣} و قال: [وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ

[1] ـ سفينة البحار ج ٢ ص ٦٨٣.

حَسْبُهُ] {الطّلاق:٣} و قال تعالى: [فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ] {آل عمران:١٥٩}. فأعظم بمقام موسوم بمحبّة اللّه صاحبه و مضمون بكفاية اللّه لابسه، فان المحبوب لايعذب و لايبعد و لايحجب.

و قال تعالى: [أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ] {الزُمر:٣٦} فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل و هو المكذب بهذه الآية.

و قال تعالى: [وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] {الأنفال:٤٩} أى عزيز لايذل من استجار به و لايضيع من لاذ به و التجأ إلى حماه، و حكيم لايقصر عن تدبير من توكل على تدبيره.

و قال رسول اللّه(ص): «لو انكم تتوكلون على اللّه حق توكّله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً و تروح بطاناً.»

و قال(ص): «من انقطع إلى اللّه كفاه اللّه كل مؤنة و رزقه من حيث لايحتسب، و من انقطع إلى الدنيا وكّله اللّه إليها.»

و قال(ص): «من سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد اللّه أوثق منه بما فى يده.»

و عن الصادق(ع): «ان الغنى و العزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا.»

و عن الكاظم(ع) فى قوله تعالى: [وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ] {الطّلاق:٣} قال: للتوكل على اللّه درجات: منها ان تتوكل على اللّه فى أمورک كلها، فما فعل بک كنت عنه راضياً، تعلم انه لايألوك الاّ خيراً و فضلاً، و تعلم ان الحكم فى ذلک له، فتوكّل على اللّه بتفويض ذلک إليه، وثق به فيها و فى غيرها.

و لعل سائر درجات التوكل ان يتوكل على اللّه فى بعض أموره دون بعض، فتعددها بحسب كثرة الأمور المتوكل فيها و قلّتها.

و عن الصادق(ع): اوحى اللّه إلى داود: ما اعتصم بى عبد من عبادى دون أحد من خلقى عرفت ذلک من نيته، ثم تكيده السماوات و الأرض و من فيهن الا جعلت له المخرج من بينهن، و ما اعتصم أحد من

عبادى بأحد من خلقى عرفت ذلک من نيته الاّ قطعت أسباب السماوات من يديه و اسخت الأرض من تحته، و لم أبال بأى واد هلک.

و عنه(ع): انه قرأ فى بعض الكتب ان اللّه تعالى يقول: و عزّتى و جلالى و مجدى و ارتفاعى على عرشى، لأقطعنّ أمل كلّ مؤمّل غيرى باليأس، و لأكسونه ثوب المذلّة عند الناس، و لأنحينه من قربى، و لأبعدنه من وصلى، أ يؤمل غيرى فى الشدائد، و الشدائد بيدى، و يرجو غيرى، و يقرع بالفكر باب غيرى و بيدى مفاتيح الأبواب و هى مغلقة و بابى مفتوح لمن دعانى، فمن ذا الذى أمّلنى لنوائبى فقطعته دونها، و من ذا الذى رجانى لعظيمة فقطعت رجاءه منى، جعلت آمال عبادى عندى محفوظة فلم يرضوا بحفظى، و ملأت سماواتى ممن لايمل تسبيحى، و أمرتهم أن لايغلقوا الأبواب بينى و بين عبادى فلم يثقوا بقولى، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى انه لايملک كشفها أحد غيرى، أ فترانى أبدأ بالعطاء قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سائلى، أ بخيل أنا فيبخلنى عبدى، أو ليس الجود و الكرم لى، أو ليس العفو و الرحمة بيدى، أو ليس أنا محل الآمال فمن يقطعها دونى، أ فلا يخشى المؤملون ان يؤملوا غيرى، فلو أن أهل سماواتى و أهل أرضى أملوا جميعاً ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمل الجميع ما انتقص من ملكى مثل عضو ذرة، و كيف ينقص ملک أنا قيمته، فيا بؤسا للقانطين من رحمتى، و يا بؤساً لمن عصانى و لم يراقبنى.

حقيقة التوكل

اعلم ان التوكل منزل من منازل الدين و مقام من مقامات الموقنين، بل هو من معانى درجات المقربين، و هو فى نفسه غامض من حيث العلم و شاق من حيث العمل.

و وجه غموضه من حيث العلم ان ملاحظة الأسباب و الاعتماد عليها شرک فى التوحيد، و التباعد عنها بالكلية طعن فى السنّة و قدح فى الشرع، و الاعتماد على الأسباب انغماس فى غمرة الجهل.

و التحقيق فيه ان التوكل المأمور به فى الشرع هو «اعتماد القلب على اللّه فى الأمور كلها و انقطاعه عما سواه»، و لاينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يكن يسكن إليها، و كان سكونه إلى اللّه تعالى دونها مجوزا أن يؤتيه اللّه مطلوبه من حيث لايحتسب دون هذه الأسباب التى حصلها، و ان يقطع اللّه هذه الأسباب عن مسبباتها، سواء كانت لجلب نفع متوقّع أو لدفع ضرر منتظر أو لإزالة آفة واقعة، و سواء كانت مقطوعاً بها، كمدّ اليد إلى الطعام ليصل الى فيه، أو مظنونة كحمل الزاد للسفر و أخذ السلاح للعدوّ و اتخاذ البضاعة للتجارة و الادخار لتجدد الاضطرار و التداوى لإزالة الضرر و التحرز عن النوم فى مكمن السباع و ممرّ السيل و تحت الحائط المائل و غلق الباب و عقل البعير و نحو ذلک.

اما الموهومة كالرقية و الطيرة و الاستقصاء فى دقائق التدبير، فيبطل بها التوكل، لأن أمثال ذلک ليست بأسباب عند العقلاء الألباء، و ليست مما أمر اللّه بها، بل ورد النهى عنها.

و ليس معنى التوكل – كما يظنه الحمقاء – انه ترک الكسب بالبدن و ترک التدبير بالقلب، و السقوط على الأرض كالخرقة الملقاة و اللحم على الوضم، فان ذلک جهل محض، و هو حرام فى الشرع، فان الإنسان مكلف بطلب الرزق بالأسباب التى هداه اللّه إليها من زراعة أو تجارة أو صناعه أو غير ذلک مما أحله اللّه.

و كما ان الصلاة و الصيام و الحج عبادات كلف اللّه بها عباده يتقربون بها إليه كذلک طلب الرزق الحلال عبادة كلفهم اللّه به ليتقربوا به إليه، بل هو أفضل العبادات، كما ورد فى الشرع. أن العبادة سبعون جزءا أفضلها طلب الحلال.

ولكنه سبحانه كلفهم أيضاً بأن لايثقوا الا به جلّ و عزّ و لايثقوا بالأسباب كما انه سبحانه كلفهم بأن لايتكلوا على أعمالهم الحسنة بل بفضل اللّه تعالى و لهذا ورد فى الشرع الأمر بالاجمال فى الطلب لا الترک بالكلية و لاالإقبال عليه بالكلية.

و قال النبى(ص): «الا ان الروح الأمين نفث فى روعى انه لاتموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا

اللّه عزّوجلّ و اجملوا فی الطلب.»

و قال(ص): «ما أجمل فی الطلب من رکب البحر.»

و قال الصادق(ع): «لیکن طلبک المعیشة فوق کسب المضیع و دون طلب الحریص الراضی بدنیاه المطمئن إلیها، و لکن انزل نفسک من ذلک بمنزلة المنصف المتعفف ترفع نفسک عن منزلة الواهن الضعیف، و تکتسب ما لابد منه، ان الذین أعطوا المال ثم لم یشکروا لا مال لهم.»

و قال(ع): «اذا فتحت بابک و بسطت بساطک فقد قضیت ما علیک.»

و انما لایبطل التوکل بالأسباب المقطوعة و المظنونة مع ان اللّه تعالی قادر علی إعطاء المطلوب بدون ذلک لأن اللّه سبحانه أبی أن یجری الأشیاء إلا بالأسباب، کما قال الصادق(ع): «و أحب اللّه لعباده أن یطلبوا منه مقاصدهم بالأسباب التی سببها لذلک و أمرهم بذلک.»

قال اللّه تعالی: [خُذُوا حِذْرَكُمْ] {النساء:٧١} و قال فی کیفیة صلاة الخوف: [وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ] {النساء:١٠٢} و قال: [وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ] {الأنفال:٦٠} و قال لموسی: [فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا] {الدُخان:٢٣} و التحصن باللیل اختفاء عن أعین الأعداء دفعا للضرر.

و قال النبی(ص) للأعرابی لما أهمل البعیر و قال: توکلت علی اللّه: «اعقل و توکل».

و روی أن زاهدا من الزهّاد فارق الأمصار و قام فی سفح جبل و قال: «لا أسأل أحداً شیئاً حتی یأتینی ربّی برزقی. فقعد سبعاً فکاد یموت و لم یأته رزقه، فقال: یا رب ان احییتنی فأتنی برزقی الذی قسمت لی و الا فاقبضنی الیک. فأوحی اللّه إلیه. و عزّتی و جلالی لا أرزقک حتی تدخل الأمصار و تقعد بین الناس. فدخل المصر و أقام فجاء هذا بطعام و هذا بشراب، فأکل و شرب و أوجس فی نفسه ذلک، فأوحی إلیه أردت أن تذهب حکمتی بزهدک فی الدنیا، أما علمت ان ارزق عبدی بأیدی عبادی أحب الی من أن أرزقه بید قدرتی.»

و روی ان موسی(ع) اعتلّ بعلّة فدخل علیه بنوا أسرائیل فعرفوا علته فقالوا له: لو تداویت بکذا

لبرئت. فقال: «لاأتداوی حتی یعافینی اللّه من غیر دواء.» فطالت علته فأوحی اللّه إلیه: و عزّتی و جلالی لا ابرأتک حتی تتداوی بما ذکروه لک. فقال لهم: داونی بما ذکرتم، فداووه فبرأ. فأوجس فی نفسه ذلک فأوحی اللّه إلیه: أردت أن تبطل حکمتی بتوکلک علیّ، فمن أودع العقاقیر منافع الأشیاء غیری؟

سبب التوکل

اعلم ان من اعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لافاعل الاّ اللّه، و لاحول و لاقوة الا باللّه، و ان له تمام العلم و القدرة علی کفایة العباد، ثم تمام العطف و العنایة و التوجه بجملة العباد و الآحاد، و انه لیس وراء منتهی قدرته قدرة و لا وراء منتهی علمه علم و لا وراء منتهی عنایته عنایة اتکل لا محالة قلبه علی اللّه وحده و لم یلتفت إلی غیره بوجهه و لا إلی نفسه.

و من لم یجد ذلک من نفسه، فسببه أحد أمرین: إما ضعف الیقین، و اما ضعف القلب.

و مرضه باستیلاء الجبن علیه، و انزعاجه بسبب الأوهام الغالبة علیه، فان القلب قد ینزعج تبعا للوهم و طاعة له من غیر نقصان فی الیقین، کانزعاجه ان یبیت مع میت فی قبر أو فراش مع عدم نفرته عن سائر الجمادات، فالتوکل لایتم إلا بقوة القلب و قوة الیقین جمیعاً، اذ بهما یحصل سکون و طمأنینته فالسکون فی القلب شیء و الیقین شیء آخر، فکم من یقین لاطمأنینة معه، کما قال تعالی لخلیله: [أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي] {البقرة:٢٦٠}.

و کم من مطمئن لایقین له، کسائر أرباب الملل و المذاهب، فان الیهودیّ مطمئن القلب إلی تهوّده و کذا النصرانی و لایقین لهما أصلاً، و انما یتبعون الظنّ و ما تهوی الأنفس و لقد جاءهم من ربّهم الهدی، و هو سبب الیقین الا أنهم معرضون.

درجات التوکل

و اعلم ان الناس تتفاوت درجاتهم فی التوکل بحسب تفاوت مراتبهم فی قوة الیقین و ضعفه، و فی

قصر الأمل و طوله، و فی مقدار الادخار بحسب الأمل و للمنفرد و المعيل: فمنهم من هو من المقربين، و منهم من هو من أصحاب اليمين، و منهم من لاتوكل له أصلاً، و ذلک بحسب عدم الوثوق بالأسباب أصلاً و قلّته و کثرته.

و من کمل ايمانه سقط وثوقه بالأسباب بالکلية، فيرزقه اللّه من حيث لايحتسب کسب أم لم يکتسب، الا انه لايترک الکسب بل يتبع أمر اللّه فيه، و ليس وثوقه الا باللّه وحده دون کسبه.

للتوکل فی الضعف و القوة ثلاث درجات:

الأولی: أن يکون حاله فی حق اللّه و الثقة بعنايته و کفالته کحاله بالثقة بالوکيل، و هذه اضعف الدرجات، و يکثر وقوعها و يدوم مدة مديدة، و لاينافی أصل التدبير و الاختيار، بل ربما زاول کثيرا من التدبيرات بسعيه و اختياره. نعم ينافی بعض التدبيرات، کالتوکل علی وکيله فی الخصومة، فانه يترک تدبيره من غير جهة الوکيل، و لکن لايترک الذی أشار إليه وکيله، و لا التدبير الذی عرفه من عادته و سنته دون تصريح اشارته.

الثانية: أن تکون حاله مع اللّه کحال الطفل مع أمه، فانه لايعرف غيرها، و لايفزع إلا إليها، و لايعتمد إلا عليها. فان رآها تعلق فی کل حال بذيلها، و ان ورد عليه امر فی غيبتها کان اول سابق لسانه يا اماه!. و الفرق بين هذا و سابقه، ان هذا متوکل قد فنی فی موکله عن توکله، أی ليس يلتفت قلبه إلی التوکل، بل التفاته إنما هو إلی المتوکل عليه فقط، فلا مجال فی قلبه لغير المتوکل عليه. و أما الأول فتوکل بالکسب و التکلف، و ليس فانيا عن توکله، ای له التفات إلی توکله، و ذلک شغل صارف عن ملاحظة المتوکل عليه وحده. و هذا أقل وقوعاً و دواماً من الأول، إذ حصوله إنما هو للخواص، و غاية دوامه أن يدوم يوما أو يومين، و ينافی التدبيرات، إلا تدبير الفزع إلی اللّه بالدعاء و الانتهال، کتدبير الطفل فی التعلق بامه فقط.

الثالثة: و هی أعلی الدرجات، أن يکون بين يدی اللّه فی حرکاته و سکناته مثل الميت بين يدی

الغاسل، بأن يرى نفسه ميتاً، و تحركه القدرة الأزلية كما يحرک الغاسل الميت. و هو الذى قويت نفسه، و نال الدرجة الثالثة من التوحيد. و الفرق بينه و بين الثانى، أن الثانى لايترک الدعاء و التضرع كما ان الصبى يفزع إلى أمه، و يصيح و يتعلق بذيلها، و يعدو خلفها، و هذا ربما يترک الدعاء و السؤال ثقة بكرمه و عنايته، فهذا مثال صبى علم أنه إن لم يرص بامه فالأم تطلبه، و إن لم يتعلق بذيلها فهى تحمله، و إن لم يسأل اللبن فهى تسقيه. و من هذا القسم توكل إبراهيم الخليل(ع) لما وضع فى المنجنيق ليرمى به إلى النار، و أشار إليه روح الأمين بسؤال النجاة و الاستخلاص من اللّه– سبحانه– فقال: «حسبى من سؤالى علمه بحالى». و هذا نادر الوقوع، عزيز الوجود، فهو مرتبة الصديقين، و إذا وجد فدوامه لايزيد على صفرة الوجل، أو حمرة الخجل، و هو ينافى التدبيرات ما دام باقياً، إذ يكون صاحبه كالمبهوت. ثم، توكل العبد على اللّه قد يكون فى جميع أموره، و قد يكون فى بعضها. و تختلف درجات ذلک بحسب كثرة الأمور المتوكل فيها و قلتها.

قال الصادق(ع): «أبى اللّه عزّوجلّ أن يجعل أرزاق المؤمنين الا من حيث لايحتسبون.»

و انما خصّه بالمؤمنين لأن كمال الايمان يقتضى أن لايثق صاحبه بالأسباب و ان يتوكل على اللّه عزّوجلّ وحده، و كمال الايمان انما يكون لصاحب العلم المكنون من الأنبياء و الأولياء ذلک فضل اللّه يؤتيه من يشاء.

و قال السجاد(ع): «رأيت الخير كله فى قطع الطمع عما فى أيدى الناس، و من لم يرج الناس فى شيء و ردّ أمره إلى اللّه تعالى فى جميع أموره استجاب اللّه تعالى له فى كل شيء.»

و قال الباقر(ع): «بئس العبد عبد له طمع يقوده، و بئس العبد عبد له رغبة تذله.»

و قال الصادق(ع): «شرف المؤمن قيام الليل، و عزّه استغناؤه عن الناس.»

الخلاصة

١. ان التوكل منزل من منازل الدين و مقام من مقامات الموقنين، بـل هـو مـن معـانی درجات المقربين، و هو فی نفسه غامض من حيث العلم و شاق من حيث العمل.

٢. ان التوكل المأمور به فی الشرع هو «اعتماد القلب علـی اللّـه فـی الأمـور كلهـا و انقطاعه عما سواه».

٣. التوكل لاينافی تحصيل الأسباب إذا لم يكن يسكن إليها، و كان سـكونه إلـی اللّـه تعالی دونها مجوزا أن يؤتيه اللّه مطلوبه من حيـث لايحتسـب دون هـذه الأسـباب التـی حصلها.

۴. التوكل لايتم إلا بقوة القلب و قوة اليقين جميعاً، اذ بهما يحصل سـكون و طمأنينتـه فالسكون فی القلب شیء و اليقين شیء آخر.

۵. كم من يقين لاطمأنينة معه، و كم من مطمئن لايقين له.

۶. ان الناس تتفاوت درجاتهم فی التوكل بحسب تفـاوت مـراتبهم فـی قـوة اليقـين و ضعفه، و فی قصر الأمل و طوله، و فی مقدار الادخار بحسب الأمل و للمنفرد و المعيل.

٧. للتوكل فی الضعف و القوة ثلاث درجات.

بسمه تعالى

الاخلاق الاسلامية

الدرس ١٧

فصل في الرجاء و الخوف

الاستاذ: مهدى سازندگى

بكالوريوس

تمهيد

قد علم أرباب القلوب و العرفان بالبيان و الوجدان و العيان ان الدنيا مزرعة الآخرة و القلب كالأرض و الايمان كالبذر فيه و الطاعات جارية مجرى تقليب الأرض و تطهيرها و مجرى حفر الأنهار و سياق الماء إليها، و القلب المحب للدنيا كالأرض السبخة التى لا ينمو فيها البذر، و يوم القيامة يوم الحصاد، و لايحصد أحد الا ما زرع، و لاينمى زرع الا من بذر الايمان، و قلما ينفع الايمان مع خبث القلب بالأخلاق الرديئة، كما لاينمى زرع فى أرض سبخة فليقس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع.

فكل من طلب أرضاً طيبة و ألقى فيها بذراً جيداً و أمده بما يحتاج إليه من سوق الماء فى أوقاته و نقى الأرض عن الشوک و الحشيش و سائر الموانع و جلس منتظرا من فضل اللّه دفع الصواعق المفسدة إلى أن يتم الزرع و يبلغ غايته سمى انتظاره رجاءا، و ان بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لاينصب إليها ماء و لم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حمقاً و غروراً.

المحتوي العلمى

ينبغى للعبد أن يبث بذر الايمان فى القلب و يسقيه بماء الطاعات و يطهر القلب عن شوک الأخلاق الرديئة و ينتظر من فضل اللّه تثبيته على ذلک إلى الموت و حسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، فإذا فعل ذلک كان انتظاره رجاءاً محموداً، و ان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات أو ترک القلب مشحونا برذائل الأخلاق و انتظر المغفرة فانتظاره حمق و غرور لارجاء، و لهذا قال النبى(ص): «الدنيا مزرعة الآخرة.»

علاقة الخوف و الرجاء

الخوف و الرجاء جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام محمود، و مطيتان بهما يقطع من طرق

الآخرة كل عقبة كئود.

الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، و لكن ذلک المحبوب متوقع لابد و ان يكون له سبب، فأن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، و ان كان ذلک انتظارا مع انخرام أسبابه و اضطرابها فاسم الغرور و الحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، و ان لم تكن الأسباب معلومة الوجود و لامعلومة الانتفاء فاسم التمنى أصدق على انتظاره من اسم الرجاء.

و أيما كان فلايطلق اسم الرجاء و الخوف الا على ما يتردّد فيه، اما ما يقطع به فلا، فلا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع و أخاف غروبها وقت الغروب، و يقال: أرجو نزول المطر و أخاف انقطاعه.

و قال(ص): «الأحمق من اتبع نفسه هواها و تمنى على اللّه تعالى.»

و قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ] {البقرة:٢١٨} أى أولئک ينبغى لهم أن يرجوا لا سواهم.

و قال تعالى: [فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا] {الأعراف:١٦٩}

و عن الصادق(ع) انه قيل له: ان قوماً من مواليک يلمون بالمعاصى و يقولون: نرجو. فقال: «كذبوا ليسوا لنا بموال، أولئک قوم ترجّحت بهم الأماني، من رجى شيئا عمل له، و من خاف شيئا هرب منه.»

و قال(ع): «لايكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، و لايكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف و يرجو.»

و قال حكيم: «من خاف شيئاً هرب منه، و من خاف اللّه هرب إليه.»

و قال آخر: «من أعظم الاغترار التمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة، و توقع القرب من اللّه عزّوجلّ بغير طاعة، و انتظار زرع الجنة ببذر النار، و طلب دار المطيعين بالمعاصى، و انتظار الجزاء بغير عمل.»

و اعلم ان الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال و المواظبة على الطاعات فى جميع الأحوال، و من آثاره التلذذ بدوام الإقبال على اللّه و التنعم بمناجاته و التلطّف فى التملق له، فان هذه الأحوال تظهر على من يرجو مثله من العبيد، فكيف لا تظهر فى حق اللّه. و من ذلک يعلم ان جلّ رجاءنا بل كلّه حمق و غرور، فالمستعان باللّه و لاحول و لاقوة الا باللّه.

فضل الرجاء و ترجيحه على الخوف

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى اللّه أحبهم إليه، و الحب يغلب بالرجاء. و اعتبر ذلک بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه و الآخر رجاء لثوابه، و لذلک ورد فى الرجاء و حسن الظن رغائب، و لاسيما وقت الموت، قال اللّه تعالى: [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] {الزُّمر:۵۳} و قال تعالى: [وَإِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ] {الرعد:۶}.

و عيّر اللّه قوما فقال: [وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ] {فصّلت:۲۳} و قال: [وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا] {الفتح:۱۲}.

و فى أخبار يعقوب: «ان اللّه تعالى أوحى إليه: أ تدرى لم فرقت بينک و بين يوسف؟ لقولک [وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ] {يوسف:۱۳} لم خفت الذئب و لم ترجنى؟ و لم نظرت إلى غفلة اخوته و لم تنظر إلى حفظى له؟

و قال(ع): «لايموتن أحدكم الاّ و هو يحسن الظن باللّه.»

و قال(ع): «يقول اللّه أنا عند ظن عبدى بى، فليظنّ بى ما شاء.»

و دخل(ع) على رجل و هو فى النزع فقال: كيف تجدک؟ قال: أجدنى أخاف ذنوبى و أرجو رحمة ربى. فقال(ع): «ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن الا أعطاه اللّه ما رجى و آمنه مما يخاف.»

و قال(ص): «ان اللّه يقول للعبد يوم القيامة: ما منعک إذ رأيت المنكر أن تنكر فان لقنه اللّه حجّته، قال: يا رب رجوتک و خفت الناس. قال: فيقول اللّه تعالى: قد غفرت لک.»

و قال الباقر(ع) قال رسول اللّه(ص): «قال اللّه تعالى: لايتكل العاملون على أعمالهم التى يعملونها لثوابى، فانهم لو اجتهدوا و أتعبوا أنفسهم أعمارهم فى عبادتى كانوا مقصرين غير بالغين فى عبادتهم كنه عبادتى فيما يطلبون عندى من كرامتى و النعيم فى جناتى و رفيع الدرجات العلى فى جوارى، و لكن برحمتى فليثقوا و فضلى فليرجوا و إلى حسن الظن بى فليطمئنوا، فان رحمتى عند ذلک تدركهم، فانى أنا اللّه الرحمن الرحيم و بذلک تسميت.»

و عنه(ع) قال: «وجدنا فى كتاب على(ع): ان رسول اللّه(ص) قال و هو على منبره: و الذى لا إله إلا هو ما أعطى مؤمن خير الدنيا و الآخرة الا بحسن ظنه باللّه و رجائه له و حسن خلقه و الكف عن اغتياب المؤمنين، و الذى لا إله إلا هو لايعذب اللّه مؤمناً بعد التوبة و الاستغفار الا بسوء ظنه باللّه و تقصيره من رجائه و سوء خلقه و اغتيابه للمؤمنين، و الذى لا إله إلا هو لايحسن ظن مؤمن باللّه الا كان اللّه عند ظن عبده المؤمن، لأن اللّه كريم بيده الخيرات يستحى أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخالف ظنه و رجاه، فأحسنوا باللّه الظن و ارغبوا إليه.»

و قال الصادق(ع): «حسن الظن باللّه أن لاترجو إلا اللّه و لاتخاف الا ذنبک.»

دواء الرجاء و سبب حصوله

اعلم ان هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين: إما رجل غلب عليه اليأس فيترک العبادة، و إما رجل غلب عليه الخوف فأسرف فى المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه و أهله، و هما مائلان عن الاعتدال إلى طرفى الإفراط و التفريط فيحتاجان إلى علاج و دواء يردهما إلى الاعتدال.

و اما العاصى المغرور المتمنى على اللّه مع الاعراض عن العبادة و اقتحام المعاصى فالرجاء فى حقه

سم قاتل، بل دواؤه الخوف و الأسباب المهيجة له، و دواء الرجاء أمران: الاعتبار، و الآيات و الأخبار و الادعية.

أما الاعتبار؛ فالتدبر فی کثرة نعم اللّه علی العبد فی الدنيا. و سوابق فضل اللّه من دون شفيع، و ما وعد من جزيل ثوابه من دون استحقاق، و ما أنعم بما يمد فی الدارين من دون سؤال وسعة الرحمة و سبقها الغضب، و انه أرحم من الأم الشفيقة بأولادها الصغار، و رحمته فی الآخرة أوسع منها فی الدنيا كما ورد، فهو لامحالة يرحمهم فی الآخرة كما رحمهم فی الدنيا.

اما الآيات و الاخبار و الادعية؛ ففيما ورد عنهم(ع): إلهی أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا و قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا فإنک أولی بذلک منا، و أمرتنا ان لانرد سائلاً عن أبوابنا و قد جئناک سؤالاً فلاتردنا، و أمرتنا أن نعتق من مماليكنا من قد شاب فی ملكنا و قد شبنا فی ملكک فاعتق رقابنا من النار، و أمرتنا بالإحسان إلی ما ملكت ايماننا و نحن ارقاؤک فاعتقنا من النار، و أمرتنا أن نتصدق علی فقرائنا و نحن فقراؤک فتصدق علينا.

و فيها: اللهم انک قلت لنبيک(ص) [وَلَسَوْفَ يُعْطِيکَ رَبُّکَ فَتَرْضَى] {الضُّحى:٥}. اللهم ان نبيک لايرضی بأن تعذب أحداً من أمته فی النار.

فصل فی الخوف

الخوف عبارة عن «تألم القلب و احتراقه بسبب توقع مكروه فی الاستقبال» و هو أيضا ينتظم من علم و حال و عمل.

أما العلم فهو العلم بالسبب المفضی إلی المكروه، كمن جنی علی ملک ثم وقع فی يده و هو يخاف القتل و يجوز العفو و الافلات، و لكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلی قتله، و هو تفاحش جنايته و كون الملک فی نفسه غضوبا منتقما، و كون هذا الجانی عاطلاً عن كل

حسنة تمحو أثر جنايته عند الملک، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف و شدة تألم القلب، و لسبب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف.

فهذا العلم سبب لاحتراق القلب و تألمه و خوفه و هو الحال، و هذا الحال يثمر فعلاً بالاستعداد و التهيؤ لما يصلح للعفو.

و الخوف من اللّه تارة يکون بمعرفة اللّه تعالى و معرفة صفاته، و تارة يکون بکثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصی، و تارة يکون بهما جميعاً و بحسب معرفته بعيوب نفسه و معرفته بجلال اللّه، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه و بربه، و لذلک قال(ص): «أنا أخوّفکم للّه.»

و لذا قال تعالى: [إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] {فاطر:٢٨}.

ثم إذا کملت تلک المعرفة و أورثت حال الخوف و احتراق القلب أفضى أثر الحرقة من القلب على القلب و على البدن و على الجوارح و على الصفات: أما فی البدن فبالنحول و الصفار و البکاء و نحو ذلک.

و أما فی الجوارح فبکفّها عن المعاصی و تقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط و استعداداً للمستقبل، و لذلک قيل: ليس الخائف من يبکی و يمسح عينيه بل من يترک ما يخاف بأن يعاقب عليه.

و أما الصفات فهو أن يقمع الشهوات بالخوف و يؤدب الجوارح و يکدر اللذات، فتصير المعاصی المحبوبة عنده مکروهة، کما يصير العسل مکروها عند من يشتهيه إذا عرف ان فيه سما، فتحترق الشهوات بالخوف و تتأدب الجوارح و يحصل فی القلب الذبول و الخشوع و الذلة و الاستکانة، و يفارقه الکبر و الحقد و الحسد، بل يصير مستوعب الهمة بخوفه و النظر فی خطر عاقبته فلا يتفرق لغيره و لايکون له شغل الا المراقبة و المحاسبة و المجاهدة و الضنة بالأنفاس و اللحظات و مؤاخذة النفس فی الخطرات و الخطوات و الکلمات، فيکون ظاهره و باطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره.

هذا حال من غلبه الخوف و استولى عليه، و أقل درجات الخوف مما يظهر أثره فی الأعمال الامتناع

من المحظورات، و يسمى الكف الحاصل من المحظورات ورعا، فان زادت قوته و كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيسمى ذلک تقوى، اذ التقوى ان يترک ما يريبه إلى ما لايريبه، و قد يحمله على ان يترک ما لابأس به مخافة ما به بأس و هو الصدق فى التقوى، فإذا انظم إليه التجرد للخدمة فصار لايبنى ما لايسكنه و لايجمع ما لايأكله و لايلتفت الى دنيا يعلم انها تفارقه و لايصرف إلى غير اللّه تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق و صاحبه جدير بأن يسمى صديقاً.

و يدخل فى الصدق التقوى، و فى التقوى الورع، و فى الورع العفة، فانها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة، فإذا الخوف يؤثر فى الجوارح بالكف و الاقدام.

فضيلة الخوف و سببه و الترغيب فيه

قال اللّه تعالى: [إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] {فاطر:۲۸} و قال تعالى: [رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِکَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ] {البيّنة:۸} و قال تعالى: [وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] {آل عمران:۱۷۵} و قال تعالى: [سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى] {الأعلى:۱۰} و قال تعالى: [فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا] {التوبة:۸۲}.

و قال النبى(ص): «ما من مؤمن تخرج من عينيه دمعة و ان كانت مثل رأس الذباب من خشية اللّه ثم تصيب شيئاً من حرّ وجهه الاّ حرمه اللّه على النار.»

و قال(ص): «اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية اللّه تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجر ورقها.»

و قال(ص): «لايلج النار أحد بكى من خشية اللّه حتى يعود اللبن فى الضرع.»

و قال الصادق(ع) لاسحاق بن عمار: «يا إسحاق! خف اللّه كأنک تراه و ان كنت لاتراه فانه يراک، و ان كنت ترى انه لايراک فقد كفرت، و ان كنت تعلم انه يراک ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليک.»

و عنه(ع) قال: «من خاف اللّه خاف منه کل شیء، و من لم یخف اللّه أخافه اللّه من کل شیء.»

و عنه(ع): «من عرف اللّه خاف اللّه، و من خاف اللّه سخت نفسه عن الدنیا.»

و عنه(ع): «ان من العبادة شدة الخوف من اللّه، یقول اللّه: [إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] {فاطر:٢٨}، و قال تعالی: [فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ] {المائدة:٤٤} و قال تعالی: [وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا] {الطّلاق:٢}.

و قال(ع): «ان حبّ الشرف و الذکر لایکونان فی قلب الخائف الراهب.»

و قال(ع): «المؤمن بین مخافتین: ذنب قد مضی لایدری ما صنع اللّه فیه، و عمر قد بقی لایدری ما یکتسب فیه من المهالک، فهو لایصبح إلا خائفاً و لایصلحه الاّ الخوف.»

و عنه(ع): «لایکون المؤمن مؤمناً حتی یکون خائفاً راجیاً، و لایکون خائفاً راجیاً حتی یکون عاملاً لما یخاف و یرجو.»

و الخوف یحصل من الایمان باللّه و برسوله، و بما جاء به الرسول من الحساب و العذاب و العقاب، و لحصول الخوف طریقان أحدهما أعلی من الآخر.

و مثال ذلک ان الصبی إذا کان فی بیت فدخل علیه سبع أوحیة ربما کان لایخاف، بل ربما مد یده إلی الحیة لیأخذها و یلعب بها و لکن إذا کان معه أبوه و رآه الصبی قد ارتعدت فرائصه و هو یحتال فی الهرب و قد غلب علیه الخوف، حصل له الخوف من ذلک، لعلمه بأنه لایخاف الاّ من سبب مخوف فی نفسه، فخوف الأب عن بصیرة و معرفة بصفة الحیة و سمها و سطوة السبع و بطشه، و خوف الولد انما کان بمجرد التقلید، لأنه یحسن الظن بأبیه و یعلم انه لایخاف الاّ من سبب مخوف، فیعلم ان السبع و الحیة مخوفان و لایعرف وجههما، و خوف الأنبیاء و الأوصیاء و العلماء من القسم الأول و خوف عموم الخلق من المؤمنین من القسم الثانی.

و یکفی فی الخوف التفکیر فی الآیات القرآنیة، فان أکثرها تخویفات و تهدیدات لمن تدبر، و لو لم

يكن الا قوله تعالى: [سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ] {الرَّحمن:٣١} و قوله تعالى: [وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى] {طه:٨٢} حيث علّق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها.

و قوله تعالى: [فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ] {القصص:٦٧} و قوله تعالى: [لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ] {الأحزاب:٨} و قوله تعالى: [أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ] {الأعراف:٩٩} و قوله تعالى: [وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا] {مريم:٧١} و قوله تعالى: [اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ] {فصّلت:٤٠} و قوله تعالى: [وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا] {الفرقان:٢٣} و قوله تعالى[وَالعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ] حيث شرط أربعة شروط للخلاص من الخسران لكان فيها الكفاية.

و روى ان النبى(ص) كان إذا هبت ريح عاصفة يتغير وجهه و يقوم و يتردد فى الحجرة و يدخل و يخرج خوفا من عذاب اللّه.

و قرأ(ص) آية فى سورة الحاقة فصعق. و قال تعالى: [وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا] {الأعراف:١٤٣}

و كان(ص) اذا دخل فى الصلاة يسمع لصدره ازيز كأزيز المرجل.

و روى ان داود(ع) كان يقول فى مناجاته: «إلهى إذا ذكرت خطيئتى ضاقت على الأرض برحبها، و إذا ذكرت رحمتک ارتدت الى روحى، سبحانک إلهى أتيت أطباء عبادک ليداووا خطيئتى فكلهم عليک يدلنى، فبؤسا للقانطين من رحمتک.»

و قيل انه(ع) ذكر ما صدر منه ذات يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال، فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا لا أريدكم انما أريد كل بكّاء على خطيئته، فلايستقبلنى الا البكّاء.»

و كان يعاتب فى كثرة البكاء فيقول: «دعونى أبكى قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام و اشتعال الحشا، و قبل أن يؤمر بى ملائكة غلاظ شداد لايعصون اللّه ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون.»

و حكى انه(ع) كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلک سبعاً لايأكل الطعام و لايشرب الشراب و

لايقرب النساء، فإذا كان قبل ذلک بيوم أخرج له إلى البرية منبراً، فيأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرئ البلاد و ما حولها من الغياض و الآكام و الجبال و البرارى و الصوامع و البيع فينادى: ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت. قال: فتأتى الوحوش من البرارى و الآكام و تأتى السباع من الغياض و تأتى الهوام من الجبال و تاتى العذارى من خدورهن و يجتمع الناس لذلک اليوم، و يأتى داود حتى يرقى على المنبر و يحيط به بنو أسرائيل و كل صنف على حدة يحيطون به و سليمان(ع) قائم على رأسه، فيأخذ فى الثناء على ربه، فيضجّون بالبكاء و الصراخ، ثم يأخذ فى ذكر الجنة و النار فتموت الهوام و طائفة من الوحوش و الناس و السباع، ثم يأخذ فى أهوال القيامة، و فى النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال: يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق و ماتت طوائف من بنىأسرائيل و من الوحوش و الهوام فيأخذ فى الدعاء، فبينا هو كذلک إذ ناداه بعض عباد بنىأسرائيل: يا داود اعجلت بطلب الجزاء على ربک؟ فيخر مغشياً عليه، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر منادياً ينادى: ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله، فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة و النار، فكانت المرأة تأتى بالسرير و تحمل قريبها و تقول: يا من قتله ذكر النار يا من قتله خوف اللّه. ثم إذا أفاق داود قام و وضع يده على رأسه و دخل بيت عبادته و أغلق بابه و يقول: يا إله داود أ غضبان أنت على داود.

و لايزال يناجى فيأتى سليمان(ع) فيقف على الباب و يستأذن ثم يدخل و معه قرص من شعير و يقول: يا أبتاه تقوّ بهذا على ما تريد، فيأكل من ذلک القرص ما شاء اللّه ثم يخرج إلى بنىإسرائيل فيكون بينهم.

و يحكى ان إبراهيم(ع) كان إذا ذكر ما صدر منه يغشى عليه و يسمع اضطراب قلبه ميلاً فى ميل، فيأتيه جبرئيل فيقول له: الجبار يقرئک السلام و يقول: هل رأيت خليلاً يخاف خليله؟ فيقول: يا جبرئيل انى إذا ذكرت خطيئتى نسيت خلّتى.

و کان یسمع أزیز قلبه(ع) إذا کان فی الصلاة مسیرة میل خوفاً من ربه.

و یکفیک فی ذلک بکاء الأئمة الطاهرین(ع) و خوفهم و مناجاتهم فما بالنا لانخاف؟ أ لکثرة طاعاتنا أم لقلة معاصینا أم لغفلتنا و قسوتنا؟ فلا قرب الرحیل ینبهنا و لاکثرة الذنوب تحرکنا و لامشاهدة أحوال الخائفین تخوفنا و لاخوف سوء الخاتمة یزعجنا.

مراتب الخوف من الله

اعلم ان الخوف من اللّه علی مقامین:

أحدهما الخوف من عذابه، و هو خوف عموم الخلق المؤمنین بالجنة و النار، و إذا ضعف هذا الخوف فسببه ضعف الایمان و الغفلة، و یقوی بالتذکیر و الوعظ و ملازمة الفکر فی أهوال القیامة و أصناف العذاب و النظر فی أحوال الخائفین.

و الثانی - و هو الأعلی - أن یکون اللّه تعالی هو المخوف، بأن یخاف البعد و الحجاب عنه، و یرجو القرب منه و هو خوف من عرفه من الأنبیاء و الأوصیاء و العلماء ممن عرفوا من صفاته ما یقتضی الهیبة و الخوف و الحذر المطلعین علی سر قوله تعالی: [وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ] {آل عمران:۲۸}

ثم إن الخوف لایتحقق الا بانتظار مکروه: و المکروه إما أن یکون مکروها فی ذاته کالنار. و إما أن یکون مکروها لأنه یفضی إلی المکروه، کما تکره المعاصی لأدائها إلی العذاب.

و الخائفون من القسم الثانی منهم من یغلب علیه خوف الموت قبل التوبة، أو خوف نقض التوبة، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق اللّه، أو خوف زوال رقة القلب و تبدیلها بالقساوة، أو خوف المیل عن الاستقامة، أو خوف استیلاء العادة فی اتباع الشهوات المألوفة، أو خوف ان یکله اللّه الی حسناته التی اتکل علیها و تعزز بها فی عباد اللّه، أو خوف البطر بکثرة نعم اللّه علیه، أو خوف الاشتغال عن اللّه بغیر اللّه، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم، أو خوف انکشاف غوائل طاعاته حتی یبدو له من اللّه

ما لم يكن يحتسب، أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة و الخيانة و الغش و اضمار السوء، أو خوف ما لايدرى ان يحدث فى بقية عمره، أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا و الافتضاح قبل الموت، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا، أو خوف خاتمة السوء، أو خوف اطلاع اللّه على سريرته فى حال غفلته، أو خوف السابقة التى سبقت له فى الأزل.

و هذه كلها مخاوف العارفين، و لكل منها خصوص فائدة، و هو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فليواضب على الفطام عن العادة، و الذى يخاف من اطلاع اللّه على سريرته يشتغل بتطهير قلبه... و هكذا.

و أما الخائفون من المكروه لذاته فمنهم من يغلب عليهم سكرات الموت و شدته أو سؤال منكر و نكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هيبة الموقف بين يدى اللّه تعالى أو الحياء من كشف الستر أو السؤال عن النقير و القطمير أو الخوف من الصراط و حدته و كيفية العبور عليه أو الخوف من النار و اغلالها و أهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة أو النعيم فى الملك المفيم أو من نقصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن اللّه، و هو اعلاها رتبة، و هو خوف العارفين من الأنبياء و العلماء و الصالحين.

أىّ من الرجاء و الخوف أفضل؟

ربما يعترى الناظر الشک فى کون أيهما أفضل؟ فاعلم ان ذلک يضاهى قول القائل: «الخبز أفضل أم الماء».

و جوابه: ان الخبز أفضل للجائع و الماء أفضل للعطشان، و ان اجتمعا نظر إلى الأغلب: فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، و ان كان العطش أغلب فالماء أفضل، و ان استويا فهما متساويان.

و كذا إن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر اللّه و الاغترار به فالخوف أفضل، و ان كان الأغلب هو اليأس و القنوط من رحمة اللّه فالرجاء أفضل.

و أما بالنسبة إلى المؤمن المتقى الذى ترک ظاهر الإثم و باطنه و خفيه و جليه فالأصلح به أن يعتدل خوفه و رجاؤه، كما ورد فى الأخبار، ففى الكافى عن الصادق(ع) و قد قيل له: ما كان فى وصية لقمان؟ فقال: كان فيها الأعاجيب و كان أعجب ما كان فيها ان قال لابنه: خف اللّه خيفة لـو جئتــه ببــر الثقلـين لعذبک، و ارج اللّه رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمک. ثم قال(ع): كان أبى يقول: انه ليس مـن عبـد مؤمن الا و فى قلبه نوران نور خيفة و نور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، و لو وزن هذا لم يزد على هذا.

و يرشد إلى ذلک أيضا قوله تعالى فى وصف من أثنى عليهم: [وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًـا] {الأنبيـاء:٩٠} و قوله تعالى: [يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا] {السجدة:١۶}

و غلبة الرجاء فى غالب الناس مستندها الاغترار و قلة المعرفة، و الأصلح لهم قبـل الاشـراف علـى الموت غلبة الخوف، و عند الموت غلبة الرجاء و حسن الظن كما ورد فى الأخبار، و السر فى ذلـک ان الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل، و قد انقضى وقت العمل، و هو لا يطيـق هنـاک أسـباب الخوف لأنها تقطع نياط قلبه و تعين على تعجيل موته. و روح الرجاء يقوى قلبه و يحبب إليه ربه الـذى إليه رجاؤه، و من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه، و من كره لقاء اللّه كره اللّه لقاءه.

و اعلم ان الرجاء محمود إلى حدّ، فان تجاوز إلى الأمن فهو خسران، قال تعالى: [فَلَا يَأْمَنُ مَكْـرَ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الخَاسِرُونَ] {الأعراف:٩٩} ، و كذا الخوف محمود الى حدّ، فان جاوز إلى القنوط فهو ضلال: [وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ] {الحجر:۵۶}، أو إلى اليأس فهو كفر: [لَـا يَيْـئَسُ مِـنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّـا القَـوْمُ الكَافِرُونَ] {يوسف:٨٧}.

الخلاصة

۱. الخوف و الرجاء جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام محمود، و مطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود.

۲. الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده.

۳. ان الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال و المواظبة على الطاعات فى جميع الأحوال.

۴. من آثار الرجاء التلذذ بدوام الإقبال على اللّه و التنعم بمناجاته و التلطّف فى التملق له.

۵. إن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى اللّه أحبهم إليه، و الحب يغلب بالرجاء.

۶. الخوف عبارة عن «تألم القلب و احتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال».

۷. مقام الخوف للعبد، يحصل من الايمان باللّه و برسوله، و بما جاء به الرسول من الحساب و العذاب و العقاب.

۸. ان للخوف من اللّه مقامين: أحدهما الخوف من عذابه، و هو خوف عموم الخلق المؤمنين بالجنة و النار، و الثانى أن يكون اللّه تعالى هو المخوف، بأن يخاف البعد و الحجاب عنه، و يرجو القرب منه و هو خوف من عرفه من الأنبياء و الأوصياء و العلماء ممن عرفوا من صفاته ما يقتضى الهيبة و الخوف و الحذر.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۱۸

فصل في التوبة (۱)

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

يقول كثير من علماء الأخلاق، إنّ الخطوة الاولى لتهذيب الأخلاق و السّير إلى اللّـه، هـى «التّوبـة»، التّوبة التى تمحو الذّنوب من القلب وتبيّض صفحته وتجعله يتحرک فى دائرة النـور، و تنقلـه مـن دائـرة الظّلمة، و تخفف ثقل الذّنوب من خزينه النّفساني، و رصيده الباطنى، و تمهّد الطّريق للسّير و السّلوک إلى اللّه تعالى، فى خط الإيمان و تهذيب النّفس.

المحتوي العلمى

قد بيّن الإمام السّجاد(ع)، فى مناجاته: «مناجاة التائبين» أفضل وأحلى صورة للتوبه الحقيقية، فقال:

«إِلهى أَنْتَ الّذِى فَتَحْتَ لِعبادِکَ باباً إِلى عَفْوِکَ سَمَّيْتَهُ التَّوبَةَ فَقُلْتَ تُوبُوا إِلى اللّهِ تَوبَـةً نَصُـوحاً، فَمـا عُذْرُ مِنْ أَغْفَلَ دُخُولَ الباب بَعْدَ فَتْحِهِ».

يقول المرحوم: «الفيض الكاشانى»، فى بداية الجزء السابع من كتابه: «المحجّة البيضاء»، الذى هو فى الواقع، بداية الأبحاث الأخلاقيّة:

«فإنّ التّوبة من الذنوب، و الرّجوع إلى ستار العُيوب و علّام الغيوب، مبدأ طريـق السّـالكين، و رأس مال الفائزين، و أوّل إقدام المريدين، و مفتاح إستقامة المائلين و مطلع الإصطفاء و الاجتباء للمقرّبين!».

و بعدها يشير إلى حقيقةٍ مهمّةٍ، و هى أنّ أغلب بنى آدم يتورطون غالباً بالمعاصى، و يشير إلى معصية آدم: (التى هى فى الواقع، من ترک الأولى)، و توبته منها، ويقول: «وما أجدر بـالأولاد الإقتـداء بالآبـاء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمى و إجترم، فهى شنشنةٌ يعرفها من أخزم، ومن أشبه أبـاه، فمـا ظَلـم، ولكنّ الأب إذا جبر بعد كسر، و عمّر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى، النّفـى و الإثبـات و الوجود والعدم، ولقد قلع آدم سنّ النّدم، و تندّم على ما سبق منه و تقدّم، فمن إتّخذه قدوةً فى الذنب دون

التّوبة فقد زلّت به القدم، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقـرّبين، والتجـرُّد للشـرّ دون التّلافـى، سجيّة الشّياطين، و الرّجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشرّ ضرورة الآدميين، فالمتجرّد للخير ملک مقرّب، عند الملک الدّيان، والمتجرّد للشرّ شيطان، والمتلافى للشرّ بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان.

والمصرّ على الطّغيان، مسجّل على نفسه بنسب الشّيطان، فأمّا تصحيح النّسب بالتجرّد لمحـض الخيـر إلى الملائكة، فخارج عن حيّز الإمكان، فإنّ الشرّ معجون مع الخيـر، فـى طينـة آدم، عجنـاً محكمـاً لا يخلّصه إلّا إلى إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم».

أو بعبارة اخرى: أنّ الإنسان غالباً ما يُخطىء، و خصوصاً فى بداية سيره إلى اللّه تعالى، فإذا ما وجد أنّ أبواب العودة موصدةٌ فى وجهه، فسيورثه اليأس الكامل، و يبقى يُرواح فى مكانه، ولذلک فإنّ التّوبـة تعتبر من الاصول المهمّة فى الإسلام، فهى تدعو كلَّ المذنبين إلى العمل لإصلاح أنفسهم، و الدّخول فـى دائرة الرّحمة الإلهيّة، و السّعى لجبران ما مضى.

و الجدير بالذكر أنّ البارى تعالى يحبّ التّائبين، لأنّ التّوبة تعتبر الخطوة الاولى لكى يعـيش الإنسـان فى أجواء السّعادة و الحياة الكريمة.

و فى الواقع التّوبة زاد و راحلة لعبور الإنسان من وادى الظّلمات، ليصل إلى معدن النّور و الرّحمة، و يعيش حالات الكرامة فى الصفات الإنسانيّة.

ما هى التوبة؟

حالة التوبة من الذنب إحدى الفضائل المطلوبة عند الله بشكل استثنائى أى ينبغى أن يكـون للإنسـان حالة خضوع وحالة تواضع وحالة إنكسار القلب أمام الله سبحانه والرجوع من النفس الأمارة إلى ذلـک البعد الملكوتى هو رجوع من جهة الشيطان إلى جهة الرحمن، ورجوع من هذه الدنيا الفانية والتوجه إلى الآخرة، وأخيراً حالة خضوع وحالة خشوع وتواضع فى مقابل الله سبحانه. وهذه حالة وإذا كـان هنـاک

من قول فی العمل، فیجب أن یصدر عن هذه الحالة لتكون توبة. ومجرد قول «استغفر الله ربی وأتوب إلیه» فیه ثواب، وهو ذكر من الأذكار المطلوبة بشكل ملح أیضاً، ولكن إذا كان هذا الذكر نابعاً من القلب یقال له «توبة». وأما إذا كان مجرد لقلقة لسان فهو لیس بتوبة على حد تعبیر أمیرالمؤمنین(ع)، بل ذكر فقط وفیه ثواب. وذلک الذی سبب أن یرد فی القرآن الشریف أكثر من مائة آیة هو تلک الحالة التی تحصل للقلب إنها شیء یحبه الله جداً.

حقیقة التوبة

«التوبة» فی الأصل، هی «الرجوع عن الذّنب» (هذا إذا ما نسبت للمذنبین) و یسمی «تائب»، ولكن الآیات القرآنیة و الرّوایات نسبتها إلى الباری تعالى، وعلیه فیصبح معناها: «الرجوع إلى الرّحمة الإلهیّة»، تلک الرحمة التی سُلبت من الإنسان إثر إرتكابه للمعصیة و الذّنب، فبعد عودته لموقع العبودیة و العبادة، تمتد إلیه الرّحمة الإلهیّة من جدید، و بناءاً على ذلک فإنّ أحد أسماء الباری تعالى، هو «التوّاب».

و «التّوبة» فی الحقیقة: هی مشترک لفظی أو معنوی بین اللّه وعباده، (ولكن إذا ما نُسبت للعبد، تتعدى بكلمة «إلى»، وإذا ما نُسبت للباری تعالى، فهی تتعدى بكلمة «على»).

و هی كما قال فی «المحجّة البیضاء» عبارة عن معنی ینتظم من ثلاثة أمور مترتبة: أولها **العلم**، و ثانیها **الحال**، و ثالثها **الفعل**. و الأول موجب للثانی، و الثانی موجب للثالث. و المراد بالعلم معرفة ضرر الذنوب و انها السمومات المهلكة للدین المفوتة لحیاة الأبد، الحاجبة للعبد عن محبوبه من السعادة الأبدیة.

ثم یحصل من هذا العلم حال، و هو ان یثور من هذه المعرفة تألّم القلب بسبب فوات المحبوب، فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألّم، و ینبعث من هذا الألم فی القلب حالة أخرى تسمّى إرادةً و قصداً إلى فعل له تعلق بالحال بترک الذنب الذی كان له ملابساً، و بالاستقبال بالعزم على ترک الذنب المفوت

للمحبوب إلى آخر العمر، و بالماضی بتلافی ما فات بالجبر و القضاء ان کان قابلاً للجبر.

و العلم الأول هو مطلع هذه الخیرات، و هو عبارة عن الایمان و التصدیق بأن الذنوب سموم مهلکة، و إذا أشرق على القلب ثار الندم للباعث على ما تقدم. و کثیراً ما یطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده و یجعل العلم کالسابق و المقدمة و الترک کالثمرة و التابع، و بهذا الاعتبار قال(ص): «الندم توبة.»

اذ لایخلو الندم عن علم أوجبه و أثمره و عن عزم یتبعه و یتلوه.

فی وجوب التوبة

لاریب فی وجوب الاحتراز عن الأمراض و المهالک المفوتة لحیاة الجسد عقلاً و شرعاً، فوجوب الاحتراز عن أمراض الذنوب و مهلکات الخطایا المفوتة لحیاة الأبد بطریق أولی، و قال تعالی: [وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] {النور:٣١} و قال تعالی: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ] {التَّحريم:٨} و النصوح الخالص للّه الخالی عن الشوائب. و قال تعالی: [إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ] {البقرة:٢٢٢}.

و قال رسول اللّه(ص): «التائب حبیب اللّه، و التائب من الذنب کمن لا ذنب له.»

و قال الباقر(ع): «اللّه أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته و زاده فی لیلة ظلماء فوجدها، فاللّه تعالى أشد فرحاً لتوبة عبده من ذلک الرجل براحلته حین وجدها.»

و قال الصادق(ع): «ان اللّه یفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب کما یفرح أحدکم بضالته إذا وجدها.»

و عنه(ع) فی قوله تعالی: [تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا] قال: «هو الذنب الذی لایعود فیه أبداً. قیل: و أینا لم یعد؟ قال: یا فلان إن اللّه یحب من عباده المفتن التواب، یعنی کثیر الذنب کثیر التوبة.»

و عنه(ص) قال: «اذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه اللّه و ستر علیه.» قیل: و کیف یستر علیه؟ قال: «ینسی ملکیه ما کانا یکتبان علیه، و یوحی اللّه إلى جوارحه و إلى بقاع الأرض ان اکتمی علیه ذنوبه،

فيلقى اللّه تعالى حين يلقاه و ليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب.»

و قال الباقر(ع): «التائب من الذنب كمن لاذنب له، و المقيم على الذنب و هو يستغفر منه كالمستهزئ.»

فى فورية التوبة

أما فوريتها فلاريب فيه، لأن دفع ضرر الذنوب فورى وجوبه، على أن أصل التوبة هو معرفة كون المعاصى مهلكات، و هذا العلم من نفس الايمان، و هو واجب فورى.

و العلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان، و هو المراد بقوله(ص): «لايزنى الزانى حين يزنى و هو مؤمن».

اذ ليس المراد نفى الايمان باللّه و صفاته و كتبه و رسله و ملائكته، بل نفى الايمان بكون الزنا مبعداً عن اللّه و موجباً للمقت، كما إذا قال الطبيب هذا سمّ فلا تتناوله، فإذا تناوله يقال تناول و هو غير مؤمن، أى بقوله انه سمّ مهلک، لا انه غير مؤمن بوجود الطبيب، لأن العالم بالسمّ لايتناوله أصلاً. فالعاصى بالضرورة ناقص الايمان.

و ليس الايمان باباً واحداً، بل هو نيف و سبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا اللّه و أدناها اماطة الأذى عن الطريق. و مثله قول القائل: ليس الإنسان موجوداً واحد بل هو نيف و سبعون موجوداً أعلاها القلب و الروح و أدناها اماطة الأذى عن البشرة، بأن يكون مقصوص الشارب مقلم الأظفار نقى البشرة عن الخبث، حتى يتميز عن البهائم المتلوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالها و أظلافها.

فالايمان كالانسان، و فقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح و الذى ليس له الا شهادة التوحيد و الرسالة كالانسان مقطوع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أجزائه الظاهرة و الباطنة الا أصل الروح.

و كما ان من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلف عنها الأعضاء التى تمدها و تقويها، فكذلک من ليس له الا أصل الايمان، و هو مقصر فى الأعمال قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه إذا صدر منها الرياح العاصفة المحركة للايمان فى مقدمه قدوم ملک الموت و وروده، فكل ايمان لم يثبت فى النفس أصله و لم تنتشر فى الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملک الموت، و خيف عليه سوء الخاتمة الا ما سقى بماء الطاعات على توالى الأيام و الساعات حتى رسخ و ثبت.

و انما انقطعت نياط العارفين خوفاً من دواهى الموت و مقدماته الهائلة التى لايثبت عليها الا الأقلون، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا يجاوز الأمر فيه اختيار الأطباء و لاينفع بعده الاحتماء، فلاينفع بعد ذلک نصح الناصحين و وعظ الواعظين، و يحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين.

فى عمومية التوبة

اعلم ان وجوب التوبة عام فى الأشخاص و الأحوال، فلاتختص التّوبة بذنبٍ من الذنوب، أو شخص من الأشخاص، ولا تتحدّد بزمانٍ و لا مكانٍ و لا عمرٍ محدّد. قال تعالى: [وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا] فعمّم الخطاب، و كل انسان لايخلو عن معصية بجوارحه، فان خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح، فلايخلو عن الهمّ بالذنوب بالقلب، فان خلا عن الهمّ فلايخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر اللّه، فان خلا عنه فلايخلو عن الغفلة و القصور فى العلم باللّه و صفاته و آثاره بحسب طاقته، و كل ذلک نقص و له أسباب و ترک أسبابه بتشاغل أضدادها رجوع عن طريق إلى ضده.

و المراد بالتوبة الرجوع، و لايتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص، و انما يتفاوتون فى المقادير، و أما الأصل فلابد منه.

الا ان الأنبياء و الأوصياء ذنوبهم ليست كذنوبنا، فانما هى ترک دوام الذكر و الاشتغال بالمباحـات و حرمانهم زيادة الأجر بسبب ذلک، و لهذا ورد: «ان حسنات الأبرار سيئات المقـربين» و قال الصادق(ع): «ان رسول اللّه(ص) كان يتوب إلى اللّه و يستغفره فى كل يوم و ليلة مائة مرة مـن غيـر ذنـب، ان اللّـه يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب»، أى كذنوبنا، فان ذنب كل أحد انما هـو بحسـب قدره و منزلته عند اللّه.»

و هذا باب شريف ينفتح منه معانى اعتراف الأنبياء و الأئمة(ع) بذنوبهم و بكائهم و تضرعهم.

ثم اعلم أنّه لايكفى فى تدارک الشهوات تركها فى المستقبل، بل لابد من محو آثارها التى انطبعت فى القلب بنور الطاعات، قال(ص): «اتبع السيئة بالحسنة تمحها.»

و ينبغى أن تكون الحسنة الماحية للسيئة مناسبة لتلک السيئة، فيكفر سماع الملاهى بسماع القرآن و حضور المجالس التى يذكر اللّه فيها و أنبياءه و خلفاءه، و يكفر القعود بالمسجد جنباً بالعبادة فيه و نحـو ذلک، و ليس ذلک شرطاً.

روى ان رجلاً قال لرسول اللّه(ص): انى عالجت امرأة فأصبت منها كل شىء الا المسيس فاقض على بحكم اللّه. فقال: أما صليت معنا؟ فقال: بلى. فقال: «ان الحسنات يذهبن السيئات.»

و ينبغى أن يكون عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها و يمحو أثرها قبل أن يتراكم الـرين علـى القلب فلايقبل المحو، قال اللّه تعالى: [إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُـمَّ يَتُوبُـونَ مِـنْ قَرِيبٍ] {النساء:١٧}، [وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَـوْتُ قَـالَ إِنِّـى تُبْـتُ الآنَ] {النساء:١٨}.

قال الصادق(ع): «ذلک إذا عاين أمر الآخرة، و ذلک ان التوبة مقبولة قبل ان يعاين.»

و عن النبى(ص) قال: من ترک المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمـين: أحـدهما ان يتراكم الظلمة عن قلبه من المعاصى حتى يصير ريناً و طبعاً فلا يقبل المحو. و الثانى ان يعاجله المـرض

أو الموت فلايجد مهلة للاشتغال بالمحو.»

و لذلک ورد فی الخبر: «ان أكثر صياح أهل النار التسويف.»

و عليه فإنّ التّوبة تشمل جميع الذّنوب و تستوعب كلّ فردٍ فی أی مكانٍ أو زمانٍ كان، وإذا ما إحتوت على كلّ الشّروط، فستُقبل من قبل البارى تعالى، والإستثناء الوحيد الذى لاتُقبل فيه التّوبة، والذى أشار إلى القرآن الكريم، هو: التّوبة عند حضور الموت، أو نزول العذاب الإلهى، (كما تاب فرعون فی آخر لَحَظات عمره)، فعندها لن تُقبل توبته، لأنّ التّوبة عندها ليست توبةً حقيقيّةً، و لا هی صادرةٌ من الشّخص من موقع الإختيار، فيقول البارى تعالى: [وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِکَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا] {النساء:١٨}

و نقرأ فی قصّة فرعون: عندما إنفلق البحر لموسى(ع)، و تبعه فرعون وجنوده، واغرق فرعون، فقال: [آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ] {يونس:٩٠}

ولكنّه سمع الجواب مباشرةً، فقال تعالى: [آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ] {يونس:٩١}

و كذلک بالنّسبة للحدود الإلهيّة، عندما يقع المجرم فی أيدی العدالة، فلن تقبل توبته، لأنّه لم يتب واقعاً بل خوفاً من العقاب لا غير.

فالتّوبة التی لاتقبل من البارى تعالى، هی التّوبة التی تخرج من شكلها الإختيارى فی مسيرة الإنسان.

وقال البعض: توجد ثلاثة موارد اخرى لاتقبل فيها التوبة:

الأول: «الشّرک»، حيث يقول القرآن الكريم: [إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَکَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِکَ لِمَنْ يَشَاءُ] {النساء:٤٨}

ولكن هذا الأمر يبتعد عن الصّواب و الصّحة، بل أنّ الآية لم تتكلم عن التّوبة، ولكنّها تحدثت عن العفو عن المشرک من دون توبةٍ، وإلّا فانّ كلّ الأشخاص قبل الإسلام، تابوا من شركهم وقبلت توبتهم، و كذلک كلّ من يدخل فی الإسلام فی عصرنا الحاضر، فتوبته مقبولةٌ عند جميع علماء المسلمين، ولكن إذا

مات المُشرک و هو على شِرکه، فلن يتوب اللّه تعالى عليه، أمّا فى حالة أن يموت على التّوحيد، ولكنّه قد إرتكب ذنوباً فى سالف حياته، فمن الممكن أن يعفو عنه اللّه تعالى، وهذا ما نستوحيه من مفهوم الآية الكريمة.

وخلاصة القول، أنّ المشركين لن يشملهم العفو الإلهى المنفتح على الخلق، بل هو للمؤمنين الموحّدين، و التّوبة تغفر كلّ الذنوب حتى الشّرک.

ثانياً و **ثالثاً**: يجب أن تكون التّوبة مُباشرةً بعد الذنب، و لاتؤخّر إلى وقتٍ بعيدٍ، و كذلک يجب أن يكون إرتكاب الذنب عن جهالةٍ لا عن عنادٍ، و نقرأ فى سورة النساء: [إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِکَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] {النساء:١٧}

والجدير بالملاحظة، أنّ كثيراً من المفسّرين، حملوا هذه الآية على التّوبة الكاملة، لأنّه من الطّبيعى، عندما يُذنب الإنسان من موقع العناد و الغيّ، ثم يتوجّه لحقيقة الحال، و يندم على أفعاله السّابقة، فإنّ البارى تعالى يتوب عليه، و قد حدّثنا التأريخ عن نماذج كثيرةً و أفراداً كانوا فى صفوف المُعاندين و الأعداء، ثم رجعوا عن غيّهم و تابوا، و عادوا إلى حضيرة الإيمان و الصّلاح.

و من المعلوم حتماً، لو أنّ الإنسان أمضى عمره بالذّنوب و العصيان، ولكن تاب بعدها توبةً نصوحاً، و تحول من دائرة المعصية والإثم، إلى دائرة الطّاعة و الإيمان، فإنّ اللّه تعالى سيقبل توبته لامحالة.

و على أنّ توجد آياتٌ كثيرةٌ، تدلّ على شمولية التوبة لجميع الذّنوب، و منها:

١. نقرأ فى سورة الزمر: [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ] {الزُّمر:٥٣}

٢. نقرأ فى سورة المائدة: [فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] {المائدة:٣٩}

٣. نقرأ فى سورة الأنعام: [أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]

{الأنعام:۵۴}

ففی هذه الآیة نری، أنّ سوء العمل مطلقٌ و یشمل کلّ الذّنوب، و مع ذلک فلاتُحجب عنه التّوبة و طریق العودة.

۴. نقرأ فی سورة آل عمران: [وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ] {آل عمران:۱۳۵}

و هنا الظّلم أیضاً یشمل جمیع الذنوب، لأنّ الظلم مرّة یقع علی الغیر و اخری علی النفس، ووعدت هذه الآیة، جمیع المذنبین بالتّوبة عن جمیع ذنوبهم و آثامهم، فی أطار الذّکر و الإستغفار.

۵. نقرأ فی سورة النّور، حیث خاطبت جمیع المؤمنین: [وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] {النور:۳۱}

فکلمة «جمیعاً» تدعو جمیع المذنبین للتوبة، و لولا شمولیّة و عمومیّة التّوبة، لما صحّت هذه الدّعوة القرآنیة.

و وردت روایاتٌ کثیرةٌ فی هذا المجال، فی مصادر الفریقین، السّنة و الشّیعة، وأنّ باب التّوبة مفتوح حتی اللّحظات الأخیرة من العُمر، ما لم یری الإنسان الموت بعینه.

الخلاصة

١. إنّ الخطوة الاولى لتهذيب الأخلاق و السّير إلى اللّه، هى «التّوبة».

٢. «التوبة» فى الأصل، إذا نسبت للمذنبين هى «الرجوع عن الذّنب» و يسمى «تائب»، ولكن اذا نسب الله فيصبح معناها: «الرجوع إلى الرّحمة الإلهيّة».

٣. لا شک فى وجوب الاحتراز عن الأمراض و المهالک المفوتة لحياة الجسد عقلاً و شرعاً، فوجوب الاحتراز عن أمراض الذنوب و مهلكات الخطايا المفوتة لحياة الأبد بطريق أولى.

۴. دفع ضرر الذنوب فورى وجوبه، و على أن أصل التوبة هو معرفة كون المعاصى مهلكات، و هذا العلم من نفس الايمان، و هو واجب فورى.

۵. ان وجوب التوبة عام فى الأشخاص و الأحوال، فلاتختص التّوبة بذنبٍ من الذنوب، أو شخص من الأشخاص، ولا تتحدّد بزمانٍ و لا مكانٍ و لا عمرٍ محدّد.

۶. ثلاثة موارد لاتقبل فيها التوبة: الأول: «الشّرک»، ثانياً: يجب أن تكون التّوبة مُباشرةً بعد الذنب، و لاتؤخّر إلى وقتٍ بعيدٍ، و ثالثاً يجب أن يكون إرتكاب الذنب عن جهالةٍ لا عن عنادٍ.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ١٩

فصل في التوبة (٢)

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

لا تتحقق التوبة الصادقة النصوح إلا بعد تبلورها، واجتيازها أطواراً ثلاثة:

فالطور الأول، هو: طور يقظة الضمير، وشعور المذنب بالأسى والندم على معصية الله تعالى، وتعرضه لسخطه وعقابه، فإذا امتلأت نفس المذنب بهذا الشعور الواعى انتقل إلى:

الطور الثانى، وهو: طور الإنابة إلى الله عزوجل، والعزم الصادق على طاعته، ونبذ عصيانه، فإذا ما أنس بذلک تحول إلى:

الطور الثالث، وهو: طور تصفية النفس من رواسب الذنوب، وتلافى سيئاتها بالأعمال الصالحة الباعثة على توفير رصيد الحسنات، وتلاشى السيئات، وبذلک تتحقق التوبة الصادقة النصوح.

المحتوي العلمى

مراتب التوبه

توبة العوام

لدينا توبة لعموم الناس؛ وتلک التوبة هى ان يکون القلب خاضعاً لأنه ارتکب ذنباً. يذکر ذنوبه ومعاصيه أمام الله سبحانه؛ يضطرب قلبه؛ يندم على ماضيه؛ ولايسير ثانية فى ذلک الطريق ويصلح نفسه. ويقال لهذا توبة العوام أو العموم.

توبة الخواص

التوبة الثانية توبة الخواص. بعض معرفته أكثر. أى يکون خجلاً أمام المکروهات. يکون قلبه خاضعاً وخاشعاً، بکى آدم(ع) مائتى عام على ترک الأولى. وکانت ليونس(ع) فى بطن الحوت حالة من التذلل وکان يرى نفسه ظالماً ويقول: [لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَکَ إِنِّى کُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ] {الأنبياء:٨٧}

قال ذلک من أجل ترکه الأولی حینما خرج عن قومه بدون إذن من الله سبحانه وأخیراً فان بعض الأنبیاء وبعض الأفراد الذین یقتدون بالمعصومین یتألمون وتضطرب قلوبهم من المکروهات، ومن الشبهات، وأخیراً من ترک الأولی لأن معرفتهم أکثر من معرفة الآخرین، وبنفس هذا المقدار تتألم قلوبهم وتکون قلوبهم أمام الله ذلیلة أکثر؛ وبکاؤهم أکثر.

ونقرأ حول آدم(ع) أنه عندما أخرج من الجنة وجاء إلی هذه الدنیا، لم یرفع رأسه مائتی عام. کان یطأطئ رأسه دائماً حیاءً لم یکن قد فعل شیئاً، لم یرتبک ذنباً، کان معصوماً. قیل له فقط لاتأکل من هذه الحنطة، وإذا أکلت منها فیجب أن تخرج من الجنّة. أی أنّه فهم أنّ الله سبحانه یرید منه أن لایأکل من هذه الحنطة. أکله منها عمل غیر جید؛ مکروه، ومستحب له أن لایأکل منها. ومن أجل هذا العمل الذی لم یکن فی محله ولم یکن ذنباً أیضاً بکی مائتی عام. کان یطأطئ رأسه مائتی عام حتی جاءه جبرئیل وقال: یا آدم إن الله تعالی یقول لک: توسل بأهل البیت وارفع رأسک فإنی قد غفرت لک. ونطلق علی هذه التوبة توبة الخواص.

توبة اخص الخواص

والأعلی رتبة مما سبق هی توبة أخص الخواص، توبة النبی الأکرم(ص) حین یقول: انه لیغان علی قلبی وإنی لأستغفر الله فی الیوم سبعین مرة[1]. أی لأجل تطهیر قلبی من الالتفات لغیر الله. فیستغفر ذلک الاستغفار الذی یخرج من القلب لا من اللسان. وأمیرالمؤمنین(ع) کان له اتصال مع الناس فی النهار، یأکل ویشرب وینام. وهذا الالتفات إلی غیر الحق فی نظره(ع) ذنب. وهذا لیس من ترک الأولی، ولا إتیان للمکروه، بل وعلی حد تعبیر الحاج السبزواری(ره): «هو مجرد ذلک الالتفات إلی غیر الحق»؛ ومعرفة أمیرالؤمنین(ع) ومعرفة الزهراء(س) ومعرفة النبی الأکرم(ص) والأئمة الطاهرین(ع) تقتضی أن یتوجهوا إلی الحق دائماً. ولهذا فإنّ دعاء کمیل وذلک البکاء والدموع من أمیرالمؤمنین(ع)، ودعاء أبی حمزة

---

۱ ـ الوسائل الشیعه: ج۵ ص۲۲۰.

الثمالی وذلک التضرع والأنين من الإمام السجاد(ع)، وتلک التضرعات من الأئمة الطـاهرين(ع) جميعهـا تستقی من هذا النبع.

فهم تضطرب قلوبهم حقيقة وتخشع أمام الله سبحانه، وخضوعها أمـام الله سـبحانه أكثـر بكثيـر مـن خضوع الإنسان المذنب، لأن من كانت معرفته أكثر فان استغفاره وخضوعه أكثر أيضاً. كان النبی يسـتغفر سبعين مرة فی اليوم. وكانت هذه عادته(ص). ولم يكن للزهراء(س) ذنب أو ترک الأولی، ولكـن أحيانـاً يكون لها التفات لغير الحق، ولهذا كانت تبكـی فـی الأسـحار بحيـث تمـلأ دموعهـا قنينـة. ولـم يكـن أميرالمؤمنين(ع) يرتكب ذنباً ولا يترک الأولی، ولكن قد يلتفت إلی غير الحق أحياناً، وبهذا المقدار مـن الالتفات لغير الحق كان يضطرب قلبه، ويخضع قلبه ويخشع بحيـث يغشـی عليـه فـی البسـتان ويصـير كالميت. يقول ضرار بن ضمرة لمعاوية: «فاشهد لقد رأيته فی بعض مواقفه؛ وقد أرخی الليل سدوله، وهو قائم فی محرابه، قابض علی لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكی بكاء الحزين»[1] لماذا؟ لأن معرفته بالله أكثر.

و من جهةٍ اخری، فإنّ لِلتوبةِ مراحل علی مستوی المصاديق أيضاً:

المرحلة الاولی: التّوبة من الكفر إلی الإيمان.

المرحلة الثّانية: التّوبة من الإيمان الموروث التّقليدی، و التّحرک نحو الإيمان الحقيقی المُستحكم.

المرحلة الثّالثة: التّوبة من الذّنوب الكبيرة الخَطِرة.

المرحلة الرّابعة: التّوبة من الذّنوب الصّغيرة.

المرحلة الخامسة: التّوبة من التّفكير بالذّنب، و الخواطر المشوبة بالمعصية، و إن لم يرتكـب الُمخالفـة فی دائرة الفعل و المُمارسة.

فكلّ فرقةٍ من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من إضطراب السّر، (فی كلّ لحظةٍ لم يتوجهوا فيهـا إلـی

---

١ ـ بحار الأنوار: ج۴۱ ص۱۵، نهج البلاغة، فيض الإسلام: الحكمة ۷۴.

اللّه تعالى بالباطن والسِّر).

و توبةُ الأصفياء من كلّ تنفّس بغير ذكر اللّه.

و توبةُ الأولياء من تلوين الخطرات.

و الخَواص من الإشتغال بغير اللّه.

و توبة العوام من الذّنوب.

و كلّ واحدٍ منهم، يشتمل على نوعٍ من المعرفة و العلم، فى أصل توبته، و مُنتهى أمره.

قبول التوبة

قال فى احياء العلوم: اعلم انک إذا فهمت معنى القبول لم تشک فى ان كل توبة صحيحة فهى مقبولة، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عنداللّه و متنعم فى الآخرة فى جوار اللّه، و مستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه اللّه، و علموا أن القلب خلق سليماً فى الأصل، فكل مولود يولد على الفطرة و انما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب و ظلمتها.

و علموا أن نار الندم تحرق تلک الغبرة، و ان نور الحسنة تمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، و انه لاطاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات كما لاطاقة لظلام الليالى مع نور النهار، بل كما لاطاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون، فكما ان الثوب الوسخ لايقبله الملک لأن يكون لبسه، فالقلب المظلم لايقبله اللّه تعالى لأن يكون فى جواره، و كما ان استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب و غسله بالصابون و الماء الحار ينظفه لامحالة فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب و غسله بماء الدموع و حرقة الندم تنظفه و تطهره و تزكيه.

و كل قلب زكى طاهر فهو مقبول، فعلى الإنسان التزكية و التطهير و على اللّه القبول، الا ان يغوص

الوسخ لطول تراکمه فی تجاویف الثوب و خلله، فلا یقوی الصابون علی قلعه. و مثال ذلک ان تتراکم الذنوب حتی یصیر طبعاً و رینا علی القلب، فمثل هذا القلب لایرجع و لایتوب.

نعم قد یقول باللسان تبت، فیکون ذلک کقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب، و ذلک لاینظف الثوب أصلاً ما لم یغیر صفة الثوب باستعمال ما یضاد الوصف المتمکن منه، قال اللّه تعالی: [وَهُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ] {الشوری:۲۵} و قال: [غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ] {غافر:۳}.

أقول: من طریق الخاصة فی الکافی عن الصادق أو الباقر(ع): «ان اللّه عزّوجلّ قال لآدم(ع): جعلت لک ان من عمل من ذریتک سیئة ثم استغفر غفرت له. قال: یا رب زدنی. قال: جعلت لهم التوبة حتی تبلغ النفس هذه. قال: یا رب حسبی.»

و عن الباقر(ع) قال: «اذا بلغت النفس هذه – و أومأ بیده إلی حلقه – لم یکن للعالم توبة و کان للجاهل توبة.»

و عن الصادق(ع) قال: «قال رسول اللّه(ص): من تاب قبل موته بسنة قبل اللّه توبته، ثم قال: ان السنة لکثیر من تاب قبل موته بشهر قبل اللّه توبته ثم قال: ان الشهر لکثیر، ثم قال: من تاب قبل موته بجمعة قبل اللّه توبته، ثم قال: و ان الجمعة لکثیر من تاب قبل موته بیوم قبل اللّه توبته، ثم قال: ان یوما لکثیر من تاب قبل أن یعاین قبل اللّه توبته.»

و زاد فی روایة الصدوق: «من تاب قبل موته بساعة تاب اللّه علیه، ثم قال: و ان الساعة لکثیر من تاب و قد بلغت نفسه هنا – و أشار بیده إلی حلقه – تاب اللّه علیه.»

و قال النبی(ص): «لو عملتم الخطایا حتی تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب اللّه علیکم.»

و قال الباقر(ع) لمحمد بن مسلم: «ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فلیعمل المؤمن لما یستأنف بعد التوبة و المغفرة، أما و اللّه انها لیست الا لأهل الایمان. قلت: فان عاد بعد التوبة و الاستغفار فی الذنوب و عاد فی التوبة؟ فقال(ع): أ تری العبد المؤمن یندم علی ذنبه و یستغفر اللّه منه و یتوب ثم

لايقبل اللّه توبته. قلت: فانه فعل ذلک مراراً يذنب ثم يتوب و يستغفر؟ فقال: كلما عاد المؤمن بالاستغفار و التوبة عاد اللّه عليه بالمغفرة، و ان اللّه غفور رحيم يقبل التوبة و يعفو عن السيئات.»

و قال الصادق(ع): «ان الرجل ليذنب الذنب فيدخله اللّه به الجنة.» قيل: يدخله اللّه بالـذنب الجنـة؟ قال: «نعم، انه ليذنب فلايزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه فيرحمه اللّه فيدخله الجنة.»

اقسام الذنوب و كيفية التوبة منها

الذنوب باعتبار تنقسم إلى أربعة أقسام: وتختلف توبة هذه الأقسام.

الأول: حقّ الله، مثل قول الكذب الذى هو أحد الذنوب الكبيرة وشرب الخمر الذى هو ذنب كبير جداً، ومثل ذاک الذى قد امتلأت خلايا بدنه من النغمات والموسيقى المبتذلة وأفلام الفيديو، ومن هذه الأشرطة المبتذلة التى يُتعامل بها يكون الذنب أحياناً من هذا النوع، ويسمى «حق الله». ما هى توبة هذا النوع مـن الذنوب؟

يجب إحراق هذه الأشرطة وإتلاف هذه الأفلام، والتنزه عن قول الكذب وشرب الخمور، والندم على ما مضى وإصلاح نفسه وأن لايرتكب هذه الذنوب ثانية، فإذا أصلح نفسه حقيقة فان الله يغفر له. أو مثـل تلک المرأة الرديئة الحجاب إذ هى قد ارتكبت ذنباً عظيماً بعدم ارتدائها الحجاب الكامـل. وهـذا الـذنب كبير إلى درجة انا نقرأ فى الروايات ان المرأة إذا تعطرت وشم عطرها رجل لـيس مـن محارمهـا. فـان السماوات والأرض والملائكة والحائط والباب تلعنها، إذا أثارت المرأة شهوة شاب بإظهار جمال وجهها فقد ارتكبت ظلماً، وذنباً كبيراً. ولكن إذا وضعت عباءتها على رأسها وأصلحت حجابها بصورة صـحيحة وتركت ما كان منها من عدم الاهتمام بحجابها فان الله تعالى يغفر لها.

الثاني: وهو حق الله أيضاً. ولكن حق الله الذى يجب تداركه. مثل ترک الصلاة. فالإنسان الذى يتـرک الصلاة فان عمله خطير جداً «من ترک الصلاة متعمداً فقد كفر» ان مَن ترک الصلاة ليس بمسلم حقيقـى،

بل هو كافر واقعی ولو كان مسلماً ظاهراً، هو كافر وفی صف الكفار يوم القيامة، وفی صف اليهود والنصاری. وحتى أن القرآن ليقول أكثر من ذلک يقول: إن الإنسان الذی يتهاون فی صلاته ويستخف بها فهو ليس بمسلم واقعی وفی وصف الكفار. [فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ] {الماعون:۴و۵}

الويل لمن يتساهل فی صلاته، ولا تكون الصلاة فی صلب حياته، فأحياناً يصلی وأحياناً أخرى لايصلی. وإذا صلی صلّى سريعاً سريعاً. إنه ذنب كبير. أو أنه لايصوم. والإنسان الذی يترک الصيام ذو ذنب عظيم، وحكم تارک الصوم أن يعزر بالسياط فی المرة الأولى والثانية ويقتل فی المرة الثالثة. انه ذنب كبير بحيث إذا ترک أحد صوم يوم واحد عمداً فيجب عليه صيام ستين يوماً كفارة عن ذلک بالإضافة إلى قضاء ذلک اليوم الذی أفطر فيه عمداً، أو إطعام ستين مسكيناً.

واما إذا لم يعطِ الخمس أو الزكاة فهو فی الحقيقة يأكل ناراً.

أكل مال اليتيم و أكل مال الامام(ع) وهو ذنب كبير جداً. وعندما ينظر إليه أصحاب القلوب الحيّة فهم يرون ناراً تخرج من فمه، مثل خروج النار من التنور، هذه الذنوب كبيرة جداً. وأما إذا تاب المذنب، أی ندم على ماضيه، وصمم من هذه اللحظة فما بعدها على الصلاة وقضاء الصوم الذی فی ذمته وإعطاء الخمس الذی عليه الآن وفيما مضى وتدارک كل ذلک، فإن الله سبحانه يغفر له مهما كانت ذنوبه كبيرة.

وكلاهما ــ القسمين الأول والثانی ــ كانا حقّ الله. أحدهما له جبران، والآخر لايتدارک.

الثالث: حق الناس الذی لايحتاج إلى تدارک، مثل الغيبة والغيبة معصية كبيرة، بحيث أن ألسنة صنفين من الناس فی يوم القيامة تكبر أولاً ثم تسقط على الأرض فيطأها الناس بأقدامهم، الصنف الأول النساء اللائی يتطاولن على أزواجهن بألسنتهن. والصنف الثانی أولئک الذين يفتشون عن عيوب الناس ويغتابونهم. يقول القرآن: [وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ] {الهمزة:١} ويل لصاحب اللسان الجارح، الذی يفتش عن العيوب، ويتهم الناس. ويحبس المغتابون والمتهمون يوم القيامة فوق تل من الدماء والصديد مدة خمسين ألف عام حتى يفرغ الناس من الحساب، ثم ينقلون إلى جهنم. ولكن إذا تابوا ولم يعودوا إلى الغيبة ثانية،

وندموا على أعمالهم القبيحة، وأصلحوا أنفسهم فان الله تعالى يغفر لهم حتى كأنهم الآن مثل ما ولدتهم أمهاتهم. وإذا استطاع ان يزيل التهمة التى ألصقها بالآخرين ويحفظ ماء وجوههم، ويذهب إلى كل من اغتابه ويطلب رضاه، فان هذه الأعمال جيدة قطعاً. ولكن تداركها هو فى الندم عليها.

الرابع: حقّ الناس الذى يجب رده إلى الناس، مثل أكل أموال الناس ولو بمقدار قيراط واحد، ولو حبّة حنطة، وحق الناس أمر مشكل إلى حد أن القرآن يقول: [وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ] {آل عمران:١٦١}

وكل من أكل أموال الناس بالباطل يأتى يوم القيامة وفى ذمته ذلك المال. ويؤتى به يوم القيامة إلى صف المحشر مفضوحاً بهذه السرقة.

تقسيم آخر

و باعتبار آخر تنحصر جميع الذنوب فى أربع صفات: صفات ربوبية، و شيطانية، و بهيمية، و سبعية. لكون طينة الإنسان معجونة من اخلاط مختلفة يقتضى كل منها أثراً:

فالربوبية كالكبر و الفخر و التجبر و حب المدح و الثناء و العز و دوام البقاء البقاء و طلب الاستعلاء و نحوها، و هذه أم المهلكات.

و الشيطانية كالحسد و البغي و الحيلة و الخداع و الأمر بالفساد و المنكر و الغش و الشقاق و الدعوة إلى البدع و الضلالة.

و البهيمية كالشره و التكالب و الحرص و الزنا و اللواط و السرقة و أكل مال الأيتام و نحوها.

و السبعية يتشعب منها الغضب و الحقد و التهجم على الناس بالضرب و الشتم و القتل و استهلاك الأموال و نحوها.

ثم هذه أمهات الذنوب و منابعها، و تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها فى القلب خاصة كالكفر و البدعة و النفاق و اضمار السوء للناس، و بعضها على العين و السمع، و بعضها على

اللسان، و بعضها على البطن و الفرج، و بعضها على اليدين و الرجلين، و بعضها على جميع البدن.

و تنقسم قسمة آخرى إلى ما بين العبد و بين اللّه و إلى ما يتعلق بحقوق العباد: فما يتعلق بحقوق العبد خاصة كتركه الصلاة و الصوم و نحوهما، و ما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة و قتل النفس و غصب الأموال و شتم العرض.

و تنقسم قسمة اخيرة إلى كبائر و صغائر، قال اللّه تعالى: [إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ] {النساء:٣١} و قال تعالى: [الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ] {النّجم:٣٢}.

و قد اختلفت الأقوال و الأخبار فى تعيين الكبائر، و الأشهر انها ما توعد اللّه عليه النار. فعن الصادق(ع) فى قوله تعالى: [إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ] قال: الكبائر التى أوجب اللّه عليها النار.

و فى الصحيح عن أبى جعفر الثانى قال: سمعت أبى يقول: سمعت أبى موسى بن جعفر يقول: دخل عمرو بن عبيد على أبى عبداللّه(ع)، فلما سلم و جلس تلا هذه الآية [الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ] {النّجم:٣٢} ثم أمسک، فقال له(ع) ما أسكتک؟ قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب اللّه، فقال: نعم يا عمرو، أكبر الكبائر الإشراک باللّه يقول اللّه [مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ] {المائدة:٧٢} ، و بعده اليأس من روح اللّه، لأن اللّه يقول: [إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ] {يوسف:٨٧}، ثم الأمن من مكر اللّه لأن اللّه تعالى يقول: [فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الخَاسِرُونَ] {الأعراف:٩٩}، و منها عقوق الوالدين، لأن اللّه جعل العاق جباراً شقياً و قتل النفس التى حرم اللّه الاّ بالحق لأن اللّه تعالى يقول: [فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا] {النساء:٩٣}، و قذف المحصنة لأن اللّه تعالى يقول: [لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] {النور:٢٣}، و أكل مال اليتيم لأن اللّه يقول: [إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً] {النساء:١٠}، و الفرار من الزحف لأن اللّه يقول: [وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ] {الأنفال:١٦} ، و أكل الربا لأن اللّه يقول: [الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ]

{البقرة:٢٧٥}، و السحر لأن اللّه يقول: [وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ] {البقرة:١٠٢}، و الزنا لأن اللّه يقول: [وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِکَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا] {الفرقان:٦٨ و ٦٩}، و اليمين الغموس الفاجرة لأن اللّه يقول: [إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِکَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ] {آل عمران:٧٧}، و الغلول لأن اللّه يقول: [وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ] {آل عمران:١٦١}، و منع الزكاة المفروضة لأن اللّه يقول: [فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ] {التوبة:٣٥}، و شهادة الزور، و كتمان الشهادة لأن اللّه يقول: [وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ] {البقرة:٢٨٣}، و شرب الخمر لأن اللّه تعالى نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان، و ترک الصلاة متعمداً أو شيئاً مما فرض اللّه، لأن رسول اللّه(ص) قال: «من ترک الصلاة متعمداً فقد برىء من ذمة اللّه و ذمة رسوله»، و نقض العهد و قطيعة الرحم لأن اللّه يقول: [لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ] {الرعد:٢٥}. قال: فخرج عمرو و له صراخ من بكائه، و هو يقول: هلک من قال برأيه و نازعکم فى الفضل و العلم.»

فان قيل: كيف ورد الشرع بما لم يبين حده، و الكبائر مبهمة قد اختلفت فى الأخبار؟

فالجواب: ان كلما لايتعلق به حكم فى الدنيا، جاز أن يتطرق إليه الإبهام، و الكبيرة على الخصوص لاحكم لها فى الدنيا من حيث انها كبيرة، فان موجبات الحدود معلومة بأساميها، و انما حكم الكبيرة ان اجتنابها يكفر الصغائر و ان الصلوات الخمس لا تكفرها، كما فى الحديث النبوى: الصلوات الخمس و الجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنب الكبائر.

و هذا أمر يتعلق بالآخرة و الإبهام به أليق حتى يكون الناس على حذر و وجل، فلا يتجرأون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس و اجتناب الكبائر، ثم اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة.

فى تجزئة التوبة

ان التوبة عن بعض الذنوب إما أن يكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن

كبيرة دون كبيرة:

اما الأول فهو ممكن للعلم بأن الكبائر أعظم عنداللّه و أجلب لسخطه و مقته، و الصـغائر أقـرب إلـى تطرق العفو إليه، و قد كثر التائبون و لم يكن أحد منهم معصوما، فلا تستدعى التوبة العصمة. و الطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً و يحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه بظهر منه عـدم ظهـور أثره.

أما الثـانى فهو ممكن أيضاً لاعتقاده ان بعض الكبائر أشد و أغلظ عنداللّه، كالذى يتوب عن القتـل و النهب و الظلم و مظالم العباد لعلمه بأن ديوان العباد لا يترک، و ما بينه و بين اللّه يسرع العفو إليه.

أما الثالث ان يتوب عن صغيرة و هو مصرّ على كبيرة يعلم انها كبيرة، كالذى يتوب عن الغيبة أو عـن النظر إلى غير المحرم أو ما يجرى مجراه و هو مصرّ على شرب الخمر، و هو ممكن إذ ما من مؤمن الاّ و هو خائف على معاصيه و نادم على فعله ندماً، اما ضعيفاً و اما قوياً، و لكن تكون لـذة نفســه فـى تلـک المعصية أقوى من ألم قلبه فى الخوف منها، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل و الغفلة و السـباب توجب قوة الشهوة، فيكون الندم موجوداً و لكن لايكون العزم قوياً عليه.

و يقول: للّه على أمران و لى على المخالفة فيه عقوبتان، و اناملى فى أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه فى الآخر فأقهره فيما اقدر عليه، و أرجوه بمجاهدتى فيه أن يكفر عنى ما عجزت عنه بفرط شهوتى.

و هذا حال كل مسلم، و قد قال(ص): «الندم توبة.»

و لم يشترط الندم عن كل ذنب، و قال(ع): «التائب من الذنب كمن لا ذنب له.» و لم يقل التائب مـن الذنوب كلها.

الخلاصة

١. على تقسيمٍ يمكن ان نشير الى ثلاثة مراتب للتوبه: ١. توبة العوام، ٢. توبة الخواص، ٣. توبة اخص الخواص

٢. إنّ لِلتوبةِ خمسة مراحل على مستوى المصاديق: المرحلة الاولى: التّوبة من الكفر إلى الإيمان. المرحلة الثّانية: التّوبة من الإيمان الموروث التّقليدى، و التّحرک نحو الإيمان الحقيقى المُستحكم. المرحلة الثّالثة: التّوبة من الذّنوب الكبيرة الخَطرة. المرحلة الرّابعة: التّوبة من الذّنوب الصّغيرة. المرحلة الخامسة: التّوبة من التّفكير بالذّنب، و الخواطر المشوبة بالمعصية، و إن لم يرتكب الُمخالفة فى دائرة الفعل و المُمارسة.

٣. الذنوب باعتبار تنقسم إلى أربعة أقسام: وتختلف توبة هذه الأقسام: الأول: حقّ الله، و يجب الندم عليها، و العزم على الترک منها، الثاني: وهو حق الله الذى يجب تداركه. الثالث: حق الناس الذى لايحتاج إلى تدارک. الرابع: حقّ الناس الذى يجب رده إلى الناس.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٢٠

فصل في التوبة (٣)

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

رحمة الله عزّوجلّ وسعت كل شيء, من الإنسان إلى الجماد، فهو سبحانه الرحمن الرحيم, وهو الذى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار, ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها.

إنه الله تعالى الذى وصف نفسه بالغفور الرحيم، وهو فى ذات الوقت الجبار ذو العقاب الشديد، لكنه وهو يتربع على عرش ملكوت السماء والأرض يغفر لعبده ما قدمت يداه من الذنوب والمعاصى، يصفح ويسامح ويعفو وهو الرب الكبير، فإذا كان الله خالقنا وهو المتصرف فى أمورنا جُلها يغفر لعبده، فكيف لذاک الإنسان الضعيف الفقير ألا يغفر؟!

المحتوي العلمى

أقسام العباد فى التوبة

و هم طبقات:

الطبقة الأولى أن يتوب العاصى و يستقيم إلى آخر عمره، فيتدارک ما فرط من أمره و لايحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه، الا الزلات التى لاينفک البشر عنها فى العادة، و هى التوبة النصوح.

الطبقة الثانية تائب سلک طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات و كبائر الفواحش كلها، الا انه ليس ينفک عن ذنوب تعتريه لا عن عمد و تجريد قصد و لكن يبتلى بها فى مجارى أحواله، من غير ان يقدم عزماً على الاقدام عليها و لكنه إذا أقدم لأم نفسه و ندم و جدد عزمه على عدم العود. و هذه رتبة عالية و ان كانت نازلة عن الأولى، و هى أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفک عنه، قال تعالى: [الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ] {النّجم:٣٢} و قال تعالى: [وَالَّـذِينَ إِذَا فَعَلُـوا

فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ] {آل عمران:١٣٥}. و فى الحديث: «خياركم كل مفتن تواب.»

و فى الرواية: «المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا و تميل أحيانا.»

الطبقة الثالثة ان يتوب و يستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن قصد و صدق شهوة بعجزه عن قهر الشهوة، الا انه مع ذلک مواظب على الطاعات و تارک جملة من السيئات مع القدرة و الشهوة، و انما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، و هو يودّ قمعها و يقول: ليتنى لم أفعل و سأتوب، ولكنه يسوّف نفسه فى التوبة يوماً بعد يوم، قال تعالى: [وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] {التوبة:١٠٢} فهو مرجوّ عسى اللّه أن يتوب عليه إذا تاب.

الطبعة الرابعة أن يتوب و يستقيم مدة ثم يعود إلى مقارفة الذنب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة و من غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمک انهماک الغافل فى اتباع الشهوات، فهذا أقبح حال التائبين و أمر فى مشيئة اللّه.

علاج للاقبال على التوبة

و هى أربعة أمور:

الأول أن ينظر إلى الآيات و الأخبار المخوفة للمذنبين و العاصين و ما فيهما من التهديد و الوعيد على العقاب الشديد و العذاب الأكيد، ففى بعض الأخبار من طرق الجمهور عنه(ص) قال: «ما من يوم طلع فجره و لا ليلة غاب شفقها الاّ و ملكان يتجاوبان بأربعة أصوات: يقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا، و يقول الآخر يا ليتهم إذ خلقوا علموا لما ذا خلقوا، فيقول الآخر و يا ليتهم إذ لم يعلموا لما ذا خلقوا عملوا بما علموا فيقول الآخر و يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تركوا الخوض فيما لم يعلموا.»

و فی روایة: «تجالسوا فتذاکروا ما علموا، فیقول الآخر و یا لیتهم إذ لم یعملوا بما علموا تـابوا عمـا عملوا.»

و قال بعض العارفین: ما من عبد یعصی الاّ استأذن مکانه من الأرض ان یخسف به، و استأذن سـقفه من السماء ان یسقط علیه کسفاً، فیقول اللّه للأرض و للسماء، کفا عن عبدی و امهلاه، فانکما لم تخلقاه و لو خلقتماه لرحمتماه، لعله یتوب الی فأغفر له، لعله یستبدل صالحا فأبدله له حسنات، فذلک معنی قولـه تعالی: [إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ] {فاطر:۴۱}.

الثانی حکایات المذنبین التائبین و ما جری علیهم من المصائب بسبب ذنوبهم.

الثالث أن یتصور المذنب ان تعجیل العقوبة فی الدنیا متوقع علی الذنب، و ان کل ما یصیب العبد مـن المصائب بسبب جنایة صدرت منه، قال تعالی: [وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَـنْ كَثِيرٍ] {الشُّوری:۳۰}.

و قال الصادق(ع) فی هذه الآیة: «لیس من التواء عرق و لانکبة حجر و لاعثرة قدم و لاخدشة عـود الا بذنب.»

و فی روایة أخری: «اما انه لیس من عرق یضرب و لانکبة و لاصداع و لامرض الاّ بـذنب، و ذلـک قول اللّه عزّوجلّ فی کتابه: [وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَـنْ كَثِيـرٍ] {الشُّـوری:۳۰} قال: «و ما یعفو اللّه أکثر مما یؤاخذ به.»

و قال(ع): «ان الرجل یذنب الذنب فیحرم صلاة اللیل، و ان العمـل السـیئ أسـرع فـی صـاحبه مـن السکین فی اللحم.»

الرابع ذکر ما ورد من العقوبات علی آحاد الذنوب کالخمر و الزنا و السرقة و القتل و الغیبة و الکبر و الحسد، و هو مما لایمکن حصره. و فی الحدیث یقول اللّه تعالی: أدنی ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته علی طاعتی ان احرمه لذیذ مناجاتی.

و قال(ع): «من همّ بالسيئة فلايعملها، فانه ربما عمل العبد سيئة فيراه الرب تبارک و تعالی فیقول: وعزّتی لا أغفر لک بعد ذلک أبدا.»

و قال الکاظم(ع): «حق علی اللّه أن لایعصی فی دار الاّ اضحاها للشمس حتی یطهرها.»

و قال رسول اللّه(ص): «ان العبد لیحبس علی ذنب من ذنوبه مائة عام و انه لینظر إلی أزواجه فی الجنة یتنعمن.»

و قال أمیرالمؤمنین(ع) لقائل بحضرته استغفر اللّه – وکان الإمام أمیرالمؤمنین(ع) یعرف سوابقه و أعماله–: «ثَکَلَتْکَ امُّکَ أتدری مَا الاسْتِغْفارُ؟ الإسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ العِلِّیینَ، وَهَوَ إسمٌ وَاقِعٌ عَلَی سِتَّةِ مَعانٍ.

أَوَّلُها النَّدمُ عَلی مَا مَضی.

والثَّانِی العَزْمُ عَلَی تَرْکِ العَودِ إلَیهِ أَبَداً.

والثَّالِثُ أنْ تُؤَدِّی إِلَی المخْلُوقِینَ حُقُوقَهُم حَتَّی تَلقَی اللَّهَ أَمْلَسَ لَیسَ عَلَیکَ تَبعَةٌ.

الرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَی کُلِّ فَرِیضَةٍ عَلَیکَ ضَیَّعْتَها فَتُؤَدِّیَ حَقَّها.

الخَامِسَ أَنْ تَعْمِدَ إِلَی اللَّحْمِ الَّذِی نَبَتَ عَلی السُّحْتِ فَتُذِیبَهُ بِالأحزَانِ حَتَّی تُلْصِقَ الجِلْدَ بِالعَظْمِ، وَیَنْشَأَ بَینَهُما لَحْمٌ جَدِیدٌ.

و السَّادِسَ أن تُذِیقَ الجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ کَمَا أَذَقْتَهُ حَلاوَةَ المَعْصِیَةِ، فَعِنْدَ ذَلِکَ تَقُولُ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»

ونقل نفس هذا المعنی فی روایةٍ اخری، عن کمیل بن زیاد عن أمیرالمؤمنین(ع)، فقال: یا أَمِیرَالمؤمنین العَبْدُ یُصِیبُ الذَّنْبَ فَیَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَنْهُ فَما حِدُّ الإستِغْفَارِ؟.

فقال الإمام(ع): «یا ابْنَ زِیادٍ التَّوبَةُ».

قلت: بَسْ.

قال(ع): «لا».

قلت: فَكَيفَ؟

قال(ع): «إنَّ العَبْدَ إذا أصابَ ذَنْبَاً يَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللّهَ بِالتَّحْرِيکِ».

قلت: وَما التَّحْرِيکُ؟.

قال(ع): «الشَّفَتَانِ وَاللِّسانِ يُرِيدُ أنْ يَتْبِعَ ذَلِکَ بِالحَقِيقَةِ».

قلت: وَ ما الحَقِيقَة؟.

قال(ع): «تَصْدِيق فِى القَلْبِ وَإضْمارُ أنْ لا يَعُودَ إلَى الذَّنْبِ الَّذِى اسْتَغْفَرَ مِنْهُ».

فقلت: «فإذا فَعَلَ ذَلِکَ فَإنَّهُ مِنَ المُسْتَغْفِرِينَ».

قال(ع): «لا».

فقال كميل رحمه الله، قلت: فَكَيفَ ذاکَ.

فقال الإمام(ع): «لِأنَّکَ لَمْ تَبْلُغْ إلَى الأَصْلِ بَعْدَهُ».

فقال كميل رحمه الله: فَأَصْلِ الإسْتِغْفارِ ما هُوَ؟.

فقال الإمام(ع): «الرُّجُوعُ إلَى التَّوبَةِ مِنَ الذَّنْبِ الَّذى إسْتَغْفَرْتَ مِنْهُ وَهِيَ أَوَّلُ دَرَجَةِ العابِدِينَ».

ثم قال الإمام(ع): «وَ تَركُ الذَّنْبِ والإستِغفارِ اسمٌ وَاقِعٌ لِمعانٍ ستّ».

ثم ذكر نفس المراحل السّتة، المذكورة فى قصار الكلمات لنهج البلاغة، مع قليلٍ من الاختلاف.

و يمكن أن يقال: إنّ التّوبة إذا كانت كما ذكرها أميرالمؤمنين(ع)، فلن يوجد تائب حقيقى أبداً.

ولكن يجب الّتنبّهُ إلى أنّ بعض الشروط السّتة، هى فى الحقيقة من كمال التّوبة، كما فى الشّرط الخامس و السّادس، أمّا الشّروط الأربعة الاخرى، فهى من الشّروط الواجبة و اللّازمة، أو كما يقول بعض المحقّقين: إنّ القسم الأول، و الثّانى من أركان التّوبة، و الثّالث و الرابع هما من الشروط اللّازمة، و الخامس و السّادس من شروط الكمال.

و فى مصباح الشريعة: قال الصادق(ع): «التوبة حبل اللّه و مدد عنايته، و لابد للعبد من مداومة التوبة

على كل حال، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر، و توبة الأولياء من تلوين الخطرات، و توبة الأصفياء من التنفيس، و توبة الخلص من الاشتغال بغير اللّه، و توبة العالم من الذنوب.»

و لكل واحد منهم معرفة و علم فی أصل توبته و منتهی أمره، و ذلک يطول شرحه هنا.

فأما توبة العالم فأن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة و الاعتراف بجنايته دائماً، و اعتقاد الندم على ما مضى و الخوف على ما بقى من عمره، و لايستصغر ذنوبه فتحمله ذلک إلى الكسل، و يديم البكاء و الأسف على ما فاته من طاعة اللّه، و يحبس نفسه عن الشهوات، و يستغيث إلى اللّه ليحفظه على وفاء توبته، و يعصمه من العود إلى ما سلف، و يروض نفسه فی ميدان الجهاد و العباد، و يقضی الفوائت من الفرائض، و يرد المظالم، و يعتزل قرناء السوء، و يسهر ليله و يظمأ نهاره، و يتفكر دائماً فی عاقبته، و يستعين باللّه سائلاً منه الاستقامة فی سرائه و ضرائه، و يثبت عند المحن و البلاء کی لايسقط عن درجة التوابين، فان ذلک طهارة من ذنوبه و زيادة فی عمله و رفعة فی درجاته، قال اللّه عزّوجلّ: [فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ] {العنكبوت:٣}.

بركات قبول التّوبة

إذا كانت التّوبة توبةً حقيقيةً و واقعيةً و نابعةً من الأعماق، فلابدّ من أن تقع مورد القَبول من قبل اللّه تعالى، العَفوّ الغَفور، و ستنشر خيرها بركاتها على صاحبها فی حركة الحياة، و تُغطّی على ما صدر منه من معاصی، أدّت به إلى السّقوط فی منحدر الضّلال و الزّيغ.

مثل هذا الإنسان، يعيش أجواء الحَذر الدّائم من مجالس السّوء و العصيان، و من كلٍّ عوامل الذّنب و الوساوس، و التّداعيات الاخرى، الّتی توقعه فی و حلّ المعصية مرّةً اخرى.

و يعيش حالة الخجل و النّدم، و يدأب بإستمرار لتحصيل رضا اللّه تعالى، و جبران ما فاته من الطّاعات.

هذه هى العلاقات الفارقة لهم، عن المتظاهرين والمرائين.

إنّ بركات و فوائد التّوبة جمّةٌ لاتُحصى، و قد أشارت إليها الرّوايات والآيات العديدة، و منها:

١. تمحو و تُفنى الذّنوب، كما ورد فى ذيل الآية: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا] ورد [عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ] {التّحريم:٨}

٢. تمنح التّائب بركات الأرض و السّماء، كما ورد فى سورة نوح(ع): [فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا] {نوح:١٠-١٢}

٣. تبدل التّوبة السّيئات حسنات، كما ورد فى سورة الفرقان: [إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا] {الفرقان:٧٠}

٤. يتعامل اللّه مع هذا الإنسان، من موقع السّتر على الذّنوب، و ينسى الملائكة الكاتبين ذنبه، و يأمر أعضاء بدنه بالستر عليه يوم القيامة، و كتمان أمره، فقد ورد فى الحديث عن الإمام الصادق(ع) أنّه قال: «إِذا تابَ العَبْدُ تَوبَةً نَصُوحاً أَحَبَّهُ اللَّهُ وَسَتَرَ عَلَيهِ فِي الدُّنيا وَالآخِرَة»، فَقُلْتُ: وَكَيفَ يَسْتُرُ؟ قَالَ: «يُنْسِي مَلَكَيهِ ما كَتَبَا عَلَيهِ مِنَ الذُّنوبِ، وَ يُوحِي إِلَي جَوَارِحِهِ: اكْتُمِي عَلَيهِ ذُنُوبَهُ، وَيُوحِي إِلي بِقاعِ الأَرْضِ: اكْتُمِي ما يَعْمَلُ عَلَيكَ مِنَ الذُّنوبِ، فَيَلْقَى اللَّهَ حِينَ يَلْقَاهُ وَلَيسَ عَلَيهِ شَيءٌ يَشْهَدُ عَلَيهِ بِشَيءٍ مِنَ الذُّنوبِ».

٥. التّائب الحقيقى، يُحبّه اللّه تعالى، لدرجةٍ أن ورد فى الحديث: «إِنّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أعطَى التّائِبينَ ثَلاثَ خِصالٍ، لَو أعطى خِصْلَةً مِنْها جَمِيعَ أَهْلِ السَّمواتِ والأَرضَ لَنَجَوا بِها». و بعدها يشير إلى الآية الشريفة: [إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ] {البقرة:٢٢٢} و قال: «مَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ لَمْ يُعَذِّبْهُ».

الخلاصة

١. العباد فی التوبة علی اربعة طبقات: الطبقة الأولی أن یتوب العاصی و یستقیم إلی آخر عمره، فیتدارک ما فرط من أمره و لایحدث نفسه بالعود إلی ذنوبه، الا الزلات التی لاینفک البشر عنها فی العادة، و هی التوبة النصوح. الطبقة الثانیة تائب سلک طریق الاستقامة فی أمهات الطاعات و کبائر الفواحش کلها، الا انه لیس ینفک عن ذنوب تعتریه لا عن عمد و تجرید قصد و لکن یبتلی بها فی مجاری أحواله، من غیر ان یقدم عزماً علی الاقدام علیها. الطبقة الثالثة ان یتوب و یستمر علی الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته فی بعض الذنوب فیقدم علیها عن قصد و صدق شهوة بعجزه عن قهر الشهوة. الطبعة الرابعة أن یتوب و یستقیم مدة ثم یعود إلی مقارفة الذنب من غیر أن یحدث نفسه بالتوبة و من غیر أن یتأسف علی فعله، بل ینهمک انهماک الغافل فی اتباع الشهوات، فهذا أقبح حال التائبین و أمر فی مشیئة اللّه.

٢. إذا کانت التّوبة توبةً حقیقیةً و واقعیةً و نابعةً من الأعماق، فلابدّ لها برکات و فوائد نشیر الیها: ١. تمحو و تُفنی الذّنوب، ٢. تمنح التّائب برکات الأرض و السّماء، ٣. تبدل التّوبة السّیئات حسنات، ۴. یتعامل اللّه مع هذا الإنسان، من موقع السّتر علی الذّنوب، و ینسی الملائکة الکاتبین ذنبه، ۵. التّائب الحقیقی، یُحبّه اللّه تعالی.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۲۱

الأخلاق الفرديّة

الاستاذ: مهدی سازندگی

بکالوریوس

تمهيد

هل أنّ المسائل الأخلاقيّة تتشكل من خلال علاقة النّاس بالآخرين، بحيث أنّ الإنسان إذا ما عاش وحيداً فريداً لايكون لديه مفهوم حول الأخلاق، وأنّ بعض المفاهيم الأخلاقيّة لها موارد فى سلوك الإنسان حتى لوعاش لِوَحده، بالرّغم من أنّ أعظم المسائل الأخلاقيّة، تتجلى أكثر فى عمليّة علاقة الأشخاص مع بعضهم البعض؟

المحتوي العلمى

دور الأخلاق فى الفرد

يرى الإسلام قيمة المرء بأخلاقه وسجاياه الحميدة، فبالأخلاق تضمن سعادة الفرد والمجتمع، وتقوم الأمم وتنشأ الحضارات.

يقول أحد العلماء: «لو طلب منى بيان فلسفة الدين الإسلامى فى كلمتين، لقلت «إقامة الأخلاق» فهناك الكثير من الآيات والروايات التى تؤكد على أن من الأهداف المهمة لبعث الأنبياء هداية الناس وتهذيب أخلاقهم. يقول النبى الأكرم(ص) «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وقد كان رسول الله(ص) الأسوة والقدوة فى الأخلاق، وكان قرآناً فى حياته اليومية بكل تفاصيلها، إذ يكفى من تعاليمه(ص) فى بيان أهمية الأخلاق قوله: «أحسن الناس إيماناً أحسنهم خلقاً».

دور الاخلاق فى المجتمع

لايخفى ما للأخلاق من أهمية بالغة فى سبيل خلق مجتمع سليم معافى، ولعل خير من يدرک تلک الأهمية القصوى المجتمعات التى تفتقر إلى الأخلاق، ورد عن الإمام الصادق(ع): «البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان فى الأعمار».

وقد أشار القرآن الكريم فى أكثر من موضع إلى انحطاط الأمم وهلاكها بسبب انعدام الأخـلاق فيهـا، حيث كان هلاک قوم نوح، لأن المفاسد الأخلاقية دخلت حتى فى العوائل والبيوت، كما حكم على قـوم لوط بالفناء والعذاب لانحرافهم عن الأخلاق فى العلاقات الجنسية، وإنما هلک أهل مدين لخيـانتهم فـى المعاملات وعدم وفائهم بالمكيال والميزان، ولم تهلک عاد إلاّ لأنها تبعت أمر كل جبار عنيـد مـن أراذل العباد وشرار الخلق.

فالمجتمع الذى يفقد القيم الأخلاقية ومبادئ العفاف والفضيلة سيكون مصيره كما صوره أميرالمؤمنين على(ع): «فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لايعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمل فيصـد عنه، وذلک ميت الأحياء».

وقد قسم علماء الأخلاق فى الإسلام من خلال الروايات مباحث الأخلاق إلى قسمين:

١. محاسن الأخلاق:

والغرض منها تقويم العلائق الاجتماعية وتحسينها، وتفعيل الجهود تجاه المصلحة العامة، وتوطيد إرادة الخير لعامة الناس، وإقامة العدل فى المجتمع.

٢. مكارم الأخلاق:

ويشتمل على بحوث فى التوازن الإنسانى الذى يعبر عن عظمة الطبـع والتعـالى الروحـى، وقـد ورد: «شيعتنا المتقون المتخلقون بمكارم الأخلاق كى يغدوا من أفضل الناس.»

وعنه(ص): «عليكم بمكارم الأخلاق فإن الله عزوجل بعثنى بها».

وقد سئل الإمام الصادق(ع) عن مكارم الأخلاق فقال: «العفـو عمـن ظلمـک، و صـلة مـن قطعـک، وإعطاء من حرمک، وقول الحق ولو على نفسک».

وهناک روايات أخرى تبين أن مكارم الأخلاق تتجسد فى: التقوى والقناعة والصبر والشـكر والكـرم

والشجاعة والغيرة والإحسان والصدق وأداء الأمانة.

تتناول المباحث الأخلاقية (الفرد) فتتحدث عن الأسس والضوابط التى تعمل على تطهير الإنسان من الرذائل، وتحميله بالفضائل، ومراعاة القواعد التى تحفظ للفرد سلامته الجسدية والنفسية، وضبط الغرائز وتعديلها، كالاعتدال فى الأكل والشرب، والتحلى بالوفاء بالعهد والمحبة والإخلاص والتواضع وتجنب الغرور والعجب والأنانية.

وأيضاً تأخذ هذه المباحث (المجتمع) حيث تبحث فى مراعاة أحوال الآخرين، كالإحسان إلى الوالدين، وهداية الناس والدفاع عنهم، وتربية الأبناء، وكفالة اليتيم والإحسان إليه، والابتعاد عن الفحشاء وأكل الحرام، ودفع الصدقات والتعاون على الخير وإصلاح المجتمع.

وللتحلى بالأخلاق والفضائل ينبغى أن تنعقد على أساس النية التى هى قوام العمل عند الفرد والمجتمع على حد سواء، فقد ورد عن أميرالمؤمنين على(ع): «النية أساس العمل».

وعنه(ص): «لكل امرئ ما نوى».

فوائد الأخلاق

عند الإطلاع على تاريخ الشعوب والأمم والحضارات نجد أن للأخلاق الدور المهم فى وصولها إلى أعلى مراتب الحضارة والمدنية والازدهار، فمن فوائد الأخلاق ما يأتى من عمق ترابطها بالإيمان: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً». وعن الإمام الصادق(ع): «إن سوء الخلق ليفسد الإيمان كما يفسد الخل والعسل».

كما إن هنالك روايات أخرى تدل على أن محاسن الأخلاق هى سبب يربط بين الخالق وعباده. فقد ورد عن الإمام على(ع) «إن الله عزوجل، جعل محاسن الأخلاق وسيلة بينه وبين عباده».

وفى الأخلاق العزة والكرامة لمن يتحلى بها، فما أكثر الذين رفعتهم أخلاقهم الطيبة فى أوساط

مجتمعهم ولم يكن لهم مال أو علم أو جاه، وما أكثر الذى أخزاهم سوء أخلاقهم، وقد ورد فى الحديث: «رب عزيز أذله خلقه، ورب ذليل أعزّه خلقه».

فالأخلاق الحميدة توجب تعالى الروح عن صغائر الأمور وتوافهها، وسوء الأعمال وخبيثها مما تجعل لصاحبه الحضور الاجتماعى والإنسانى المميز، وقد ورد عنهم(ع): «من سعادة المرء حسن الخلق، ومن شقاوته سوء الخلق».

وعنه(ص): «لا يدخل الجنة احد إلاّ بحسن الخلق».

ومن هنا فالأخلاق هى الوسيلة الحقيقية والوحيدة لضمان التكامل المنشود للفرد والمجتمع وأمنهما، فما أكثر الجرائم والانتهاكات والأفعال الفظيعة التى تزول فى مجتمع تحكمه الأخلاق وتسوده الفضيلة.

يقول الإمام الصادق(ع): «الخلق الحسن، جمال فى الدنيا ونزهة فى الآخرة، وبه كمال الدين، والقربة إلى الله تعالى».

وعنه(ع): «إن الخلق الحسن يذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجمد، وأن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

وعنه(ص): «ما من شيء أثقل فى الميزان من حسن الخلق».

المسألة الّتى يتوجب ذكرها هُنا هى: هل أنّ المسائل الأخلاقيّة تتشكل من خلال علاقة النّاس بالآخرين، بحيث أنّ الإنسان إذا ما عاش وحيداً فريداً لايكون لديه مفهوم حول الأخلاق، أو أنّ بعض المفاهيم الأخلاقيّة لها موارد فى سلوك الإنسان حتى لو عاش لِوَحده، بالرّغم من أنّ أعظم المسائل الأخلاقيّة، تتجلى أكثر فى عمليّة علاقة الأشخاص مع بعضهم البعض، ولهذا يمكن تقسيم الأخلاق إلى قسمين: فرديّة و إجتماعيّة؟.

يعتقد البعض أنّ كلّ الاسس الأخلاقية، تعود إلى العلاقات الإجتماعية مع الآخرين، فلو إنعدم المجتمع وعاش الإنسان وحيداً فريداً، أو أنّ كلّ إنسان عاش مستقلّاً عن الآخر، لايعرف عنه شيء، فلن

يكون هناک مفهوم للأخلاق أصلًا!، لأنّ الحسد و التّواضع والكِبَر، و حُسن الظّن، والعدالة والجَور والعفّـة والكَرم، كلّها من المسائل الّتی لايتجلی مفهومها إلّا بوجود المجتمع خاصّة، وتعامـل النّـاس مـع بعضـهم البعض، وبناءاً علی هذا، فإنّ الإنسان بدون المجتمع، يساوی الإنسان من دون أخلاق.

ولكن بعقيدتنا، وعلی الرّغم من الإعتراف، بأنّ كثيراً من الفضائل والرّذائل الأخلاقيّة، لها علاقة مباشرة بالحياة الإجتماعية، ولكنّها ليست بصورةٍ مطلقة، فكثيرٌ من الأخلاق لها جوانب فرديـة، و تصـدق علـی الإنسان الوحيد بصورةٍ خاصة، فمثلًا الصّبر والجزع، والشّجاعة والخوف، والمشـاجرة والكسـل، وأمثـال ذلک من الحالات والصّفات النّفسية التی تفرضها حالات الصّراع مع الطّبيعة، وكذلک الغفلة والشّعور تّجاه الخالق الكريم، و الشّكر والكفران لنعمه التی لاتُحصی، وما شابه تلک الامور، الّتی بحثها علماء الأخلاق فی كتبهم، وعدّوها من الفضائل أو الرّذائل، فكلّ تلـک الامـور يمكـن أن تـدخل فـی الإطـار الفـردی للسّلوک، وتصدق علی الإنسان المعزول عن المجتمع ومن هنا يتبيّن أنّ الأخلاق علی قسمين: «أخـلاقٌ فرديّةٌ» و «أخلاقٌ إجتماعيّةٌ». و من المعلوم أنّ الأخلاق الإجتماعيّة، التی لهـا الثّقـل الأكبـر فـی علـم الأخلاق، وصياغة شخصيّة الإنسان: تدور حول هذا المحور، وإن كنّا لاننسی أيضاً أنّ الأخـلاق الفرديّـة لها وزنها، و وضعها الخاص بها.[1]

ولاشکَّ أنّ هذا التّقسيم، لايقلّل من قيمة المسائل الأخلاقيّة، ولكنّه يُقسّم المباحـث الأخلاقيّـة إلـی درجاتٍ من حيث الأهميّة، ولا داعی لإتلاف الوقت فی معرفـة وتمييـز الأخـلاق، هـل أنّهـا فرديـة أم إجتماعية، وما أشرنا إليه آنفاً، يكفی للإحاطة بمعرفةٍ إجماليّةٍ حول هذا الموضوع.

ولا يمكن انكار أنّ الأخلاق الفردية، لها تأثيرها غير المباشر فی القضايا الإجتماعية أيضاً.

---

۱ ـ «زندگی در پرتو أخلاق» ترجمۀ «الحياۀ علی ضوء الاخلاق»

الخلاصة

١. يرى الإسلام قيمة المرء بأخلاقه وسجاياه الحميدة، فبالأخلاق تضمن سعادة الفرد والمجتمع، وتقوم الأمم وتنشأ الحضارات.

٢. قد أشار القرآن الكريم فى أكثر من موضع إلى انحطاط الأمم وهلاكها بسبب انعدام الأخلاق فيها.

٣. قسم علماء الأخلاق، مباحث الأخلاق إلى قسمين: ١. محاسن الأخلاق، ٢. مكارم الأخلاق.

۴. تتناول المباحث الأخلاقية الفرد تتحدث عن الأسس والضوابط التى تعمل على تطهير الإنسان من الرذائل، وتحميله بالفضائل، ومراعاة القواعد التى تحفظ للفرد سلامته الجسدية والنفسية، وضبط الغرائز وتعديلها.

۵. تتناول المباحث الأخلاقية المجتمع تبحث فى مراعاة أحوال الآخرين، كالإحسان إلى الوالدين، وهداية الناس والدفاع عنهم، وتربية الأبناء، وكفالة اليتيم والإحسان إليه، والابتعاد عن الفحشاء وأكل الحرام، ودفع الصدقات والتعاون على الخير وإصلاح المجتمع.

۶. الأخلاق هى الوسيلة الحقيقية والوحيدة لضمان التكامل المنشود للفرد والمجتمع وأمنهما.

٧. لايمكن انكار أنّ الأخلاق الفردية، لها تأثيرها غير المباشر فى القضايا الإجتماعية.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۲۲

الهجرة من النفس إلي الله و رسوله

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

هناک أشخاص تحرکوا وخرجوا من حفرة النفس هذه، وهاجروا [ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله] فأحد الاحتمالات فيها هو أن هذه الهجرة هى من النفس إلى الله و «البيت» هنا هو نفس الإنسان، فهناک طائفة خرجت وهاجرت عن هذا البيت الظلمانى، عن هذه النفسانية [مهاجراً إلى الله ورسوله] إلى أن وصلت إلى هناک حيث «أدرکه الموت» ووصلت إلى مرتبة لم يعد لها فيها شيء من نفسها، أى موت مطلق، وأجرهم أيضاً «على الله» ولم تعد الجنة مطروحة ولا التنعمات مطروحة، فقط الله، ذاک الذى خرج من بيت نفسانيته، وتحرک وهاجر إلى «الله» والى «رسوله» والذى هو إلى الله أيضاً «ثم يدرکه الموت» وبعد هذه الهجرة يصل إلى مرتبة حيث «أدرکه الموت» فحينئذ لايعد له من نفسه شيء، کل ما هو موجود منه، يشاهده هو. وفى هذه الهجرة أجره أيضاً على الله.

المحتوي العلمى

الإنسان موضوع علم الأنبياء

إذا کان لکل علم موضوع، فإن موضوع علم جميع الأنبياء هو الإنسان. ولو کان لکل دولة برنامج، فيمکن القول إن برنامج الرسول الأکرم(ص) هو تلک السورة النازلة فى البداية، فهى برنامج رسول الله [بسم الله الرحمن الرحيم * اقرأ باسم ربک الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربک الأکرم * الذى علم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم]

فالإنسان هو موضوع بحث جميع الأنبياء، وموضوع تربيتهم، وموضوع علمهم. وإنهم جاؤوا لتربية الإنسان، وجاؤوا لنقل هذا الکائن الطبيعى من مرتبة الطبيعة إلى مرتبة عليا، مرتبة ما فوق الطبيعة وما

فوق الجبروت. وكل بحث الأنبياء منذ البداية هو الإنسان، فكل نبی بُعث إنما بعث من أجل الإنسان وتربيته، وتعيّن هذه الآية الشريفة البرنامج بحسب الاعتبار وبحسب الاحتمال؛ فهی تخاطب الرسول الأكرم بذاته، لكن خطاب القرآن عام فی أغلبه حتی لو كان للرسول [اقرأ باسم ربک] فهی تعين القراءة منذ بدايتها، وكيف يجب أن تكون، يجب أن تكون باسم الرب. فجميع القراءات وجميع الكلمات المفصولة عن اسم الرب تكون شيطانية. هناک جنبتان: جنبة رحمانية، وجنبة شيطانية. وعندما بدأت القراءة كانت باسم الرب. العلم باسم الرب، والقراءة باسم الرب، والنظر باسم الرب، والسماع باسم الرب، والقول باسم الرب، والدراسة باسم الرب، وكل شیء باسم الرب، وبدأ العالم باسم الرب.

أهمية تربية الإنسان

إن النظام الوحيد والمدرسة الوحيدة التی تهتم بالإنسان من قبل انعقاد نطفته وحتی النهاية ـ وطبعاً لانهاية له ـ هی مدارس الأنبياء، فلا تهتم أی مدرسة أخری أبداً بالمرأة التی يجب انتخابها للزواج منها، ولا بالرجل الذی ينبغی بالمرأة أن تتزوج منه، فهی لاتهتم بهذا ولاتبالی به، ولايوجد فی قوانينها أبداً كيفية انتخاب المرأة والرجل.

ولايوجد فی قوانينها ماذا يجب أن تفعل الأم فی أيام الحمل، ولا فی ايام الرضاعة، وما هی مسؤولية الأم عندما تحتضن طفلها، ومسؤولية الأب فی التربية عندما تكون تحت إشرافه. فالقوانين المادية والطبيعية وأنظمة غير الأنبياء لاتهتم بهذه الأمور أبداً، إنهم يقفون بوجه المفاسد فقط عندما يصبح الإنسان إنساناً وينزل إلی المجتمع، وليس أمام جميع المفاسد، بل تلک التی تخالف النظم، وإلاّ فإنهم لايبالون بالفسق والفجور، بل يدعمونها ولايهتمون بموضع تربية الإنسان وبنائه.

إنهم يعتقدون بأن فرق الإنسان عن الحيوان بمقدار ما هو متطور عنه فی الطبيعة، فلايستطيع الحيوان أن يصنع طائرة، بينما يتمكن الإنسان من ذلک؛ ولايتمكن الحيوان أن يصبح طبيباً، بينما يتمكن الإنسان

من ذلک.

إصلاح العالم فی ظل تربية الإنسان

لقد بُعث الأنبياء من قبل الله تبارک وتعالی لتربية الناس وبناء الإنسان. وتسعی جميع کتب الأنبياء ــ وخاصة القرآن الکريم ــ من أجل تربية هذا الإنسان، لأنه بتربية الإنسان يتم إصلاح العالم. وإن مضار الإنسان الذی لم تتم تربيته بالمجتمعات لاتساويها مضار شيطان أو حيوان أو کائن آخر، وإن منافع الإنسان المتربی للمجتمعات لاتضاهيها أية منفعة لملک أو کائن مفيد آخر.

فأساس العالم يقوم علی تربية الإنسان، وإن الإنسان هو عصارة جميع الکائنات وخلاصة لتمام العالم. وجاء الأنبياء من أجل تحويل هذه العصارة من القوة إلی الفعل حتی يصبح الإنسان موجوداً إلهياً، حيث إن هذا الموجود الإلهی فيه جميع صفات الله تعالی ومحل تجلی النور المقدس لله تعالی.

الإنسان فی مسير الانحطاط

إن الإنسان کما أن له فی هذه الدنيا صورة مُلکية دنيوية، خلقها الله تبارک وتعالی فی کمال الحسن والجمال والترکيب البديع، والمتحيرة إزاءها عقول جميع الفلاسفة والعظماء، والذی لم يستطع علم معرفة الأعضاء والتشريح حتی الآن أن يتعرف حاله بصورة صحيحة، وقد ميّزه الله تعالی عن جميع المخلوقات بحسن التقويم وجودة وجمال المنظر، کذلک فإن له ــ أی للإنسان ــ صورة وهيئة وشکلاً ملکوتياً غيبياً، وهذه الصورة تابعة لملکات النفس والخُلق الباطن.

وفی عالم ما بعد الموت ــ سواء فی البرزخ أو القيامة ــ إذا کان خُلق الإنسان فی الباطن والملکة والسريرة إنسانية، تکون الصورة الملکوتية له صورة إنسانية أيضاً؛ وأما إذا لم تکن ملکاته ملکات إنسانية، فصورته ــ فی عالم ما بعد الموت ــ تکون غير إنسانية أيضاً، وهی تابعة لتلک السيرة والملکة. فمثلاً إذا غلبت علی باطنه ملکة الشهوة والبهيمية، وأصبح حکم مملکة الباطن حکم البهيمة، کانت صورة الإنسان

الملكوتية على صورة إحدى البهائم التى تتلاءم وذلک الخلق؛ وإذا غلبت على باطنه وسريرته ملكة الغضب والسبعية، وكان حكم مملكة الباطن والسريرة حكم سبع، كانت صورته الغيبية الملكوتية صورة أحد السباع والبهائم. وإذا أصبح الوهم والشيطنة هما الملكة، وأصبحت للباطن والسريرة ملكات شيطانية كالخداع والتزوير والنميمة والغيبة، تكون صورته الملكوتية صورة أحد الشياطين بما يتناسب وتلک.

ومن الممكن أحياناً أن تتركب الصورة الملكوتية من ملكتين أو عدة ملكات، وفى هذه الحالة لاتكون على صورة أى من الحيوانات، بل تتشكل له صورة غريبة بحيث أن هذه الصورة بهيئتها المرعبة المدهشة والسيئة المخيفة لن يكون لها مثيل فى هذا العالم.

نقل عن رسول الله(ص) أن بعض الناس يحشرون يوم القيامة على صورة تحسن عندها صور القردة، بل وقد تكون لشخص واحد عدة صور فى ذلک العالم، لأن ذلک العالم ليس كهذا العالم، حيث لايمكن لأى شيء أن يتقبل أكثر من صورة واحدة له، وهذا الأمر يطابق البرهان أيضاً وثابت فى محله.

على الانسان أن يحرز الاستقامة الباطنية كى يكون مستقيم القامة يوم القيامة. يجب أن تكون روحه روحاً إنسانية كى يكون صورته فى عالم البرزخ والقيامة صورة إنسانية.

الخلاصة

١. إن موضوع علم جميع الأنبياء هو الإنسان و هو موضوع تربيتهم، وموضوع علمهم.

٢. لقد بُعث الأنبياء من قبل الله تبارک وتعالى لتربية الناس وبناء الإنسان. لأنه بتربية الإنسان يتم إصلاح العالم.فأساس العالم يقوم على تربية الإنسان، وإن الإنسان هو عصارة جميع الكائنات وخلاصة لتمام العالم.

٣. إن للإنسان فى هذه الدنيا صورة مُلكية دنيوية، وفى عالم ما بعد الموت، إذا كان خُلقه فى الباطن والملكة والسريرة إنسانية، تكون الصورة الملكوتية له صورة إنسانية أيضاً. وأما إذا لم تكن ملكاته ملكات إنسانية، فصورته فى عالم ما بعد الموت تكون غير إنسانية أيضاً.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۲۳

العوامل و الموانع التزكية

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

طريق الكمال ونيل المقامات العاليه ليس سهلاً بسيطاً، بل هو امر مهم وصعب جداً ويوجد موانع لهذا الطريق، يجب على الانسان المزيد من الاجتهاد لازالتها، والا فلن يصل الى مقصده.

يمكن أن يعد التعلقات الدنيويه، اتباع هوى النفس، الامتلاء، الكلام غير الضروري، حب الذات و ضعف الاراده، من موانع التزكية. و يجب على الانسان إن يخرج من هذه التعلقات من قلبه حتى تكون هجرته وحركته نحو المقامات العليا ممكنة. اهواء النفس تسحب القلب نحو هذا الجانب ولاتتركه يخلد بربه ويانس به.

المحتوي العلمی

موانع التزكية

الأنانية من اهمّ موانع التزكية

جميع الاختلافات القائمة بين البشر هی بسبب عدم التزكية، وغاية البعثة أن تزكی الناس حتى يتعلموا بواسطة التزكية الحكمة، ويتعلموا القرآن والكتاب. ولايحدث الطغيان فيما لو تمت التزكية. إن من يزكی نفسه لايرى نفسه فانياً أبداً [إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى] فعندما يرى الإنسان نفسه، ويرى لنفسه مقاماً، ويرى لنفسه عظمة، فإن هذه الأنانية ورؤية النفس تكون سبباً للطغيان.

وإن أساس كل هذا الاختلاف الموجود بين البشر، والاختلاف الحاصل بينهم حول الدنيا يعود إلى الطغيان الموجود فی النفوس. وهذه مصيبة مبتلی بها الإنسان، مبتلی بنفسه وبأهوائه النفسانية.

إذا تزكی الإنسان وتربّت نفسه، فسوف تزول هذه الاختلافات.

أنانية أساس الحروب

جميع هذه المصائب التى تحل بالإنسانية ناشئة من هذه النقطة، من أنانية الإنسان، وإن جميع الحروب فى هذا العالم هى من هذه الأنانية؛ لاتوجد حرب أو نزاع بين المؤمنين، واذا ما نشبت حرب بين اثنين فليعلما أنهما ليسا بمؤمنين، اذ لاحرب بين المؤمنين.

عندما لايكون هناک إيمان، ويكون توجه الإنسان إلى النفس، ويريد كل شيء لنفسه، من هنا يقع النزاع؛ أنا أريد هذه الأريكة لنفسي، وأنتم تريدونها لأنفسكم، فيقع التعارض؛ أنا أريد هذا البساط لى، وأنتم تريدونه لكم؛ أنا أريد أن تكون هذه الرئاسة الوهمية لى، وأنتم تريدونها لكم؛ وحيث لايمكن الجمع، ينشب النزاع.

هذا يريد هذه الدولة له، والثانى يريدها لنفسه، فتقع الحرب. إن جميع هذه الحروب فى العالم هى حروب بين الأنانيات، لأن الإنسان يحارب بأنانيته، والحروب هى حروب الأنانيات، وهى معدومة بين الأولياء. فلاحرب أيضاً بين الأولياء، فلو اجتمع الأولياء فى مكان واحد لما نشب بينهم أى نزاع، ولا ظهر أى خلاف، لأن كل شيء هو لله، فلا مكان هنا لـ «الأنا» حتى يجر هذا إلى طرفه، وذاک إلى الطرف الآخر، فيحدث الاختلافات وينشب النزاع؛ فجميعهم لمبدأ واحد، لجهة واحدة.

اسباب التزكية

الايمان من اهمّ اسباب التزكية

الإيمان يعنى أن تعى قلوبكم وتصدق تلک الأمور التى أدركتها عقولكم. وهذا يحتاج إلى المجاهدة حتى تفهم قلوبكم أن العالم كلّه محضر لله، فنحن الآن فى محضر الله، ولو أدرک قلبنا هذا المعنى بأننا الآن فى محضر الله، هذا المجلس محضر الله، ولو وجد فى قلب الإنسان هذا الأمر، فإنه سيبتعد عن جميع المعاصى، إذ إن سبب جميع المعاصى أن الإنسان لم يجد هذا الشىء. يوجد برهان عليه أيضاً، وإن

البرهان العقلی قائم أیضاً علی أن الله تبارک وتعالی حاضر فی کل مکان. فالبرهان موجود وجمیع الأنبیاء قالوا بذلک أیضاً [وهو معکم أینما کنتم] فهو معنا، وأینما نکون یکون معنا، والقرآن یقول ذلک وسمعناه منه، وثبت ذلک من خلال البرهان، لکنه لم یصل إلی قلوبنا، حتی إذا مـا أردنـا أن نغتـاب، أو نـتّهم، أو نعمل قبیحاً نری أننا فی محضر الله، ولابد أن نحترم هذا المحضر.

عندما یکون الإنسان فی محضر عظیم یعتقد بعظمته فإنه یحترم ذلک المحضر. إذا کان یوجد عنـدکم شخص وتعتقدون أنه عظیم فإنکم لاترتکبون أیة مخالفة أمامه فضـلاً عـن مخالفتـه هـو فـی محضـره. لایرتکب الإنسان أی عمل سیّئ مطلقاً فی محضر شخص یدرک بأنه عظیم ومحترم فضلاً عن ارتکاب ما یخالف احترام هذا المحترم وفی محضره؛ فالمحضر، هو محضر الله تبارک وتعالی، العـالم محضـره، کـل العالم محضر، والمعصیة هی مخالفة له، لمن نحن فی محضره.

الجهاد الأکبر مقدم علی أنواع الجهاد

جاء الإسلام أساساً للبناء، ویهتم الإسلام ببناء الإنسان، الجهاد من أجل البناء «بناء الإنسان لنفسـه» مقدم علی جمیع أنواع الجهاد. وهذا الجهاد هو الذی عبّر عنه الرسول الأکرم بالجهاد الأکبر. فهـو جهـاد عظیم وصعب، وجمیع الفضائل تتبع ذلک الجهاد.

الجهاد الأکبر هو جهاد الإنسان لنفسه الطاغوتیة. ویجب علیکم أیها الشبان أن تبدؤوا مـن الآن بهـذا الجهاد، ولا تسمحوا لضیاع قوی الشباب منکم؛ فکلما زالت قوی الشباب کلمـا زادت جـذور الأخـلاق الفاسدة لدی الإنسان، ویصعب الجهاد أکثر. یستطیع الشاب أن ینتصر بسرعة فی هذا الجهـاد، ولایـتمکن الکهل بهذه السرعة. لاتؤخروا إصلاح حالکم إلی مرحلة الکهولة. فإحدی مکائد النفس الإنسـانیة ضـد الإنسان ذاتـه، ویوحی بها الشیطان للإنسان، هی أن یؤخر إصلاح نفسه إلی آخر عمره، فیوسوس لـه أن استفد الآن من شبابک وتُب فی آخر عمرک.

إن هذا مخطط شيطانى تتعلمه النفس الإنسانية من الشيطان الكبير. يتمكن الإنسان من إصلاح نفسه ما دامت قوى الشباب موجودة، والروح الشابة اللطيفة موجودة، وجذور الإفساد قليلة؛ أما إذا استفحلت جذور الفساد فى الإنسان، فإن المفاسد ستتحول إلى ملكة عنده، ولايمكنه الإصلاح.

إنكم أيها الشبان الذين هيّأتم أنفسكم من أجل الجهاد فى سبيل الإعمار اوطانكم، إن هذا جهاد، ولكن الجهاد الأكبر هو الجهاد فى طريق بناء أنفسكم حتى تنتفع بكم بلادكم فيما بعد وتخدموها. ابدؤوا من الآن ببناء أفراد يمكنهم إنقاذ دولة فى المستقبل. ولو بنيتم أنفسكم وعمقتم جذور الفضائل الإنسانية فى نفوسكم عندها، ستنتصرون فى جميع المراحل، ويمكنكم إنقاذ بلادكم. إن الذين جرّوا بلادنا إلى الضياع كان بسبب أن بناءهم كان فاسداً، وكانت عندهم أخلاق وعقائد فاسدة، وممارسات فاسدة. ولو أنهم كانوا قد بنوا أنفسهم لما خانوا الشعب والإسلام.

التقوى مقدمة السلوك إلى الله

اعلم أيها العزيز أنه مثلما يكون لهذا الجسد صحة ومرض، وعلاج ومعالج، فإن للنفس الإنسانية صحّة ومرضاً، وسقماً وسلامة، وعلاجاً ومعالجاً. إن صحة النفس وسلامتها هى الاعتدال فى طريق الإنسانية، ومرضها وسقمها هو الاعوجاج والانحراف عن طريق الإنسانية. وإن الأمراض النفسية أكثر أهمية بآلاف المرات من الأمراض الجسدية، وذلك لأن هذه الأمراض إنما تصل إلى غايتها بحلول الموت؛ فما أن يحل الموت، وتفارق الروح البدن حتى ترتفع عنه جميع الأمراض الجسديّة والاختلالات الماديّة، ولايبقى له أيّ من الآلام والأسقام البدنية، ولكنه إذا كان ذا أمراض روحية وأسقام نفسية ـ لاسمح الله ـ فإنه ما أن تفارق الروح البدن وتتوجه إلى ملكوتها حتى تظهر آلامها وأسقامها.

إن مثل التوجه إلى الدنيا والتعلق بها كمثل المخدر الذى يسلب الإنسان شعوره بنفسه. وسلب ارتباط الروح بدنيا البدن يُرجع إليها الشعور بذاتها، وحينئذ تهجم عليه جميع تلك الآلام والأسقام والأمراض

التى كانت فى باطن ذاته، وتظهر جميعها وقد كانت مختفية إلى ذلک الوقت مثل النار تحت الرماد. وتلک الآلام والأسقام إما أن تكون ملازمة ولا تزول عنه أبداً، أو إذا كان يمكن زوالها فإنها ترتفع بعد آلاف من السنين تحت الضغط والعناء والنار والاحتراق «آخر الدواء الكىّ». قال تعالى [يومَ يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم].

ومنزلة الأنبياء هى منزلة الأطباء المشفقين، الذين جلبوا للمرض وصفات متعددة بحسب حالهم، وهدوهم إلى طريق الهداية بكمال الشفقة والرغبة فى صحة المرضى «نحن الأطباء تلاميذ الحق» وإن الأعمال الروحية والقلبية والظاهرية والبدنية هى بمثابة الدواء للمرض، كما ان التقوى ـ فى كل مرتبة من مراتبها ـ بمثابة الوقاية من الأمور تضاعف الأمراض. ومن دون الحمية لايمكن أن ينفع العلاج، ولا أن يتبدل المرض إلى صحة.

فالإنسان الراغب فى صحة النفس، والمترفق بحاله، إذا تنبه أن وسيلة الخلاص من العذاب تنحصر فى أمرين: الأول هو الإتيان بالمصحات والمصِحات النفسانية، والآخر هو اجتباب المضرات وما يؤلم النفس.

ومن المعلوم ان المحرمات هى مصعّفات للمفاسد النفسانية أكثر من أى شىء آخر، ولهذا كانت محرمة، كما ان الواجبات هى من أهم المصلحات، ولهذا كانت واجبة. وهاتان المرحلتان أفضل من أى شىء، ومقدمة على كل مقصد، ومقدمة للتطور كما ان الواجبات هى من أكثر الأشياء إصلاحاً للنفس، وهى الطريق الوحيد إلى المقامات والمدارج الإنسانية، بحيث ان من يواظب عليهما يكون من الناجين السعداء، وأهمهما التقوى من المحرمات. وإن أهل السلوک يحسبون هذه المرحلة مقدمة على المرحلة الأولى.

الخلاصة

١. غاية البعثة أن تزكى الناس حتى يتعلموا بواسطة التزكية الحكمة، ويتعلموا القرآن والكتاب. ولايحدث الطغيان فيما لو تمت التزكية. إن من يزكى نفسه لايرى نفسه فانياً أبداً [إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى] فعندما يرى الإنسان نفسه، ويرى لنفسه مقاماً، ويرى لنفسه عظمة، فإن هذه الأنانية ورؤية النفس تكون سبباً للطغيان.

٢. وإن أساس جميع الاختلافات الموجود بين البشر، والاختلاف الحاصل بينهم حول الدنيا يعود إلى الأنانية و الطغيان الموجود فى النفوس. و فى مقابلها الايمان من اهمّ اسباب التزكية.

٣. ان المحرمات هى مصعّفات للمفاسد النفسانية و ان الواجبات من أهم المصلحات، من يواظب عليهما يكون من الناجين السعداء، وأهمهما التقوى من المحرمات. وإن أهل السلوك يحسبون هذه المرحلة مقدمة على المرحلة الأولى.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٢٤

خطوات عملي للتزكية

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

لكلّ عمل منهاج وبرنامج، ولتزكية النفس منهاج وبرنامج. وإذا استطاع الإنسان أن يعرف سبل السلام فی الحياة، ومناهج الوصول الى أهدافه وتطلّعاته عبر التجارب والعلوم البشريّة، فانّ الوصول الـى تزكيـة النفس لايمكن إلاّ من خلال القرآن الكريم، وعبر أولئک الذين فسّروا القـرآن بـأقوالهم وأفعـالهم؛ إذ لا أحد يعلم كنه النفس البشريّة سوى خالقها وبارئها، ولايعلم مداخلها ومخارجهـا وثغراتهـا وسـبل نفـوذ الشيطان فيها إلاّ من خلقها، وهو الله سبحانه وتعالى.

المحتوي العلمی

جهاد النفس

إن أفضل علاج لدفع المفاسد الأخلاقية، هو ما ذكره علماء الأخلاق وأهل السلوک، وهو أن تأخذ كل واحدة من الملكات القبيحة التی تراها فی نفسک، وتنهض بعزم على مخالفة الـنفس إلـى مـدة، وتعمـل عكس ما تتطلبه منک تلک الملكة الرذيلة.

واطلب التوفيق من الله تعالى فی كل حال لإعانتک فی هذا الجهاد، ولاشک فی أن هذا الخلق القبـيح سيزول بعد فترة وجيزة، ويفرّ الشيطان وجنوده من هذا الخندق، وتحلّ محلهم الجنود الرحمانية.

فمثلاً من الأخلاق الذميمة التی تسبب هلاک الإنسان، وتوجب ضغطة القبر، وتعذّب الإنسان فی كـلا الدارين، سوء الخلق مع أهل الدار أو الجيران أو الزملاء فی العمل أو أهل السـوق والمحلـة، وهـو وليـد الغضب والشهوة. فإذا كان الإنسان المجاهد يسعى لمدة أنه عندما يعترضه أمر غير مرغـوب فيـه، حيـث تتوهج نار الغضب لتحرق الباطن، وتدعوه إلى الفحش والسيّئ من القول أن يعمل بخلاف النفس، ويتذكر سوء عاقبة هذا الخلق ونتيجته القبيحة، ويبدی بالمقابل الشـیء الحسـن، ويلعـن الشـيطان فـی البـاطن،

ويستعيذ بالله منه؛ إنى أتعهد بأنک لو قمت بذلک السلوک، وکررته عدة مرات، فإن الخلق السيّئ سيتغير کلياً، وسيحل الخلق الحسن فى باطن مملکتک، ولکنک إذا عملت وفق هوى النفس، فمن الممکن أن يبيدک فى هذا العالم نفسه، وأعوذ بالله تعالى من الغضب الذى يهلک الإنسان فى آن واحد فى کلا الدارين، فقد يؤدى ذلک الغضب ـ لاسمح الله ـ إلى قتل نفس. من الممکن أن يتجرأ الإنسان فى حالة الغضب على النواميس الإلهية، کما رأينا أن بعض الناس قد نطقوا بالارتداد، وأصبحوا من جراء الغضب مرتدّين. وقد قال الحکماء «إن السفينة التى تتعرض لأمواج البحر العاتية وهى بدون قبطان، لهى أقرب إلى النجاة من الإنسان وهو فى حالة الغضب».

أو إذا کنت من أهل الجدل والمراء فى المناقشات العلمية ـ کبعضنا نحن الطلبة المبتلين بهذه السريرة القبيحة ـ فاعمل فترة بخلاف النفس، فإذا دخلت فى نقاش مع أحد الأشخاص فى مجلس رسمى حيث يکون مشحوناً بالعلماء والعوام، ورأيت أنه يقول الحق فاعترف بخطئک وصدق قول المقابل، والمأمول أن تزول هذه الرذيلة فى زمن قصير.

المجاهدة والتلقين

اسع سعيک لکى توصل کلمة التوحيد ـ التى هى أعظم کلمة وأسمى جملة ـ من عقلک إلى قلبک، فنصيب العقل هو هذا الاعتقاد البرهانى الجازم، وثمرة البرهان هذه وأثرها ضعيف ضئيل جداً ما لم تصل إلى القلب بالمجاهدة والتلقين. ولعل أصحاب البرهان العقلى والاستدلال الفلسفى هم أکثر من غيرهم وقوعاً فى شباک إبليس والنفس الخبيثة (فخشبية هى قدم أصحاب الاستدلال). وهذه القدم والبرهانية العقلية تصبح روحانية إيمانية عندما تنتقل من أفق العقل إلى مقام القلب ويصدق القلب ما أثبته الاستدلال عقلياً.

التفكر شرط لمجاهدة النفس

اعلم أن أول شروط مجاهدة النفس والسير باتجاه الله تعالى، هو «التفكر» وقد وضعه بعض علماء الأخلاق فى البدايات، فى الدرجة الخامسة، وهذا ـ التصنيف ـ صحيح أيضاً فى محله.

والتفكر فى هذا المقام هو أن يفكر الإنسان بعض الوقت كل يوم وليلة ولو قليلاً فى أن مولاه الذى خلقه فى هذه الدنيا، وهيّأ له كل أسباب الدعة والراحة، ووهبه جسماً سليماً وقوى سالمة، لكل واحدة منها منافع تحيّر ألباب الجميع، ورعاه وهيّأ له كل هذه السعة وأسباب النعمة والرحمة. ومن جهة أخرى، أرسل جميع هؤلاء الأنبياء، وأنزل الكتب، وأرشد ودعا إلى الهدى... فما هو واجبنا تجاه هذا المولى مالک الملوک؟! فهل وجود جميع هذه النعم، هو فقط لأجل هذه الحياة الحيوانية وإشباع الشهوات التى نشترک فيها مع جميع الحيوانات، أو أن هناک هدفاً وغاية أخرى؟

هل للأنبياء الكرام، والأولياء العظام، والحكماء الكبار، وعلماء كل أمة ـ الذين يدعون الناس إلى حكم العقل والشرع، ويحذرونهم من الشهوات الحيوانية ومن هذه الدنيا البالية ـ عداء ضد الناس، أو أنهم كانوا مثلنا لايعلمون طريق صلاحنا نحن المساكين المنغمسين فى الشهوات؟!

إن الإنسان العاقل إذا فكّر للحظة واحدة، عرف أن الهدف من هذه النعم هو شىء آخر، وأن الغاية من هذه الخلقة عالم أسمى وأعظم، وأن هذه الحياة الحيوانية ليست هى المقصودة بالذات، وأن على الإنسان العاقل أن يفكر بنفسه، وأن يترحم على حاله ونفسه المسكينة؛ ويخاطبها: أيتها النفس الشقية التى قضيت سنوات الطويلة من عمرک فى الشهوات، ولم يكن نصيبک سوى الحسرة، ارحمى حالک قليلاً، واستحى من مالک الملوک، وسيرى قليلاً فى طريق الهدف الأساسى المؤدى إلى حياة الخلد والسعادة السرمدية، ولاتبيعى تلک السعادة الدائمية بشهوات ايام قليلة فانية، التى لاتتحصل أيضاً حتى مع الصعوبات المضنية الشاقة. فكّر قليلاً فى أحوال أهل الدنيا، من السابقين وحتى الآن، وتأمل متاعبهم وآلامهم كم هى أكبر وأكثر بالنسبة إلى هنائهم، فى نفس الوقت الذى لايوجد فيه هناء وراحة لكل شخص.

ذلک الذی هو فی صورة الإنسان، ولكنه من جنود الشيطان ومبعوثيه، والذی يدعوک إلی الشهوات، ويقول: يجب ضمان الحياة المادية، تأمل قليلاً فی حال نفس ذلک الإنسان واستنطقه، وانظر هل هو راض عن وضعه، أو أنه هو بنفسه مبتل، ويريد أن يبلی مسكيناً آخر؟!

وفی كل حال ادع ربک بعجز وتضرع أن يعرّفک وظائفک التی ينبغی أن تكون فيما بينک وبينه تعالی، والأمل أن يفتح لک هذا التفكير ــ والذی هو بقصد مجاهدة الشيطان والنفس الأمارة ــ طريقاً آخر، وتوفّق للترقی إلی منزل آخر من منازل المجاهدة.

التكرار والتمرين

إن الكتب التی جاءت لبناء الإنسان كالقرآن الكريم، والكتب التی كتبت فی الأخلاق وتستهدف بناء الإنسان وبناء المجتمع تكرر المواضيع حسب أهميتها. ويكثر التكرار فی القرآن الكريم، ويتساءل البعض لماذا هذا التكرار؟ فی حين أنه لازم. إن التلقين و التكرار هو من الأشياء المفيدة لبناء الإنسان. لو أراد الإنسان أن يبنی نفسه لوجب عليه أن يلقن نفسه تلک الأمور المرتبطة ببناء نفسه ويكررها. ويزداد تأثير تلک الأمور التی ينبغی أن تؤثر فی نفس الإنسان من خلال التلقين والتكرار. فسبب تكرار الأدعية، وتكرار الصلاة فی كل يوم عدة مرات ودائماً هو لكی يقول الإنسان ويسمع، ويقرأ بنفسه ويستمع تلک الآيات التی تبنيه مثل سورة الحمد المباركة والتی هی درس بناء للإنسان. يجب علی الإنسان أن يلقن نفسه ويكرر هذه الآيات ويستحضر نفسه لاستماعها.

عندما يقول الإنسان بنفسه مطلباً معيناً، فإن السامع يسمع مرة واحدة ويدخل إلی قلبه، لكن المتحدث ينقش المطلب فی قلبه أولاً، ثم يقول، ثم يسمعه، ثم يدخل إلی قلبه مرة أخری. فالتلقين من الأمور الضرورية.

تشجيع الناس وتكريمهم

إن الشيء الذي يحسن أن يكون في الإذاعة والتلفزيون والمطبوعات هو الذي له تأثير في البلاد؛ مثلاً لو كان أحد المزارعين موفّقاً في زراعته؛ لوجب عليكم أن تنشروا صورته في الصفحة الأولى بدلاً من صور مسؤولي البلاد، وتعرفوا الناس بما قام به. أو أن تنشروا صورة ذلک الموظف الجيد والطبيب الناجح الذي قام بعمل نافع، وتعرّفوا الناس بإنجازه، فهذا يؤدي إلى تشجيع الأطباء، ويحفّزهم للعمل. أو أن تنشروا صورة المكتشف وتشرحوا اكتشافه بالتفصيل، أو صورة الذي يمسک سارقاً، أو المزارع والفنان والجرّاح، ومع الأسف فإن أسماءهم وصورهم غير موجودة أبداً، مع أنهم يستحقون أن يطرحوا في الصحف. والخلاصة يجب تشجيع أولئک الذين يمارسون نشاطاً في هذه البلاد، إذ لهم حق على هذه الدولة، ولهم حق على الصحف والإذاعة والتلفزيون، بينما حقّنا قليل قياساً بأولئک.

دور الدعاء في التربية

هذه الأدعية تنقذ الإنسان من الظلمة، وسوف يصبح ـ عندما يخرج من هذه الظلمة ـ إنساناً يعمل ولكن لله؛ فيضرب بسيفه لله، ويقاتل لله، ويقوم لله. فالأدعية تمنع الإنسان مما يريده السادة. فهؤلاء تقتصر آمالهم هنا، وكل ما وراء هنا يعتبرونه من الذهنيات! لكنهم سيصلون إلى حيث يرون أن تلک كانت عينيات، وأن هذه كانت ذهنيات.

إن هذه الأدعية جميعها تعين الإنسان ليصبح إنساناً، وعندما يصبح الإنسان إنساناً فإنه يقوم بجميع تلک الأعمال، فيزرع أيضاً ولكن لله، ويحارب أيضاً.

الهدف التربوي للأنبياء

إن جميع العبادات وسيلة، وجميع الأدعية وسيلة، فكلها وسيلة لظهور لُباب الإنسان، وأن يصل ما هو بالقوة ولب الإنسان إلى الفعل، فيصبح إنساناً. يصبح الإنسان بالقوة إنساناً بالفعل، ويصبح الإنسان الطبيعي

إنساناً إلهياً بحيث كل شيء فيه يكون إلهياً، كل ما يشاهده هو الله. وجاء الأنبياء لهذا الغرض، كل هذه أيضاً وسيلة، لم يكن هدف الأنبياء تشكيل حكومة، لماذا يريدون الحكم؟ إنه موجود أيضاً، بَيد أن الأنبياء لم يُبعثوا لإدارة الدنيا؛ إذ للحيوانات دنيا تديرها أيضاً.

طبعاً إن موضوع بحث العدالة هو نفس موضوع بحث صفة الله تعالى، وإن الذين يملكون عيوناً يطرحون بحث العدالة أيضاً. وإن العدالة الاجتماعية بأيديهم أيضاً، ويقيمون الحكومة أيضاً، ولكن الحكومة العادلة. إلا أن الهدف هو غير ذلک، إن هذه الأمور كلها وسائل لوصول الإنسان إلى مرتبة أخرى، ولأجلها جاء الأنبياء.

القرآن والبعثة عاملان للتربية

إن أحد أهداف الكتاب والبعثة، أنه بعث رسولاً منكم يتلو عليكم القرآن والآيات الإلهية {ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة}؛ فقد تكون هذه غاية التلاوة، أي التلاوة من أجل التزكية، ومن أجل التعليم، من أجل التعليم العام؛ تعليم هذا الكتاب، وتعليم الحكمة والتى هى أيضاً من هذا الكتاب.

فالهدف من البعثة هو نزول الوحى ونزول القرآن، والهدف من تلاوة القرآن على البشر هو تحقيق التزكية وتصفية النفوس من هذه الظلمات الموجودة فيها، حتى تصبح الأذهان والأرواح بعد هذه التصفية مستعدة لفهم الكتاب والحكمة.

الخلاصة

١. إن أفضل علاج لدفع المفاسد الأخلاقية، هو التفكر و جهاد النفس والتلقين و التكرار و التمرين.

٢. إن جميع العبادات و الأدعية وسيلة لظهور لُباب الإنسان، وأن يصل ما هو بالقوة ولب الإنسان إلى الفعل، فيصبح إنساناً.

٣. فالهدف من البعثة هو نزول الوحى ونزول القرآن، والهدف من تلاوة القرآن على البشر هو تحقيق التزكية وتصفية النفوس.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۲۵

دور الأخلاق في الاسرة

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

إذا نظرنا بعين البصيرة لهذا العالم وتفكرنا، وجدنا كل الأشياء المادّية وسواها مسؤولةً، وما من شيء لاينوء بتكليف.

وعلى سبيل المثال أن «الالكترون» يجب أن يدور حول «البروتون» على وفق نظام معين، وسرعة قياسية.

وكذا الأرض ودورانها حول الشمس بكيفيّة وكمّية خاصّتين تتمان بنظام وسرعة معيّنين ثابتين مهمتها كما جاء فى إثبات ذلک لـ(١٦٠) نوع مسؤولية حركية.

الوضع فى عالم المجردات ايضاً، يعنى كل ملكٍ من الملائكة له تكليف ومسؤولية خاصة يتحملها هو لوحده وفى حركة العالم المادى أو العبادى تتجلى مسؤولية الخالق سبحانه وتعالى التى اختص بها سبحانه. ولو قدر أن يتخلى المولى عن بعض مسؤولياته ــ والعياذ بالله ــ لانجر الوجود إلى الفناء. وكذلک جبريل(ع) فى ليلة المعراج ومسألة العروج بالرسول الأكرم(ص) وصل بمكان لم يتمكن بعده من التقدم خطوة واحدة. حينها قال له الرسول الأكرم(ص) تقدم يا جبرائيل خطوة أخرى باتجاهى. ولكنه امتنع وقال(ع): ليس لى إلى ذلک من سبيل، ولو دنوت أنملةً لاحترقت.

المحتوي العلمى

الإنسان مختار فى تكاليفه

على هذا الأساس، فإن كل الذرات الكونية تتحمل مسؤولية خاصة، وبديهى أن الإنسان يتحمل مسؤولية عظمى على عاتقه لأنه يعتبر الغاية من عالم المخلوقات.

تختلف مسؤولية الإنسان عن مسؤوليات الموجودات من جماد ونبات وحيوان وأفلاک وغيرها، حتى

الموجودات المجردة من مثل الملائكة، فالإنسان يفعل فعله مختاراً، وسواه من المخلوقات مجبر على ذلک. وقد نص التنزيل الحكيم على اختيار الإنسان بقوله تعالى: [إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا] {الإنسان:٣}

يتحمل الإنسان نوعين من المسؤولية

١. المسؤولية العبادية: وهی المسؤولية التی لاتتعدی حدود الخالق والمخلوق لا غير. وإذا قصّر الإنسان فی إنجاز المهمات المكلف بها تجاه الخالق حينذاک سوف يعتبر خارجاً من محدودية العبودية.

٢. المسؤولية الفردية: وتقسم على قسمين:

أ. التكليف الذی يتعلق بجسم الإنسان الذی هو بُعده الحيوانی. ولما كان عليه أن يسمو إلى عالم الملكوت الرفيع على المادة كان لابد له من اتخاذ مواقف حاسمة إزاء جوارحه ابتغاء تطهيرها وتيسير الارتفاع بها.

ولو توانی عن ذلک لاضطرب سيره المعنوی فی مدارج الكمال، لذا وجب على الإنسان أن يكون حذراً من جسده وميوله الهابطة.

ب. التكليف الإنسانی المتعلق بالبعد المعنوی والروحی له. وهو تكليف خطير لأنه متعلق بروح الإنسان الذی هو جوهر ومعنی إنسانيته فإذا لم يهذب الروح يزک بالعبادة الواعية والطاعة الحية والإخلاص المعطاء، فإنه يسقط فريسة لرغبات الجسد الهابطة التی تنحدر به فی مهاوی الشرور المظلمة، وينطبق عليه قوله تعالى: [إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ] {الأنفال:٢٢}

والظلمة والجناة وكل المفسدين فی الأرض نماذج لموت الروح وانحدارها من وهج الرفعة إلى دياجی الضعة.

٣. المسؤولية الاجتماعية: منشؤها الطبيعة الاجتماعية للإنسان التی تصبح صفة ملاصقة له وعلى

مرور الزمن. فعدم التفاعل مع المجتمع الإنسانی يعرقل عليه بلوغ المراحل الابتدائية للكمال. وقد تطـرق الإسلام إلی هذه المسؤولية، فأشار إليها علی لسان الرسول الأكرم(ص) قائلاً: «لا رهبانية فی الإسلام».[1]

ويمكن تقسيم المسؤوليات الاجتماعية علی قسمين:

أ. الوظائف التی ترتبط بالأسرة، وكيفية إدارتها.

ب. الوظائف العامة المرتبطة بالعلاقات البشرية ويتجلی القصور فی أدائها عند هبوط الروح أو فتورها. وإذا لم يتدارک الإنسان حاله يتعاظم عليه الأمر، وينحسر عن سلم الكمال.

الأخلاق فی الأسرة

الاسرة هی المؤسسة الاولی والاساسية من بين المؤسسات الاجتماعية المتعددة المسؤولة عن إعـداد الطفل للدخول فی الحياة الاجتماعية، ليكون عنصراً صالحاً فعّالاً فی إدامتها علی أساس الصلاح والخيـر والبناء الفعّال. والاسرة نقطة البدء التی تزاول انشاء وتنشئة العنصر الانِسانی، فهی نقطة البدء المؤثرة فی كلِّ مراحل الحياة ايجاباً وسلباً، ولهذا أبدی الاِسلام عناية خاصة بالاسرة منسجمة مـع الـدور المكلفـة بأدائه، فوضع القواعد الاساسية فی تنظيمها وضبط شؤونها، وتوزيع الاختصاصـات، وتحديـد الواجبـات المسؤولة عن أدائها، وخصوصاً تربية الطفل تربية صـالحة وتربيـة سـليمة متوازنـة فـی جميـع جوانـب الشخصية الفكرية والعاطفية والسلوكية. ودعی الاسلام إلی المحافظة علی كيان الاسرة وإبعاد أعضائها من عناصر التهديم والتدمير ومن كلِّ ما يؤدی إلی خلق البلبلة والاضطراب فی العلاقـات التـی تـؤدی إلـی ضياع الاطفال بتفتيت الكيان الذی يحميهم ويعدّهم للمستقبل الذی ينتظرهم. وجاءت تعليمـات الاِسـلام وإرشاداته لتخلق المحيط الصالح لنمو الطفل جسدياً وفكرياً وعاطفياً وسلوكياً، نمـوّاً سـليماً يطيـق مـن خلاله الطفل أو إنسان المستقبل مقاومة تقلبات الحياة والنهوض بأعبائها، ولهذا ابتدأ المنهج الاسلامی مع الطفل منذ المراحل الاولی للعلاقة الزوجية مروراً بالولادة والحضـانة ومرحلـة مـا قبـل البلـوغ وانتهـاءً

[1] ـ سفينة البحار ج١ ص٥٤٠.

بالاستقلالية الكاملة بعد الاعتماد على النفس.

و لذا تعد المسؤولية فى الأسرة من أكبر المسؤوليات، لما لها من أبعاد متشعبة يجب الانتباه إليها بدقة، وذلک بتحکيم الموازين الإلهية والسنة النبوية وسنة الأئمة الهداة(ع).

وفى صدر الإسلام نزلت آية تتحدث عن عذاب جهنم كانت السبب فى خروج عدة من الشباب إلى الصحارى تاركين الحياة خلفهم خوفاً من أن ينزلقوا فى متاهات يمكن أن تؤدى بهم إلى نار جهنم وعذابها. فقد أخذ أحدهم على نفسه أن لايضاجع زوجته بعد نزول هذه الآية المباركة، وأن لايحادث النساء ويتصل بهن مادام حياً، وعاهد آخر نفسه أن لايخالط الناس واباح لنفسه الخروج على السمؤوليات الاجتماعية بينما صمم الثالث على ان لايدخل جوفه طعاماً لذيذاً أبداً.

فذهبت زوجات هؤلاء الثلاثة إلى رسول الله(ص) وشرحن له أحوالهن الزوجية، فتأثر الرسول(ص) حال سماعه لهنّ وأسرع إلى المسجد وكان مغضباً حتى إنه لم يعبأ بوضع عباءته على كتفيه فقد كان أحد طرفيها يلامس الأرض، فيثير خلفه الغبار. وحين استقر به الأمر فى المسجد قال(ص): «أنا نبيّكم، ولى زوجة هى فى بيتى، أتناول الطعام واحفظ الجسد منى، اجتمع إلى الناس، وعلى صلة دائمة بهم. بعدها قال: فمن رغب عن سنتى فليس منى».[1]

كذلک أشار القرآن الكريم لمثل ذلک حين قال جل وعلا:

[وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] {النور:٣٢}

تعلمنا هذه الآية الشريفة كيف يجب أن نعمل حين الشعور بالفقر وأن لايكون الفقر طريقاً للابتعاد عن سنة رسول الله(ص) وبالخصوص الابتعاد عن الزواج وتشكيل الأسرة.

أجل، إن مسؤولية تشكيل الأسرة مسؤولية كبرى وخطيرة، لما تتميز به من خصوصية بشأن الزوجة

[1] ـ سنن النبى للعلامة الطباطبائى، ص ١٤٧، وبحار الأنوار، ج٢٢، ص١٢٤ مع اختلاف قليل.

وتربية الأولاد علاوة على التكاليف الملقاة على عاتق كل ركن من أركان الأسرة. إن التكاليف هـذه هـي الأساس الوحيد لحفظ سلامة الأسرة وألفتها ومحبتها على طريق التسامي والقيم.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ] {التَّحريم:٦} و كذلک: [فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ] {الزُّمر:١٥}

هنا ومن خلال الحديث عن كيفية السلوك الأُسرى فى مقام الزوجية بشكل مفصل سوف نتناول وظائف الزوجة ووظائف الرجل وتكاليفه قبال زوجته، وأولاده ووالديه وبيته بشكل عام. كذلک سنتطرق إلى كيفية الحفاظ على مركزية الأسرة وطريقة الابقاء على الاحترام المتبادل بين أفراد الأسرة الواحدة، والابتعاد عن كل ما يكدر صفوها، والاستمرار فى البحث عن الوسائل التى من شأنها أن ترفع الأسرة وتنأى بها عن الأسباب التى قد تخرجها من الوضع الطبيعى إلى وضع يبعث على الكسل والخمول والتوانى فى إنجاز ما يجب أن يقوم به كل فرد من أفرادها. وبلوغها هذا الوضع يجرها إلى التفكک الذى يستتبع انهيار الجماعة وإخفاقها فى بناء الحياة السعيدة.

[وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] {الرُّوم:٢١}

توازن الأخلاقى فى الأسرة

كثيرة هى المسؤوليات الأسرية، وإنجازها يوقعنا كثيراً من الأحيان فى بعض المشاكل، فإدارة المنزل والتوازن الأخلاقى مسألة ضرورية، والحدة الخُلقية والتعصب فى تقبل الواقع المعاش يتسبب فى إيجاد العقد النفسية التى منها الكآبة وعدم الرغبة فى المشاركة بإدارة الأمور المنزلية وممارسة الأعمال التى تبعث على تخريب مركزية الأسرة.

إن إدارة أمور المنزل يجب أن تمارس ممارسة ترعى الاعتدال والتفكير الاجتماعى العام، وتقسيم العاطفة بين الأفراد على السواء.

ويتأتى ذلک من اكتساب المعلومات التى يمكن أن نسميها سياسة الأسرة.

الرجل أو رب الأسرة يجب أن ينتهج الطرق والأساليب الصحيحة ويدبر شؤون المنزل بموازنة أخلاقية تتيح له إقامة ما يسمى الحكومة المنزلية بعيداً عن الظلم والاستبداد.

وبهذا السلوک فقط سوف يحفظ على الأسرة أمنها واطمئنانها.

إن هذه الممارسة الحكيمة الحسنة مهمة جداً فى إيجاد الترابط المعنوى بين أفراد الأسرة ليتعاطفوا ويتراشدوا.

ولقد طرق القرآن المجيد سمع الإنسان بدقة عارضاً بيان هذه المسؤولية ليسلک بالإنسان طريقاً على جادة إنجاز هذه الوظيفة فقال سبحانه وتعالى فى كتابه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ] {التَّحريم:٦}

إن المسؤولية الأسرية هى إحدى الوظائف الاجتماعية، وحين يربى الإنسان نفسه ويرتقى بها عما يحطها من مراتب الكمال، فإنه يشارک فى تربية أسرته والارتقاء بها فى مدارج الاستقامة والطمأنينة.

الرجل قيّم على المرأة

لقد أشار المولى كثيراً إلى القوانين التى تحدد سياسة المنزل ومن إشارته المباركة الآية الشريفة: [الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا] {النساء:٣٤}

وعلى هذا الأساس يمكن القول: على الرجل قيادة أسرته وله حق القيمومة عليها.

هذه المسؤولية الكبرى لايمكن أن تنجز إنجازاً حسناً نافعاً بتحكيم الرجل بالقلوب فقط، ولابتسلطه الجسمانى لوحده وإخضاعه أفراد أسرته بالقوة وضده فما يجدى أحد دون الآخر.

إن شرط نجاح قيادة المنزل، هو التحكم بعواطف الأشخاص الذين يخضعون لقانون الأسرة لأسرته من غير منٍّ ولا أذى الذى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإحسان الرجل وطاعتها له فى الحقّ.

ولايخفى على أحد أنّ من امتلک قلوب الناس فى مکان ما و زمان ما سهلت عليه قيادتهم.

وفى هذه الحالة فإنه لايلزم اللجوء إلى استعمال القوة وإبراز الخشونة للأفراد الذين هم فى عهدته أو تحت إمرته.

إن الوسط العائلى حاله حال الأوساط الإسلامية الأخرى لاينبغى أن يلوث بالتحكم الأهوج، أو بالممارسات التى تجر على الضرب والشم وسوء التصرف.

عقل الرجل و عاطفة النساء

لقد تبين لنا من الآية الشريفة الآنفة الذكر أن إدارة الأسرة تقع بالكامل على كاهل الرجال لأسباب من جملتها: الوجود العقلى للرجل والعاطفى للنساء، فالأعمال التى تتطلب أعمالاً يحتويها العقل بالكامل تقع على عاتق الرجال، بينما تقع الأمور العاطفية على كاهل النساء.

فالتكاليف التى تحتاج إلى عاطفة قوية من مثل التدبير المنزلى وتربية الأولاد والتى يمكن اعتبارها التكاليف الأساسية والمهمة فى حياة الأسرة تقوم بها المرأة على الأساس الفطرى وطبيعة خلقتها التى تتناسب وإمكاناتها، على عكس الرجل وحسب التصنيف الفطرى فإنه لايمكن أن يمارس هكذا تكاليف بالشكل المطلوب.

وطبيعى هو عدم إمكانية قيام الرجال بالوظائف والتكاليف التى عهد بها فطرياً إلى النساء، فهو لم يخلق لممارسة التدبير المنزلى أو حضانة الأطفال أو ما إلى ذلک من ممارسات منزلية لأن أصل وجود

الرجل وجود تعقلى يتناسب والأعمال الاجتماعية المعقدة.

الخلاصة

١. كل الأشياء المادى وسواها فى العالم مسؤولةً، وما من شىء لاينوء بتكليف وكذا فى عالم المجردات.

٢. إن كل الذرات الكونية فى العالم المادية تتحمل مسؤولية خاصة، وبديهى أن الإنسان يتحمل مسؤولية أعظم من عالم المخلوقات. و هى تختلف عن مسؤوليات الموجودات المادية و المجردة، فالإنسان يفعل فعله مختاراً، وسواه من المخلوقات مجبر على ذلك.

٣. يتحمل الإنسان نوعين من المسؤولية: ١. المسؤولية العبادية، ٢. المسؤولية الفردية التى يتعلق بجسم الإنسان الذى هو بُعده الحيوانى. و التى يتعلق بروحه الذى هو بعده المعنوى له. ٣. المسؤولية الاجتماعية التى منشؤها الطبيعة الاجتماعية للإنسان.

۴. الاسرة هى المؤسسة الاولى والاساسية من بين المؤسسات الاجتماعية المتعددة. و تعد مسؤوليتها من أكبر المسؤوليات.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۲۶

معني آية «الرجال قوامون علي النساء»

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

مثل المرأة فى الأسرة و المجتمع كمثل الوردة، ومثل الرجل كمثل الشجرة العظيمة الساق. ومثلما لاتطيق الوردة حرارة الشمس المحرقة ولا العواصف والرياح ولا برودة الشتاء القارص، لاتطيق المرأة جسام الأمور، ولاتستطيع النهوض إلا باليسير منها.

المحتوي العلمى

يمكن التصريح بوضوح أن غياب الرجل عن المجتمع يجعله مجتمعاً ناقصاً، كما أنّ غياب المرأة يشعر بنقص ملموس فيه.

من هنا كانت إدارة المنزل أو الأسرة والأعمال الشاقة والمجهدة من نصيب الرجل باقتضاء الأمر؛ والتدبير المنزلى ضمن حصة المرأة وذلك بمقتضى الطبيعة البدنية للمرأة وهذه المسألة لايمكن احتسابها سبباً فى أفضلية الرجل على المرأة وما قاله المولى جل وعلا فى كتابه: [الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً] {النساء:٣٤}.

أراد به تفضيل الرجل على المرأة من ناحية عقلية وليس تفضيله عليها من ناحية وجودية.

ولايخفى فى أن المرأة أيضاً تتفضل على الرجل من ناحية عاطفية. ولم يكن المقصود من الآية الشريفة تفضيل الرجل على المرأة مطلقاً فتعدّ هذه الآية المباركة طعناً فى مقام المرأة.

صفات النساء الجديرات

[فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ] {النساء:٣٤}

لقد وهب الله سبحانه وتعالى المرأة الجديرة أو اللائقة صفتين:

١. التواضع والطاعة

إن من صفات المرأة اللائقة هو الالتزام بتنفيذ أوامر الزوج والتواضع له وعدم ملاسنته أو الرد عليه وترک المسائل أو القضايا التی تجر إلى المخاتلة، وعدم مخالفتها لما فطرها الله عليه.

المرأة المسلمة حقاً هی المطيعة المصغية لأوامر زوجها ونواهيه، فهو رب الأسرة الذی له أن يدير شؤونها، لكن من غير امتهان وتسلط.

حق الرجل على زوجته

للزوج أن يأمر زوجته، ولكن ليس فی مجال تنظيف الملابس أو تهيئة الغذاء وشبههما، لأنه ليس للرجل حق فی هذه الأمور فحقه الاستمتاع فقط.

ومع أنه ليس للزوج حق فی إصدار أوامره لزوجته فی تهيئة الغذاء أو کی الملابس أو مناولته قدح ماء، فإنّ على الزوجة أن تطهو الطعام وتهيئ اللباس النظيف والجو الحياتی اللازم لمعيشة هادئة، ذلک ما تقتضيه المحبة الصادقة والذوق السليم من الزوجة الصالحة.

وليس الأمر مرتبطاً بما للرجل على المرأة من حقّ شرعیّ يجب أن تنفذه فقط وإنما هو أوسع من ذلک وأعمق، فلو طلب أی منهما شيئاً خارج ذلک الحق كان على الآخر تنفيذه انطلاقاً من المحبة والتعاون لا من الوجوب الشرعی.

٢. العفة

إن الصفة الثانية من صفات المرأة المسلمة هی «العفة»، فی الخلاء وفی الجلاء أی: فی السر والعلن، فتحفظ زوجها فی حضوره وغيابه.

وظائف المرأة

من واجبات المرأة المسلمة التهيؤ لاستقبال زوجها قبل حضوره المنزل والتبسم فى وجهه ساعة دخوله وإظهار السرور به والمودة له والإصغاء لما يقول وإشعاره بالرضا عنه.

وظيفة الرجل حيال المرأة غير المطيعة

لقد جاء فى القرآن الكريم: [وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ] {النساء:٣٤}

الموعظه هى الإرشاد الممزوج بالتلطف والتحبب إلى الشخص المراد نصحه. فيجب أن تكون كالشمس التى لاتبخل بنورها الذى تبعثه من كل جوانبها، وأن تنبعث من الدليل السهل الجميل.

ويختلف النصح باختلاف الإنسان المنصوح له، فإذا كان امرأةً استدل الناصح بالقضايا العاطفية والنفسية، وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله الحكيم: [وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً] {الروم:٢١}. أى أنه لا داعى للوعظ العقلى المستند للبراهين المنطقية الجافة.

فإذا قصرت المرأة فى واجباتها خوطبت بلطف ومحبة يوقظان عواطفها، فإذا دخلت، واستقبلتك زوجك بلباس الطبخ وعليها البرم والنصب يجب أن لاتصرخ فى وجهها وتطلق لسانك عليها.

وإنما عليك أن تعاملها بلطف وهدوء ومحبة، وتذكرها بألطف قول أن مثل هذا يخفض حرارة الود فى الأسرة.

من منظار علماء النفس

على الزوج أن ينظف حذاءه من الطين العالق به حين الدخول إلى المنزل، وعليه أن ينحى الغم والضجر والقلق من صدره والعبوس من وجهه قبل وروده إلى المنزل كما فعل بالطين العالق بحذائه.

وكذا الزوجة عليها أن تنظف المنزل وترتبه، وتخرج الكناسة منه، وأن تخرج الغم والأذى والفتور من ساحة الأسرة إخراجها الأوساخ من ساحة المنزل.

أثر المودّة فى الحياة الزوجية

إن إيفاء مسؤولية الأسرة يتطلب الصبر وسعة الصدر والايثار والعفو والعقل المخطط والاستفادة من المعلومات التى تدخل ضمن هذا المضمار؛ فإدارة البيت والمحافظة على سلامة الأسرة يوجزها قولهم السائر: «رئيس القوم خادمهم».

لقد ذكرنا أن أقصر الطرق لإدامة البيت السعيد هو استخدام العطف والمودة وإيجاد الانسجام بالتفاهم والتناصح، وإلى هذا أشار القرآن فى حديثه عن لقمان(ع): [وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ] {لقمان:١٣}

فى هذه الآية الشريفة يتجلى لنا مقام الموعظة وأثرها مقروناً بالتلطف والعطف وما يبديه لقمان الحكيم لابنه معتمداً الاستدلال أساساً فى التحدث إليه ومجتنباً التحقير أو الانتقاص منه لما للتحقير والانتقاص من أثر سلبى يطيح بالمقاصد السامية التى يرنو إليها، بل وقد يتسبب فى خروج الابن على الأعراف والقيم السامية.

خلاف المرأة والرجل

يجب الانتباه على أن الكدر ينشأ من تقصير الطرفين عادة.

وهذا لايعنى ان المقصر هو المرأة وحدها أو الرجل وحده، بل الباعث هو حب النفس وضيق الصدر.

فلو أن جماعة اتسع صدرها، وتخلت عن الأثرة، لولى النزاع، وارتفع الكدر.

فلو كان الحديث مع الزوجة التى تجاسرت أو ما فتئت تتطاول عليه فى حديث لايليق لكان من الأنسب أن يذكر لها ما روى فى المرأة التى ترد على زوجها بما لاينسجم والحياة الزوجية وكيف أن لسانها أصبح طويلاً على حدٍ كان الناس معه يسحقونه تحت أقدامهم، أو تلك الرواية التى تتطرق إلى أن الرسول(ص) فى ليلة المعراج رأى بأم عينه كيف أن عدة من النساء قد شددن من ألسنتهن إلى عالٍ حينها

سأل الرسول(ص) جبريل عن سبب هذه الحالة فأجاب أن هؤلاء النسوة من النساء اللاتى يرددن القول على أزواجهن بما لايليق وكن السبب فى تعاسة الأسرة الواحدة.

منشأ الخلاف بين الرجل والمرأة

من الجدير بالذكر أن أكثر الخلافات التى يمكن أن تحصل بين الرجل والمرأة يرجع سببها إلى الطرفين. وكذا لايمكن أن نعتبر المرأة فقط السبب الأساسى فى الخلافات المنزلية ولا الرجل لوحده هو المخطئ، ويمكن أن نعزو السبب إلى عدم رحابة الصدور إلى حب الذات والتنكر للطرف المقابل وهذا قد يشمل الطرفين [الزوج والزوجة] على السواء.

ومن بديهيات الحياة أنه لايوجد اثنان يتفقان اتفاقاً فكرياً وأخلاقياً، ومن الجملة الرجل وزوجه، لأن هذا التوافق يحصل بين الأنبياء والأولياء فقط لما لأرواحهم من اتحاد وتسليم محض لأمر البارى تعالى.

ومن هنا لايتوقع أن يتفق الزوج والزوجة على كل الجزئيات فالاختلاف هو أحد الأمور الطبيعية التى لاينبغى ان تؤثر فى الأسرة تأثيراً سيئاً وتزلزل استقرارها.

إن الحل لمسألة الاختلاف فى الأسرة هو التحمل وتقبل ما يقال برحابة صدر، فالزوج أو الزوجة يجب أن يضعا فى ذهنيهما الابتعاد عن الحدة والصراخ أو الانتقاد الهدام، ويسعيا للتفاهم بكل هدوء ورحابة صدر وبالوعى وضبط النفس، يمكن أن تتضح الأمور ويزول الخلاف بسرور فإذا صفا الجو يشهدان الله ـ تعالى ـ على ما كان السبب الأساسى فى بروز ذلک الخلاف.

ميل الرجل

من الرجولة وكمال الشهامة أن يعتذر الزوج لزوجته حينما يتبين له أنه كان السبب فى بروز الخلاف. ولو اتضح للرجل تقصيره وظهر أنه هو السبب الأساسى فى الخلاف لتعذر عليه أن ينصح لزوجته إذا قصرت بعدئذٍ، وما كان لمواعظه ونصائحه من أثر مستقبلاً. لأنه هو الأولى بالنصح.

وبصدد هذه القضية تفضل استاذنا الكبير القائد العظيم للثـورة الامـام الخمينـى(ره) قـائلاً: إن المثـل الشائع: «كلمة الرجل واحدة» ليس صحيحاً، فالرجل الذى يشتبه فى ارتكـاب قضـية خلافـاً للعـرف أو الشرع يجب أن يعترف بذلک، لأننا لسنا معصومين، ومن المسلم به أن نقع فى الخطأ.

فعلينا أن نقر بأخطائنا، فذاک من القوة لا من الضعف، ومن الكمال لا من النقص.

والشخص الوحيد الذى يمكن أن يكون موفقاً فى حياته هو ذلک الشخص الذى يتمتع بأخلاق كريمة تساعده على تقبل الحقائق برحابة صدر.

وبغير هذا سوف يكون إنساناً مستبداً وغير مقبولاً فى المجتمع.

ومن علامات المروءة والشهامة إعطاء الحق لأصحابه إذا علم بأنه ليس بصاحب لذلک الحق.

وقد ينزغ الشيطان للرجل فى أن الاعتراف للزوجة بـالحق يجعلهـا امـرأة جسـوراً لاتـوقر زوجهـا ولاتسمع له.

غير أن منطق الإيمان لايزن بهذا الميزان، فالإمام الحسن(ع) فى معرض حديثه لجنادة قال: «من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطنة فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاته».

التغاضى عما مضى

من الصفات الأخرى التى ينبغى أن يتصف بها كل من الرجل والمرأة التغاضى عـن الأخطـاء السـابقة لحفظ مركزية توجيه الأسرة هذه الخصلة الحسنة تتجلى فى سيرة الأئمة المعصـومين وأنبيـاء(ع) هـؤلاء العظام الذين طالما تجاوزوا عن أخطاء الناس وتناسوا ما سلف.

جاء عن الإمام الصادق(ع) أنه قال: «العفو عند القدرة من سنن المرسلين والمتقين».

وكذا قال أميرالمؤمنين(ع) بصدد العفو: «إذا قدرت على ظلم الناس تذكر قدرة الله عليک» و«العفـو

عند المقدرة».[١]

وقال يوسف لإخوته: أنتم الذين جعلتم منى أن أكون عزيز مصر؛ وبعد ملاقاته لأبيه مروراً بسنى الهجرة التى جاوزت الأربعين سنة قال لأبيه: «إن الشيطان نزغ بينى وبين أخوتى».

وتجاوز كذلک عن ظلم زليخا التى أدت به على أن يمضى تسع سنين فى غياهب السجون.

فليكن التجاوز عن الأخطاء الذى فعله الأنبياء وأولياؤهم ومن سار على نهجهم درساً وعبرةً؛ وهو ما تفصح به هذه الآية الشريفة: [وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] {النور:٢٢}

تأثيرات الماضى

إذا ما تغاضى الإنسان فى محيط الأسرة أو المجتمع بشكل عام عن الأخطاء الصغيرة كان لذلک أثر حسن، وأثمر التصافى والتحابب.

المهم فى هذا التصرف أنه مدعاة لعفو الله فى الآخرة عن الأخطاء والذنوب التى أقترفها هذا الإنسان المتجاوز عن أخطاء الآخرين.

فوجود العفو وغض النظر عن بعض الأخطاء داخل الأسرة يحفظ سلامة الأسرة، ويبعث على الفوز بغفران الله سبحانه وتعالى.

فما أطيب أن تنيروا مشاعل الرأفة والعفو لتحرقوا بها الأخطاء فيما بينكم من أجل نثر بذور المحبة داخل أسركم لتتمكنوا من العيش بسلام فى ظلم العفو والرحمة.

[١] ـ سفينة البحار، مجلد ٢ صفحة ٢٠٨.

الخلاصة

١. أراد الله بآية «الرجال قوامون على النساء» تفضيل الرجل على المـرأة مـن ناحيـة عقلية وليس تفضيله عليها من ناحية وجودية.

٢. التواضع، الطاعة و العفة من اهمّ صفات النساء الجديرات.

٣. وظيفة الرجل حيال المرأة غير المطيعة الموعظه و هى الإرشاد الممـزوج بـالتلطف والتحبب إلى الشخص المراد نصحه.

۴. إن إيفاء مسؤولية الأسرة يتطلب الصبر وسعة الصدر والايثار والعفو والعقل المخطط والاستفادة من المعلومات التى تدخل ضمن هذا المضمار.

۵. إن منشأ الكدر فى الاسرة من تقصير الطرفين عادة و الباعث هو حب النفس وضيق الصدر.

۶. إن الحل لمسألة الاختلاف فى الأسرة هو التحمل وتقبل ما يقال برحابة صدر.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٢٧

تأثير التفاهم في الحياة الأسري

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

إن السعادة واللذة المعنوية فى الأسرة الواحدة هى رهينة التفاهم، فمنه تنبعث الألفة والانسجام، وبه تحل الثقة والاطمئنان فى الأسرة، ويستقر نظامها، ويشرق صفاؤها وسرورها، فعلى هذا فنقول:

المحتوي العلمى

قد نقل «أحمد بن حنبل» فى مسنده نقلاً عن عائشة قولها: «فى أحد الأيام كان رسول الله(ص) فى البيت وإذا بطبق من غذاء تحمله جارية لـ«صفيّة»[1] كانت قد أرسلته إلى رسول الله(ص)، وحين وقوع نظرى على تلك الجارية أحسست برجفة تسرى فى بدنى وكأنى خرجت من عالم الآدمية، وأخذت بطبق الغذاء منها ورميت به بعيداً بعدها نظرت إلى رسول الله(ص) فرأيته مدهوشاً متحيراً تظهر على عينيه علامات الغضب والتنفر مما فعلت فلذت به من غضبه وقلت: يا رسول الله تجاوز عنى ولا تدع علىّ. فقال: استغفرى ربک يا عائشة.

قلت: وكيف ذاک يا رسول الله؟

حينها قال الرسول(ص): جهزى طبقاً مثل ذاک الذى أرسلته صفية، واطبخى غذاء مثل ذاک الذى أرسلته وأرسليه إليها، «أى إلى صفيّة».[2]

وبهذا الصدد تتعدد النماذج الكثيرة التى تحكى عن رحابة صدر النبى الأكرم(ص) وسعيه الحثيث فى حل المشاكل بمعاملته الروحية والعقلية، مستنداً إلى القرآن الكريم فى إسداء النصح إلى من كانوا يحيطون به.

ومن خلال وقوفنا على سيرة النبى الكريم(ص) ينبغى لنا أن نقتدى بهذه السيرة المباركة، ونغض

[1] ـ إحدى زوجات النبى(ص).

[2] ـ مسند أحمد، ج۶، ص٢٧٢.

أبصارنا عن التجاوزات والأخطاء الجزئية التى تتيح لنا فرص النصح والموعظة حلها وتجاوزها بكلام لين مهذب يشعر المخاطب بالمودة والرحمة.

إن الالتزام والتمسک بسيرة أهل بيت العصمة والطهارة والاستفادة من الروايات المتواترة عنهم يتيحان لنا معرفة الأسلوب الأمثل فى التناصح والتفاهم سواء فى حدود الأسرة أم فى حدود الأمة التى لاتصلح إلاّ بصلاحنا، ولاترقى برقينا فى سلم الوعى الفاعل والشعور السليم.

حسن الخلق

ليس من حق الرجل أن يعامل زوجته بشدة و حدّة فى حالة بروز الخلافات والمشاكل حتى ولو لم يكن له يد فى بروز هذه المشكلات، إذ ليس من حق الزوج أو الزوجة على السواء الاخلال بقانون الأسرة وتفتيت نظام أول مدرسة لتعليم وتربية الأولاد.

ونقرأ فى تاريخ الإسلام كيف أن الرسول محمداً(ص) شارک فى دفن أحد أصحابه وكيفية مواراته بالتراب بيديه الطاهرتين فى حين وقفت أم المتوفى على الجسد فتخاطبه قائلة: لن أبكى لأجلک، ولماذا البكاء عليک؟ وبيد رسول الله أنزلت إلى القبر؛ فأى سعادة هى التى حباک الله بها حين جعل رسوله(ص) ينزلک إلى مثواک.

وحين انصرفت أمه، قال رسول الله(ص) ووجهه صوب أصحابه؛ لقد اعتصر القبر فلاناً حتى هشم أضلاعه.

فقال أصحاب الرسول(ص) وكيف ذاک يا رسول الله؟ أو لم يكن من الصالحين؟

فأجابهم(ص): نعم، هو كذلک، ولكنه كان يسىء الخلق مع أهله.

وإذا ما كان الإنسان مسلطاً على عقله، غير سريع الغضب ممتازاً برحابة الصدر، فلن يكون هناک خلافات أسرية غير قابلة للحل، علاوة على الراحة التى سيحظى بها فى أول ليلةٍ فى القبر، إضافة إلى

تجاوز الله تبارک وتعالى عن خطيئته يوم يقوم الاشهاد.

حسن الظن

تحظى مسألة حسن الظن بأولوية التفكير الجاد فى المجتمع والأسرة إذ يجب التفكير والحكم على المسائل والقضايا بعقل يخالطه حسن الظن، لأن العيش فى الخيال وإساءة الظن بالآخرين يسبب عقداً كثيرة تجر إلى الانطواء والأمراض العصبية والاغتياب، وإشاعة قضايا ما أنزل الله بها من سلطان.

وفى يوم القيامة يحشر الذين يسيئون الظن بالآخرين على هيئة الذباب، لأنهم كانوا فى الدنيا يلوثون المجتمع ويعيبون على الناس وينتقصون منهم حالهم حال الذباب الذى يلوث الغذاء والهواء.

فالإنسان جدير أن يرى كمالات وألطاف الآخرين ويتجاوز عن نقاط الضعف والأخطاء التى يمكن أن يمارسوها.

وفى قصة مشهورة عن نبى الله عيسى(ع) أنه كان ماراً على قريةٍ برفقة أصحابه، وفى الطريق شاهدوا معزاةً ميتة تثير على الانتقاد، وقتها بدأ أصحاب النبى(ع) بالتعرض للمعايب التى كانت فيها أما عيسى(ع) فقد قال: «اعجب لأسنان هذه الميتة كم هى بيضاء ناصعة».

و كلام نبى الله عيسى(ع) هذا يعلمنا كيف نسدل الستار على عيوب الآخرين ويدلنا على أنه حتى الميتة فيها نقاط مدح إيجابية.

صفات الزوجة المثالية

لقد أشارت أغلب الأحاديث إلى صفتين من صفات الزوجة المثالية؛ وهنا نعرض صفات أخرى.

الزوجة ظهير لزوجها

من الصفات الحسنة للزوجة المثالية أنها لاتستبدل بزوجها كل عالم المخلوقات؛ ولهذا الأمر عدة حالات:

أولاً: فى الحالات التى يمكن أن يتقول أقاربها ومعارفها على ما لاصحة له ولايليق بزوجها، ترد ما يفترون رداً مؤدباً جريئاً مهذباً يحفظ الحق على أهله.

ثانياً: سلوكها وعملها يتساويان فى الغنى والضنک، بل تتقرب إلى زوجها وتتواضع له أكثر حينما يمر بحالات الفقر والفاقة وضنک العيش، مستعينةً بالصبر، محافظةً على توازنها قبالة المشاكل المادية.

ثالثاً: عدم طرح الخلافات والأخطاء الخاصة بالأسرة خارج نطاقها.

القرآن بشكل كلى يحثّ الإنسان على ستر عيوب الآخرين، وليعلم هذا الإنسان أنه خطاء وكله عيوب ونقص من مفرق رأسه وحتى أخمص قدميه؛ ولو كشف الله ستار العيوب عن أنظار الناس، لافتضح هذا الإنسان بشكل تشمل الفضيحة معه الخاص والعام.

فينبغى للإنسان أن يشكر المولى على هذه النعمة العظيمة حين أعمى البصائر عن نقائص وأخطاء الآخرين ليكم بذلک الأفواه عن فضح العيوب؛ وحرى بالزوجة خاصة أن تهتم بهذا الأمر المهم ولتعلم أن الفقر والغنى كليهما ابتلاء للإنسان.

شروط تأثير النصيحة

ذكرنا سابقاً أن النصيحة أو الموعظة يشترط فى تأثيرها ثلاثة شروط:

١. التلطف: فالموعظة يجب أن تكون بتلطف وتودد وأن تكون خارجةً من صميم القلب.

٢. الاستدلال: القصد من ذلک أن يكون للنصحية سند صحيح وتعتمد على أساس قوى من الدلائل والبراهين الواضحة.

٣. رحابة الصدر: هذا الشرط يحظى بحصة الأسد فى أهميته فهو من النعم الكبيرة التى أنعم الله بها على عباده؛ ولهذا ركز عليه القرآن الكريم فى قوله المبارک للرسول الأكرم(ص): [أَلَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ] {الشرح:١}

وقد عنى ــ سبحانه وتعالى ــ بشرح الصدر رحابته للأمور وقدرته على استيعابها بحكمة وطمأنينة تقربه من النفوس وتزيده جلالاً فى العيون.

رحابة الصدر من صفات الأنبياء

لقد كان الأساس فى تبليغ الرسول ابتداءً من بعثته وانتهاءً برحلته رحابة صدره وحسن خلقه الكريم. ولقد كانت رحابة الصدر من دواعى نجاحه وانتشار رسالته(ص).

وفى خطاب الله ــ سبحانه وتعالى ــ إلى موسى بن عمران(ع) الذى دعى فيه إلى دعوة فرعون للإسلام ينم عن الخلق الرفيع ورحابة الصدر إذ قال سبحانه: [اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى] {طه:٤٣و٤٤}

وحين سمع موسى هذا الخطاب الربانى وهو يرى بأم عينه التجهيزات العسكرية والقدرة الضخمة من الجيوش التى كان يمتلكها فرعون توجه إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ طالباً السكينة وشرح الصدر: [قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي] {طه:٢٥-٢٨}

من الطبيعى أنه إذا كان الإنسان واسع الصدر كان لكلامه الأثر الكبير فى نفوس الآخرين، ولكن إذا ضاق صدره وارتكب ما لايليق بالإنسان الكيس فلن يكون هناك أثر لموعظته أو حديثه فى نفوس الآخرين وسيفقد حق النفوذ فى نفس من يريد وعظه ونصحه.

ويجب أن يعلم ما للارتباط بالله ــ جل وعلا ــ من أمور تبعث على صفاء النفس ورحابة الصدر وطيب الخلق، وكلما زاد الإنسان من صدقه مع البارى وسعى إلى تقوية روابطه مع المولى تمكن من تنمية هممه التى تمنحه الحلم والتحمل.

من الواضح جداً إذا كان رب البيت قوى الإرادة حليماً نفذت كلمته فى نفس مقابله.

البيت أول مدرسة لتقويم الإنسان

يجب أن يكون المنزل هو الـدرس الأول لتربيـة الأولاد، فيشـع ألوانـاً طيبـة مـن التفـاهم والمحبـة والانسجام والايثار والتجاوز عن أخطاء الآخرين.

ولايليق أبداً أن يكون مكاناً لنزاع الأبوين. لأن هذا النزاع يكون بداية لضياع أهم الحقوق التى يجـب أن تكون حكراً على الأولاد.

أو لم يكن الظلم الذى ألحق بأولادكم مرجعه إليكم؟

أو لم تكونوا السبب الرئيسى فى خيبة أولادكم وعصيانهم لكم؟!

لاينبغى للأبوين أن يغفلا أبداً عن أن أى عمل مهما كان صغيراً سوف يكون له الأثر الفعال فى الأولاد، فالبيت أو المنزل هو الباعث الأساسى لتكوين شخصية الأولاد.

وإذا ما أهملنا أو تقاعسنا فى هذا الأمر كنا مصداقاً للآية الشريفة التى تقول: [قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلَا ذَلِکَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ] {الزُّمر:١٥}

المحبة منشأ العفة

لن تكون هناک عوامل أو أسباب تخرج المرأة أو الزوجة عن مسيرة العفة والطهارة إذا أحبت زوجها، لأن أغلب الانحرافات والخلافات التى يمكن أن تحدث للنساء أو للأولاد تبدأ من ضآلة ما يبديه الرجل لأمرأته وسائر الأسرة من محبة واحترام.

لاشک أن كل فرد فى الجتمع الإنسانى يحتاج إلى المحبة[١]، وهذه الحاجة تظهر بوضوح عند النسـاء أكثر وأقوى مما نجده عند الرجال وأساس هذه المحبة فطرية.

فعلى الرجل أن يعمل بجهده ويبذل ما فى وسعه لأن تحظى هذه المسألة بعناية خاصة داخل محـيط

[١] ـ عليک بمراجعة مقالة الجمال، مقالة الحب والعبادة من كتاب "الفطرة" للعلامة الشهيد مطهرى.

الأسرة. فيسلك مختلف الطرق للفوز باعتماد الزوجة الذى ينبع من إظهار الود والمحبة لزوجته وأسرته جميعاً، حتى إذا عظم الود فى نفوسهم تفادوا وضحى كل منهم من أجل الآخر.

وهذا ما نشاهد أثره فى تنظيم سلوك الأسرة، وطالما ذكر الأئمة الأطهار به، قال الصادق(ع): «من أخلاق الأنبياء حب النساء».[1]

وفى أحاديث أخرى للإمام الصادق(ع) يذكر فيها ما معناه أن: «كلما زاد حب الرجل لزوجه كان إيمانه بالله أكثر»[2].

و«كل شخص كان بنا أهل البيت رحيماً كان بزوجه أرحم»[3].

وكذا قال الرسول الكريم(ص): «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهله»[4].

من هنا، يتبين لنا أن العظماء أرادوا أن نتعلم من هذه التوصيات كيفية الحفاظ على المحيط الأسرى وجعل المنزل مكاناً للأمن والاطمئنان، والابتعاد عن الأنظمة الاجتماعية الأرضية التى ما فتأت تفسد حياة الأسر وتسعى لتفتيت القوانين الاجتماعية بشكل عام والأنظمة الداخلية أى على صعيد الأسرة مما يسهم فى اضمحلال وفساد وتمييع المجتمع البشرى العالمى.

الخلاصة

١. إن النصيحة أو الموعظة يشترط فى تأثيرها ثلاثة شروط: ١. التلطف، ٢. الاستدلال، ٣. رحابة الصدر.

٢. إن أغلب الانحرافات والخلافات التى يمكن أن تحدث للنساء أو للأولاد تبدأ من ضآلة ما يبديه الرجل لأمرأته وسائر الأسرة من محبة واحترام.

---

[1] ـ وسائل الشيعة، ج٧، ص٩، كتاب النكاح.

[2] ـ وسائل الشيعة، ج٧، ص١١، كتاب النكاح.

[3] ـ وسائل الشيعة ج٧ ص١١.

[4] ـ من لايحضره الفقيه، ص٣٢٤، الحديث ٥.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٢٨

واجبات الرجل والمرأة وحقوقهما

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

أشرنا سابقاً، إلى أن حق الرجل يتمحور فقط حول استمتاعه بزوجته. وما تنجزه من قبيل الطبخ والغسيل هو معروف منها تسديه إليه، وليس واجباً عليها له، وإن شاع أنها من الوظائف الأخلاقية للنساء وليست حقاً للرجال.

لذا نرى الرسول الأكرم(ص) يذهب إلى بيت الزهراء(س) في اليوم الأول بعد الزفاف، من أجل أن يبارک لهما الزواج يقسم الأعمال بين هذين العظيمين قائلاً ما معناه:

«يا زهراء! إن أعمال المنزل، من قبيل الخبز أو طحن الشعير والحنطة، وتنظيف الدار، ورعاية الأطفال سهمک؛ أما سهم أميرالمؤمنين(ع) فيتمثل في تهيئة الحطب، وجلب الماء، وترتيب ما يحتاجه المنزل من مواد أخرى تجلب من خارج المنزل».

بعدها، تفوهت فاطمة الزهراء(س) بهذه العبارة التي ينبغي أن تلزمها كل المؤمنات وهي: «لا يعلم إلا الله ما داخلني من السرور في هذا الأمر»[1]

المحتوي العلمي

الحقوق والعاطفة

ما أجدر الزوجين أن يكونا رفيقين رحيمين يعطف أحدهما على الآخر ويعينه على النهوض بخدمة الأسرة التي يشتركان في إدارتها! فإنهما إن لم يكونا كذلک انفرطت الأسرة وخسرت شركتهما.

ولو حكم القانون وحده علاقات الأسرة، وتوقف العمل على أداء الواجبات فقط، لتوترت حياة تلک الأسرة، وأصابها الخسران.

---

[1] ـ بحار الأنوار، ج ١٠، ص٢٤ ـ ٢٥.

وكذا لو حكمت العاطفة لوحدها.

لذا يستلزم أن يكون القانون إلى جنب العاطفة فی تحكيم الروابط الأسرية.

[إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ] {النحل:٩٠}

مع وجوب التزام الرجل والمرأة مراعاة القوانين الإسلامية يجب أن يكونا رفيقين يعطف أحدهما على صاحبه.

التعاون

كان رسول الله(ص) على يومه قد ذهب إلى منزل أميرالمؤمنين(ع) فوجده ينظف عدساً، فسر الرسول(ص) بهذا العمل وقال: «يا على، من أعان زوجه على عمل فی المنزل، كان له ثواب عمرة».

جهاد المرأة

جاءت امرأة إلى رسول الله(ص) وقالت لی سؤال أوجهه لک نيابة عن كل نساء العالم من الآن حتى يوم القيامة: لماذا فرقت بين الرجل والمرأة فی الجهاد مما يبعث على حرمانها من الأجر والثواب الذی خصصت به الرجال دون النساء؟

فأجابها الرسول الأكرم(ص): «جهاد المرأة حسن التبعل».[١]

وعلى هذا الأساس، يجب على المرأة أن تنظف منزلها على أكمل وجه، وتطبخ الطعام، وتغسل الملابس، وتربية الأولاد، والتجمل لزوجها لتكون مشغولة دائماً فی الخطوط المتقدمة للجهاد فی سبيل الله تعالى.

حقوق الرجل

لقد علمنا الرسول الكريم حقوق الرجل على المرأة فی معرض جوابه عن سؤال امرأة وهكذا كان:

---

[١] ـ قال أميرالمؤمنين(ع) كتب الله الجهاد على الرجال والنساء، فجهاد الرجل بذل ماله ونفسه حتى يقتل فی سبيل الله، وجهاد المرأة حسن التبعل (وسائل الشيعة ج١١ ص١٥).

١. للرجل حق الاستمتاع المطلق فی أی وقت شاء.

٢. لايحق للمرأة أن تتصرف بأموال زوجها بغير رضاه.

٣. لاينبغی للمرأة أن تغضب زوجها، وإن حدث وأغضبته عليها أن لا تسلم جفناً لنوم.[1]

بعدها سألت تلک المرأة رسول الله(ص) وقالت: وهل هـذه الحقـوق يتسـاوی فيهـا الرجـل الظـالم والسوی؟.

فقال(ص): نعم، ويجب علی المرأة أن تكون متواضعة لزوجها فی كل الأحوال ولايحق لها أن تعرض عنه.

امرأة أبی أيوب الأنصاری

لقد كان لأبی أيوب الأنصاری ولد له من العمر سنتان أو ثلاث توفی فی غياب أبی أيوب عن الـدار، فجلست زوجه فی البيت تندب ابنها وتبكی لفراقه، ولكنها نحت الغلام جانباً، وتزينت لزوجها واسـتقبلته بوجه بشوش ساعة عاد إليها وكأن شيئاً لم يكن.

أفاق أبو أيوب عند السحر قاصداً المسجد ولكن زوجته واجهته بسؤال قائلـة: يـا أبـا أيـوب إذا مـا ائتمنک شخص علی شیء وجاءک بعد مدة يريد استرداده منک، هل ترده إليه أو لا؟

فقال: نعم. أردها إليه.

فقالت: قبل ثلاثة أعوام أئتمننا الله علی أمانة وبالأمس استردها فعليه عجل بالمجیء بعد الصلاة لدفن ابننا.

فقال أبو أيوب: «الحمد لله رب العالمين». ومضی إلی المسجد؛ وعرض علی رسول الله(ص) ما جری. فاستبشر الرسول(ص) وقال له: «بارک الله لک فی ليلتک تلک». وتتفق الأقدار علی أن تنعقد نطفـة

---

[1] ـ قال رسول الله(ص) أحسن نساء أمتی امرأة سلمت أمرها لمطالب زوجها حين رأته غضباناً وقالت له: "إن لم تـرض عنـی لـن يغمـض لـی جفن." بحار الأنوار ١٠٣.

فی تلک اللیلة لیأتی بعد مدة ابن صالح کان نصیباً صالحاً لذلکما الطیبین.

العوامل المهمة فی نظام الأسرة

یرتکز النظام الأسری وروابط الرجل بزوجته علی مسألتین مهمتین:

الأولی: القوانین والنظم الحاکمة لهذین الاثنین، أعنی حقوق المرأة علی زوجها، وحقوقه علیها.

الثانیة: التفاهم والمحبة والتعاطف والتعقل، و هی الأهم وأدق.

وإذا حدث أن تخاطب الزوجان بأنا وأنت، ولماذا وکیف وسادت هذه اللغة حیاتهما سیادة صارمة تذکر الذنب وتنسی العفو نُکت فی صمیم الأسرة نکتة سوداء تزداد سواداً کلما ازداد سوء الحساب فی تلک الأسرة، حتی ینطمس ضیاء تلک الأسرة وتغرق فی الظلام.

تقسیة نظام الأسرة

نقرأ فی روایات أهل البیت(ع) أنه: إذا برزت الخلافات علیکم بإزالتها بدقة، ولا تصلوا صباحکم بمسائکم حتی تنتهوا من حل جمیع ما ألم بکم من مشکلات.

إن الاختلافات الجزئیة تتعاظم شیئاً فشیئاً، حتی تجر إلی الطلاق فتحدث الکارثة.

والطلاق من الأمور المبغوضة عندالله،[1] والحیاة إذا کانت علی هذه الهیئة من خصام وشجار، أعنف من أی سجن یعذب فیه الإنسان.

وفی کلتا الحالتین وأعنی (الحیاة المضطربة) أو (الطلاق) یجرّ الأولاد إلی مخاطر حتمیة، فهم حین ینشأون فی محیط متخلخل ومضطرب، یکبرون معقدین نفسیاً أینما یولوا وجوههم لایأتوا علی شیء.

والفتیات غیر المقتدرات علی الانسجام مع الحیاة الزوجیة، غیر قادرات علی تربیة النشء الصحیح.

والسریعو الغضب والسیئو الأخلاق ذوو الحدة والخشونة من الناس هم ممن تربی فی أحضان أسر

---

[1] ـ قال رسول الله(ص): "... وما من شیء أحب إلی الله عزّوجلّ من بیت یعمر بالنکاح، وما من شیء أبغض إلی الله عزّوجلّ من بیت یخرب فی الإسلام بالفرقة یعنی الطلاق". (وسائل الشیعة ج١٤ ص٢٦٦).

مضطربة قلقة أو كانوا أولاد الطلاق.

صفات النساء المحمودة

من الخصال التی تجدر النساء بها ثلاث هن: البخل، والخوف، والزهو.

ولذا قال أميرالمؤمنين(ع) فی معرض حديثه عن صفات المرأة المحمودة: «خصال خيار النساء، خصال شرار الرجال: الزهو والجبن والبخل. فإذا كانت المرأة ذات زهو لم تمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرت من كل شیء يعرض لها»[1]

فزهو المرأة وتكبرها فی مواجهة الأجنبی يشبه إلى حدٍ ما زهو الرجل وتكبره فی مواجهته للعدو.

وفی الأساس، ليس هناک من داع أن تتواضع المرأة للرجل الأجنبی، بل لابد لها من أن تكون نهاية فی الغرور والتكبر، لما للابتسامة والتواضع للرجل الأجنبی من دواعی الفساد.

والجبن: صفة أخرى حميدة من صفات المرأة، ولا يستلزم أن تكون المرأة شجاعة تخرج على سبيل المثال ليلاً لوحدها، فتوقعها الشجاعة فی شراک الضعفاء والذين فی قلوبهم مرض، فتجنی على نفسها ما يبعث على إراقة ماء الوجه والدخول فی مشكلات هی فی غنى عنها.

أجل، الصبر على الشدائد ومواجهة المشاكلات يدخل ضمن الشجاعة ولكن يختلف عما ذكرنا آنفاً.

والجبن هذا الذی نعنيه محمود فی حفظ العفة والناموس.

والبخل كذلک، صفة محمودة فی النساء، لما لها من آثار إيجابية فی حفظ أموال الزوج والسعی فی عدم الإسراف اعتباطاً.

التفوه بالكلمات النابية وأثرها على الأولاد

أشرنا إلى أن محيط الأسرة هو كالدولة الصغيرة التی يسعى من فی داخلها للحفاظ عليها؛ رئاسة

---

[1] ـ بحار الأنوار ج۱۰۳، ص۲۳۸.

المنزل بعهدة الرجل انطلاقاً من حكم الشريعة والعقل، وعليه أن يسلک سلوکاً يوصله إلى مکان تکون کلمته فيه نافذة، ناهيک عن التحکم فی عواطف أفراد أسرته.

تنفيذ التکاليف اشتياقاً

أفراد الأسرة الواحدة، وخاصة الزوجة، عليها أن لاترکب رأسها قبالة أوامر رب الأسرة، وينبغی لها أن تنفذ ما تومر به على الرحب والسعة وتتابع مسؤولياتها من دون إکراه وقهر طبقاً لکون الإنسان مختاراً فی الإسلام.

ومن لاتعرف وظيفتها، وتشعر بأنها مرغمة على أدائها تفتر علاقتها بزوجها، ولاتنهض بواجبها إلا حين تراه.

ومن هذا الجهل والشعور الخاطئ تنشأ عوامل فناء الأسرة.

ومسؤولية المرأة داخل حدود المنزل مساوية لمسؤولية زوجها خارج المنزل. فکلاهما ينهض بما تحتاج إليه الأسرة من شؤون.

فيجب أن لاتتکاسل فی عملها فی إيجاد أسرة نافعة على مستوى المجتمع الکبير.

وضعية القائد والمقود، المرأة وزوجها، الأب والإبن کل هؤلاء حری بهم أن يتعاملوا مع من دونهم أو مع من هم أکبر منهم بکامل الاختيار وصولاً للهدف المرسوم وهو المسؤولية وکيفية إنجازها.

وعلى هذه الشاکلة فقط يمکن أن يکون التوفيق حليف العاملين.

يجب أن يعلم الرجل ــ على الرغم من أنه قائد ورئيس ورب أسرته ــ أن حکومته للأسرة والتوفيق الذی قد يصبغ حکومته هذه سوف يمکنه من النفوذ داخل قلوب أفراد أسرته أو حکومته وسيتمکن من تسخير هذه القلوب فيما يريد.

ائتمار الزوجة والأولاد

على الزوجة والأولاد الائتمار بأوامر رب الأسرة والانتهاء عما نهى انطلاقاً من وجوب احترامه وامتثال ما يريد من الحق، لا من الخوف منه.

فبالتودد تحيا القلوب الميتة، وبالتمرد تموت القلوب الحية. ومن التودد معرفة الواجب وأداؤه.

فللرجل القيمومة على زوجه وتوجيهها حفاظاً على ما بينهما من المودة والرحمة. وإنما أوتي هذا الحق لما له من وعى وصبر على خدمة أسرته والحرص على سعادتها أبداً.

فهو لايحاسب حتى يدرك، وإذا حاسب رحم وأنصف. وحسابه تذكير وتنوير لا تسلط وتجبر.

وإذا كانت الزوجة طويلة اللسان على زوجها اضطرب سير الأسرة، واضطر الرجل إلى البطش لتقويم الإعوجاج. وقد يزداد الوضع سوءاً باستعمال القوة وسيكون الأمر أشد على المرأة العاصية.

الرجل والمرأة أحدهما لباس للآخر

لقد وصف القرآن المجيد الرابطة بين الرجل وامرأته بعبارة جميلة ودقيقة جداً، فقال:

[هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ] {البقرة:١٨٧}

ويخلص التفسير لهذه الآية الشريفة إلى أن الرجل والمرأة يمكن لهما أن يقمعا خلافهما فيما بينهما، ويندثر دون أن يعلم به أحد من خارج محيط الأسرة.

وما أجدرهما بأن يذيعا شيئاً من خلافهما حتى لأبويهما، ليبقى سرورهما سالماً من عبث الآخرين!

إذن لايحق للمرأة أن تنتقل الاختلافات المنزلية إلى أمها وأبيها وأقرب الناس إليها وكذا الرجل لايمتلک هذا الحق.

ينبغي أن تلزم الاختلافات والنزاعات حدود البيت قدر الإمكان، وإذا وصل الأمر إلى حد لايمكن معه كتمان الخلافات وجب على الزوجين أن يعملا على طبق ما جاء في القرآن المجيد: [وَإِنْ خِفْتُمْ

شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا] {النساء:٣٥}

التحكيم، هذا الذى جاء به القرآن الكريم، يتم فى وقت وصلت فيه الأمور إلى حد قد تتشتت عنده الأسرة الواحدة ولاح قرار الطلاق فى الأفق.

عندما يصل الحال إلى هذه المرحلة، حينذاک يجب أن يجلس الطرفان وتطرح المسألة على بساط البحث فى وجود حكمين من كلا الطرفين لوضع نهاية يخرج معها الجميع بالصلح والصفاء.

إذن، فقط يكون طرح الاختلافات والنزاعات خارج محيط المنزل فى المراحل التى يحتمل فيها أن تصل إلى تفتيت أركان الأسرة وهدم نظامها، يتطرق الطرفان إلى قضية الطلاق الذى هو أبغض الحلال إلى الله، ولايحق للزوجين أن يستعرضا ما بينهما من خلافات جزئية وإدخال الحكمية فى موضوع صغير يمكن حله بشكل أو بآخر داخل المحيط الأسرى.

نتيجة

ما يمكن أن نستفيده من الآية المباركة المذكورة آنفاً هو: إن المشاكل الداخلية لايمكن إخراجها من حدود الأسرة بأى شكل من الأشكال؛ وضرورة إسداء النصح والوعظ، وترک المسائل التى يحتمل أن تؤدى إلى التباعد والجفاء.

وإذا لم نحصل على نتيجة حتمية، وخفنا الطلاق البغيض أدخلنا حكماً من أهله وآخر من أهلها لحل القضية سلمياً بعيداً عن الطلاق وما يجر من ويلات على المجتمع والأسرة.

وبناءً على هذا التعبير، فإن اللباس إذا تلوث بعث الإنسان نفسه على الخجل.

وهكذا نقاط الضعف فى الرجل والمرأة إذا ذاعت فى الناس بعثت صاحبها على الخجل شأنها شأن اللباس الملوث إذا ظهر به صاحبه فى الناس خجل من تلوثه.

فعلى الرجل والمرأة ألا يذيعا خلافهما فى الناس، فيبوءوا بالخجل منه. وعليهما أولاً أن يجتنبا الخلاف فى المنزل ما استطاعا إلى ذلک سبيلاً.

وعليهما ألا يخرجاه من المنزل إذا حدث.

ويجب أن يسود العفو والصفح حياة الأسرة.

وعلى الزوجين أن يربيا نفسيهما على ألا يرى أحدهما من صاحبه غير الحسنات، ويتغاضى عن السيئات، ويصبر أحدهما على الآخر، ويحسن به الظن دائماً.

الخلاصة

١. يرتكز النظام الأسرى وروابط الرجل بزوجته على مسألتين مهمتين:
الأولى: القوانين والنظم الحاكمة لحقوق المرأة على زوجها، وحقوقه عليها.
الثانية: التفاهم والمحبة والتعاطف والتعقل، و هى الأهم وأدق.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٢٩

أهمية الزواج من منظار إسلامي

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

إن شرعة الإسلام المقدسة أبدت عناية فائقة بالزواج، و حثّ الذكر والأنثى على الزواج المبكر وأكـد أهميته و عد الزواج نوع من أنواع الجهاد.

أهمية الزواج من منظار إسلامى ترجع إلى نقطتين الذين نبحث بعون الله عنهمـا بالتفصـيل فـى هـذه الدرس:

المحتوي العلمى

ترجع أهمية الزواج فى الإسلام إلى نقطتين:

١. ارضاء الغريزة

فالزواج يفى بحاجة جسدية ماسة جداً وفاءً سليماً طاهراً مما يشين الـنفس ويتلـف البـدن. أى أنـه يصون الإنسان نفساً وجسماً من مخاطر الكبت والابتذال الشهويين.

هذا الإنسان مثلما يحتاج للماء عند العطش وللغذاء عند الجوع ويحتاج للنكاح عند الشبق. والـزواج هو السبيل لسد هذه الحاجة الأساسية الماسة، ولذا شرعه الإسلام بضوابط حكيمة تضمن سرور الزوجين ببعضهما وتحابهما الدائم.

٢. التربية الإنسانية

إن السبب الثانى الذى أكد عليه الإسلام فى تشكيل الأسرة وهو أمر مهم جداً ألا وهو التربية.

إن جو الأسرة هو مكان حى للتربية تنشأ فيه النفوس الطيبة وتزدهر فيه المكارم، وتنزاح الرذائل، إذا يتعاون الزوجان البصيران على إظهار الخير والحق والجمال، ومحو الشر والباطل والقبح فـى بنـاء أسـرة متحابة متماسكة.

وهذه الغاية تفرض علينا أن نعطل كثيراً من رغباتنا فى البيت، لأن هذا التعطيل للرغبات وغض النظر عن بعض الاشتباهات فى محيط الأسرة، ضرورى جداً لتكوينها وتهذيبها.

وإذا ما صبرت المرأة وزوجها قربة إلى الله تعالى وتحمل أحدهما الآخر فى سبيل الله، آتاهما الله أجراً وثواباً كبيراً وفى الخبر جاء ما مضمونه:

«من صبر على سوء خلق المرأة أعطاه الله ثواب أيوب فى بلائه، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها ثواب آسيه».

الفلسفة الكبرى للزواج هى تهذيب النفس

ليس فى الشرع المقدس الإسلامى إشكال فى تشكيل الأسرة فقط من أجل إرضاء الغرائز الجنسية، لأن هذه المسألة تدخل جزئياً ضمن فلسفة الزواج ولقد أوجب الإسلام الزواج على الفتيات والفتيان البالغين سن الرشد لضمان العفة فى المجتمع البشرى. ويتجاوز هذه الحدود إلى أهم من ذلک، إذ يتابع الزوجين بعد الزواج وتشكيل الأسرة داعياً إياهما إلى «تهذيب النفس»، لأن محيط الأسرة من أحسن الأماكن التى يمكن أن يتربى بها الإنسان وصولاً إلى الكمال.

وفى حالة عدم استفادتنا من هذا المبدأ القيم الذى يبعث على الحياة ويبنى الإنسان السوى أو نخاتل فى تنفيذ برامجه، لا ينبغى بنا أن نرمى باللائمة على الشارع المقدس الإسلامى بل علينا أن نلوم أنفسنا لما مارسناه من عوامل مختلفة تبعث على تفتيت وحدة الأسرة واضطراب نظمها.

وما فعلنا ذلک إلا لبعدنا عن دستور الشارع المقدس.

ولو استقمنا لاستقامت أزواجنا وذرياتنا وعشنا جميعاً فى سرور ومحبةً، غير أن غفلتنا هى التى قادتنا إلى هذا التمزق والضياع الذى لا ينتهى بخسراننا الكرامة بين الناس، بل يجرنا إلى عذاب البرزخ والقيامة الذى يبدأ بضغطة القبر التى لا يعلم هولها إلا الله.

نعمة الوجود الأسرى وآثاره

لقد استفدنا جيداً من البحث السالف أن محيط الأسرة وهو مدرسة بحق، مدرسة قيمة وتربوية، فى حال التفات الإنسان إلى هذا الأمر الجليل والاستفادة من الفرصة فى التسلط على مسألة كظم الغيظ والظهور بأخلاق فاضلة، والتمكن من بناء أنفسنا والآخرين.

بناء النفس وبناء الآخرين

اعلموا أن من الواجبات التى أكدها الإسلام بناء النفس الذى لا يكمل إلا بالمشاركة الجادة فى بناء النفوس الأخرى بعد هدم ما فيها من آثار جاهلية، لتتمكن قيم الإسلام وآدابه من الاستقرار والنمو فيها.

ولابد أن نباشر هذا البناء فى الأسرة قبل مباشرته فى المجتمع، فإن الناس يتأثرون بالأفعال أكثر من تأثرهم بالأقوال، وبما يرون أكثر من تأثرهم بما يسمعون، ويتعاطفون مع القريب أكثر من تعاطفهم مع الغريب.

فقد دعا الرحمن الرحيم ــ عز اسمه الكريم ــ إلى وقاية النفس فالأهل قبل غيرهم. ومما يشهد لتقديم الأسرة فى التبشير بالثواب والإنذار بالعقاب قوله تعالى: [وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ] {الشعراء:۲۱۴}

يعنى، إن بناء المجتمع الإسلامى أساسه أن تبنى الأسرة أولاً.

ومن جملة وظائف الرجل الجليلة أن يربى نفسه بردعها عما يخالف الدين والعرف وبناء زوجته ذلك البناء، ليتمكنا بعدئذ من تربية الأبناء على ما يريدان من الإيمان والاستقامة.

ويؤكد علماء النفس أن للتكرار أثراً فاعلاً فى التوعية والتهذيب، ولا سيما إذا اقترن بالفعل. فإذا دعا الرجل امرأته إلى الصلاة فى أوقاتها وهو يفعل ذلك، تأثرت به واقتفت ما يفعل، وربما أصبحت من الخاشعين.

ولو كلم الرجل أهله وولده كلاماً ليناً، لسمعوا له فيما دعاهم إليه وفعلوا فعله.

وهذا يتحقق بالفطنة والمعرفة ورحابة الصدر والرحمة وغض النظر عن الاشتباهات الجزئية والتسلط على الغضب. ولتعلموا أنه لايوجد محيط أحسن من الأسرة بناءً وتربية صحيحة للنفس وللأبناء من حيث تكوين الشخصية المعنوية الناجحة.

الأسرة مكان لبناء الشخصية الإنسانية

الأسرة خير مكان للتكامل الإنسانى والسلوک الحسن.

هذا إذا ما كنا مصرّين على تكرار النصح وابداء الموعظة الحسنة فالادراک السليم والإرشاد القويم والصبر على طول الطريق، وبعد الغاية المقدسة هى دواعى الفوز بأسرة مسلمة يعين بعضها بعضها الآخر على بلوغ رضوان الله ــ تعالى ــ الذى هو أغلى ما يطمح إليه الإنسان الصالح فى هذه الدنيا الزائلة.

ودلت التجارب العلمية قديماً وحديثاً أن الأبناء يرثون ما فى الآباء من طباع وسجايا.

المحيط الأسرى مكان للتربية والبناء

المحيط الأسرى مكان، وموقع متقدم تربوى ينبغى لنا أن لانضيعه من أيدينا وهو مصداق للحديث الذى يقول: «ألا أن فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها».

هذه النفحات هى من أجل بناء أنفسنا وبناء أولادنا، فيجب أن نسعى جاهدين لنيل ما نرقى به إلى خلافة الله ــ تعالى ــ فى أرضه التى غمرها بالخيرات حباً لنا ورحمة.

الخلاصة

١. ترجع أهمية الزواج فى الإسلام إلى نقطتين: ١. ارضاء الغريزة، ٢. التربية الإنسانية

٢. ليس فى الشرع المقدس الإسلامى إشكال فى تشكيل الأسرة فقط من أجل إرضاء الغرائز الجنسية، الفلسفة الكبرى للزواج هى تهذيب النفس.

٣. يؤكد علماء النفس أن للتكرار أثراً فاعلاً فى التوعية والتهذيب، ولا سيما إذا اقترن بالفعل.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۳۰

دور الاخلاق في الاجتماع

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

يعتقد البعض من غير المطّلعين، أنّ المسائل الأخلاقيّة تمثل أمراً خاصاً فى حدود الحياة الشّخصية للإنسان، أو أنّها مسائل مقدّسة معنويّة، لاتفيد إلاّ فى الحياة الأُخرويّة، وهو أشتباه محظ، لأن أكثر المسائل الاخلاقيّة لها أثرها فى واقع الحياة الإجتماعيّة للإنسان، سواء كانت ماديّة أم معنويّة، فالمجتمع البشرى بلا أخلاق، سينقلب إلى حديقةِ حيوانات لايُجدى معها إلاّ الأقفاص، لِردع أفعال الحيوانات البشريّة عن أفعالها الضّارة، و ستُهدر فيها الطّاقات، وتحطّم فيها الإستعدادات، وسيكون الأمان والحريّة لعبة بيد ذوى الأهواء، وستفقد الحياة الإنسانية مفهومها الواقعى.

المحتوي العلمى

الأخلاق ودورها فى المجتمع

أعلى الإسلام من قيمة الأخلاق، واعتبر أنَّ ما جاء به رسول الله(ص) هو إتمام مكارم الأخلاق، وأنّ الدّين فى كلّ بنائه يعنى حُسن الخُلق؛ لأنّه جاء ليبنى علاقةً أخلاقيّةً متينةً مع خالق هذا الكون؛ حين دعا الإنسان إلى أن يعرف الله حقّ معرفته، وأنّه هو الخالق، والرّازق، والمعطى، وأنّه لابدّ من تقديره وتعظيمه والثّناء عليه، وشكره بالكلمة، والعمل بما يرضيه، والانتهاء عمّا نهى.

بناء النّفس

كما دعا الإسلام أيضاً إلى بناء أخلاقٍ مع النّفس بتربيتها على طاعة الله، والسّعى إلى رضاه: [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا] [الشّمس:٧-١٠]، وشجّع الإنسان على أن يتعامل بأخلاقه حتى مع الأرض والطّبيعة والهواء، وكلِّ ما سخّر الله للإنسان من حيوانٍ وجماد؛ عن طريق رعاية هذه الموجودات، وحسن الاستفادة منها وعدم الإساءة إليها.

الأخلاق الاجتماعيّة

دعا الإسلام من خلال تشريعاته، إلى جعل الأخلاق تتحرّک فی الواقع، وذلک بتنمية المحبّة والمودّة فی علاقات الأفراد بعضهم مع بعض، وبالاحترام المتبادل، وعدم إيذاء بعضهم بعضاً بالكلمة أو بالفعل، وتشجيع التّواصل والتّعاون والتّكامل فی العلاقات الاجتماعيّة؛ وذلک عندما حرّم الاحتكار والرّبا والمنافسة غير المشروعة والغشّ فی الاقتصاد، وأزال نزعة السّيطرة والاستكبار فی العلاقات السياسيّة، وحرص على احترام إنسانيّة الإنسان وحفظ دوره فی القوانين والتّشريعات، وحثّ على الالتزام بالأخلاق مع الأصدقاء، كما مع الأعداء. قال الامام علی(ع): «ابذل لأخيک دمک ومالک، ولعدوّک عدلک وإنصافک، وللعامّة بِشرَک وإحسانک».

وحتّى فی الحروب، كانت الوصيّة الدّائمة للمقاتلين أن لايتحرّكوا من موقع الحقد والتعصّب: و قال(ع): «لاتتبعوا مدبراً، ولاتجهزوا على جريح، ولاتهيجوا النّساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم».

الآثار الدّنيويّة والأخرويّة للأخلاق

تعتبر الأخلاق الوسيلة المـُثلى للوصول إلى قلوب الآخرين وعقولهم و قال(ص): «إنّكم لن تسعوا النّاس بأموالكم، فالقوهم بطلاقة الوجه، وحسن البشر».

وأمّا آثارها الأخرويّة، فقد ركّزت الأحاديث على أهميّة الأخلاق فی الوصول إلى الموقع الكبير والمميّز عندالله. فقد ورد عن الإمام علی(ع): «عنوان صحيفة المؤمن حسن خُلُقه»، و «إنّ العبد المؤمن يبلغ بحسن خُلُقه درجة الصّائم والقائم.»

واعتبرت الأحاديث أنّ صاحب الخلق الحسن هو مجاهدٌ فی سبيل الله، له أجر المجاهدين لأنّه يحمی مجتمعه وأمّته من داخلها، فقد ورد عن الإمام الصادق(ع): «إنّ الله تبارک وتعالی ليعطی العبد من الثّواب على حسن الخُلق كما يعطی المجاهد فی سبيل الله، يغدو عليه ويروح.»

وقد ورد عن الصادق(ع) أيضاً أنّ الأخلاق من أسباب الوصول إلى الجنّة. «ثلاثٌ من أتى اللهَ بواحدةٍ منهنّ أوجب الله له الجنّة: الإنفاق من إقتار، والبِشْرُ لجميع العالم، والإنصاف من نفسه».

أمّا سوء الخُلق، فقد اعتبرته الأحاديث ذنباً لايُغفر؛ لأنّ الخُلق السيّئ يجعل الإنسان لايخرج من ذنبٍ إلا ويقع بأكبرَ منه.

وعندما قيل لرسول الله(ص): إنّ فلانة تصوم النّهار وتقوم اللّيل وهى تؤذى جيرانها بلسانها، قال: «هى من أهل النّار».

وقد ورد فى الحديث عن الصادق(ع): «لاتنظروا إلى طول ركوع الرّجل وسجوده، فإنّ ذلك شىء اعتاده، فلو تركه استوحش لذلك. ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»؛ وبالتّالى إلى حسن أخلاقهم.

وعن الإمام علىّ(ع): «خير المكارم الإيثار». «عاشروا النّاس عشرةً إن غبتم حنّوا إليكم، وإن فقدتم بكوا عليكم». «كونوا فى النّاس كالنّحل فى الطّير»، أى تصنعون من قلوبكم وألسنتكم وفكركم وحركتكم عسلاً مفيداً مغذّياً للحياة.

فى آداب المعيشة و المجالسة مع أصناف الخلق إجمالا، ملتقطة من كلام الحكماء و أخبار أهل البيت(ع):

اذا أردت حسن المعيشة فالق صديقک و عدوّک بوجه الرضا من غير ذلة لهم و لا وحشة منهم.

و توقّر فى غير كبر و تواضع فى غير مذلة.

و كن فى جميع أمورک فى أوسطها، فكلتا طرفى قصد الأمور ذميم.

و لاتنظر فى عطفيک، و لاتكثر الالتفات، و لاتقف على الجماعات، و إذا جلست فلا تستوفز[1].

و تحفظ من تشبيک أصابعک، و العبث بلحيتک و خاتمک، و تخليل أسنانک و إدخال يدک فى

[1] ـ المستوفز: الذى ينتصب فى جلسته و يضع اليتيه علي قدميه.

أنفک، و کثرة بصاقک و تنخمک، و طرد الذباب عن وجهک، و کثرة التمطی و التثاءب فی وجوه الناس و فی الصلاة و فی غیرها.

و لیکن مجلسک هادئا، و حدیثک منظوماً مرتباً، و اصغ إلی الکلام الحسن ممن حدثک بغیر إظهار تعجب مفرط، و لا تسأله اعادته.

و اسکت عن المضاحک و الحکایات، و لا تحدث عن اعجابک بولدک و لا جاریتک و لا شعرک و تصنیفک و سائر ما یخصک.

و لاتتصنع تصنع المرأة فی التزیین و لا تتبذل تبذل العبید، و توق کثرة الکحل و الإسراف فی الدهن، و لاتلح فی الحاجات، و لا تشجع أحدا علی الظلم.

و لاتعلم أهلک و ولدک فضلاً عن غیرهم مقدار مالک، فانهم ان رأوه قلیلاً هنت عندهم، و ان کان کثیرا لم تبلغ قط رضاهم، و اجفهم من غیر عنف، و لن لهم من غیر ضعف.

و لاتهازل أمتک و لا عبدک فیسقط وقارک، و إذا خاصمت فتوقر و تحفظ من جهلک و تجنب عجلتک، و تفکر فی حجتک، و لاتکثر من الإشارة بیدیک، و لاتکثر الالتفات إلی من وراءک.

و لاتجث علی رکبتیک، و إذا هدأ غیظک فتکلم، و ان قربک سلطان فکن منه علی حد السنان، و ان استرسل إلیک فلا تأمن انقلابه علیک، و ارفق به رفقک بالصبی، و کلمه بما یشتبهه و لا یحملنّک لطفه بک أن تدخل بینه و بین أهله و ولده و جیشه و ان کنت لذلک مستحقا عنده، فان سقطة الداخل بین الملک و أهله سقطة لا تنعش و زلة لا تقال.

و إیاک و صدیق العافیة، فانه أعدی الأعداء، و لا تجعل مالک أکرم من عرضک، و إذا دخلت مجلسا فالأدب البدایة بالتسلیم و ترک التخطی لمن سبق و الجلوس حیث تسعی و حیث یکون أقرب إلی التواضع، و أن تحیی بالسلام من قرب منک عند الجلوس، و لا تجلس علی الطریق، و ان جلست فأدبه غض البصر، و نصرة المظلوم و اغاثة الملهوف و عون الضعیف و إرشاد الضال و رد السلام و إعطاء

السائل و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و الارتياد لموضع البصاق، فلا تبصق عن جهة القبلـة و لا عن يمينک و لکن عن يسارک و تحت قدمک اليسرى.

و لاتجالس الملوک، فان فعلت فأدبه ترک الغيبة و مجانبة الکذب و صيانة السـر و قلـة الحـوائج و تهذيب الألفاظ و الاعراب فى الخطاب، و المذاکرة بأخلاق الملوک و قلة المداعبة و کثرة الحذر مـنهم و ان ظهرت المودة، و أن لايتجشأ[1] بحضرته و لا يتخلل بعد الأکل عنده.

و على الملک أن يتحمل کل شيء الا إفشاء السر و القدح فى الملک و التعرض للحرم.

و لاتجالس العامة، فان فعلت فأدبه ترک الخوض فى حديثهم، و قلة الإصغاء إلى أراجيفهم، و التغافل عما يجرى فى سوء ألفاظهم، و قلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم.

و إياک و أن تمازح لبيبا أو غير لبيب، فان اللبيب يحقد عليک و السفيه يجترئ عليک، لأن المـزاح يخرق الهيبة، و يسقط ماء الوجه، و يعقب الحقد، و يذهب بحلاوة الود، و يشين فقه الفقيه و يجرء السفيه، و يسقط المنزلة عند الحکيم، و يمقته المتقون. و هو يميت القلب، و يباعد عن الرب، و يکسب الغفلـة، و يورث الذلة، و به تظلم السرائر و تموت الخواطر، و به تکثر العيوب و تبين الذنوب. و قد قيل: لا يکـون المزاح الا من سخف أو بطر، و من بلى فى مجلس بمزاح أو لفظ فليذکر اللّـه تعـالى عنـد قيامـه. قـال النبى(ص): «من جلس فى مجلس و کثر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلک: «سبحانک اللهم و بحمدک أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرک و أتوب إليک» غفر له ما کان فى مجلسه ذلک.

هذا هو الإسلام الّذى استطاع أن يشقّ طريقه فى الحياة من خلال الحبّ والرّحمة التـى غرسـها فـى القلوب فى علاقة النّاس بعضهم مع بعض، فأوجد وحدةً بينهم فى المشاعر. قال النبى الرحمة(ص): «مثلُ المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم کمثل الجسد الواحد، إذا اشتکى منـه عضـوٌ تـداعى لـه سـائر الأعضاء بالسّهر والحمّى».

[1] ـ المستوفز: الذى ينتصب فى جلسته و يضع اليتيه علي قدميه.

فتعالوا فی هذا البلد نتوحّد، علی القیم الأخلاقیّة، والتی هی نداء الإسلام، لنبنی من خلالها وطناً نموذجیّاً، ولنفتح القلوب علی ما یدعو إلیه الإسلام وهو الرّحمة و المحبّة.

الخلاصة

١. أعلی الإسلام من قیمة الأخلاق، واعتبر أنَّ ما جاء به رسول الله(ص) هو إتمام مکارم الأخلاق، وأنّ الدّین فی کلّ بنائه یعنی حُسن الخُلق.

٢. تعتبر الأخلاق الوسیلة المـُثلی للوصول إلی قلوب الآخرین وعقولهم فی الدنیا، وأمّا آثارها الأخرویّة، فقد رکّزت الأحادیث علی أهمیّة الأخلاق فی الوصول إلی الموقع الکبیر والممیّز عندالله.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ٣١

أثر الأخلاق في إصلاح المجتمع

الاستاذ: مهدى سازندگى

بكالوريوس

تمهيد

حينما بعث رسول الله(ص) فى المجتمع الفاسد بفساد الجاهلية، المتأخر عن ركب الإنسانية والحضارة، المنهار من جميع جوانبه ونواحيه، عزم(ص) على إصلاح ذلک المجتمع عن طريق إصلاح الأفـراد، لأن الإصلاح ينتشر كما انتشر الفساد، والهداية تروج كما يروج الضلال.

ومن جملة الطرق والوسائل والخطط التى اتخذها وانتخبها النبى الأكرم هى القضاء على العقد النفسية التى تكونت فى تلک النفوس على أثر التربية الجاهلية السيئة.

ولم يكتف الرسول الكريم بإصدار التعاليم فى شأن الأطفال وتربيتهم، بل كان – فـى الوقـت نفسـه – يصلح كل ما رآه فاسداً من أحوال الناس ساءت تربيتهم منذ عهد الطفولـة، وفقـدوا الفضـائل الأخلاقيـة نتيجة تكون العقد النفسية فيهم.

إن الحالة الأخلاقية والصفات النفسية الموجودة فى الإنسان تعتبر من نتائج التربية التى اكتسبها – يوم كان طفلاً – من والديه، فكلما تعلمه منهما فى مرحلة الطفولة من حسن وقبيح، يظهر عليه فى أيام الكِبر.

المحتوي العلمى

أكّد الإسلام على الإرتباط الوثيق بين الإيمان والسلوک الأخلاقى القويم فى معادلة متقابلة، إذ يكون الإيمان: صلاحاً عبادياً واقتصادياً وأخلاقياً، بعضه من بعض، قال تعالى[قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّـذِينَ هُـمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّـذِينَ هُـمْ لِلزَّكَـاةِ فَـاعِلُونَ * وَالَّـذِينَ هُـمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِکَ فَأُولَئِکَ هُمُ العَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَوَاتِهِمْ يُحَـافِظُونَ * أُولَئِکَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ]. {المؤمنون:١-١١}

فالصلاة عنوان للعبودية والتقوى بالإجتناب عن عمل المنكرات، فقال(ص): "مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعداً.

والصلاة أيضاً مرتبطة بالصلاح الإقتصادى المتمثل بالإنفاق فى سبيل الله ورعاية المحرومين، وهكذا اقترنت الصلاة فى أكثر الآيات بالزكاة والإنفاق، كقوله تعالى: [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ] {البقرة:٣}

وأيضاً نظافة السلوك وسموه عن الرذائل الأخلاقية التى تحط من الشأن الإنسانى فضلاً عن الشأن الإيمانى.

ومن ثمّ الإلتزام الأخلاقى الرفيع بالإلتزام بالعهود الإجتماعية وحفظ الأمانات ورعاية حقوق الناس.

ويمكن أن نجمع ذلک فى أنّ الإيمان والعمل الصالح توأمان لايفترقان فى سائر نشاط الإنسان ومحطات حياته، فالإيمان يشع فى الوجود الإنسانى: النور، ويبعث فى روحه الحركة نحو الخير، والعمل الصالح هو إستجابة النفس لذلک الإيمان وتصديق السلوک لصدقه وإخلاصه، وهو يرجع بدوره ليؤكّد الإيمان ويثبته.

فالأخلاق الحسنة لا تعنى أن يكون الإنسان حلو اللسان، ليّن العريكة، دمث الخلق.. فتلک من الكماليات فى الأخلاق، لا الضروريات والواجبات، فما قيمة كل ذلک مع الخيانة فى الأمانة؟ أو الفحشاء والمنكر والبغى، أو الكذب والإحتيال، لذلک يعرف الإمام على بن أبى طالب حُسن الخُلق بأنّه السلوک القويم والتصرُّف السليم، فيقول: «حُسن الخلق إجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسُّع على العيال.»

وهكذا نجد فى القرآن الكريم، المكارم والفضائل فى الأخلاق والأعمال، تتردّد كثيراً فى سوره، فأكّد على العفّة والإحتشام وغضّ البصر، والصدق، والتواضع، وكظم الغيظ، واجتناب سوء الظن، والصبر، والإعتدال، وحُسن الإستماع والإتباع، وإخلاص السرائر.

وفى المقابل، إجتناب الكذب وقول الزُّور، والنِّفاق، والبخل، والإسراف، والكبر والعجب، والتفاخر،

والحسد والطمع، والزِّنا، وتعاطى الخمر والخبائث، وتعاطى الكسب الخبيث، وكل وَسَخٍ أخلاقى.

الأخلاق الطيبة وأثرها على الفرد والمجتمع

فبناءً على ما ذكرنا ان الاخلاق الحسنة لها تأثير ايجابى على الفرد والمجتمع، وهذا التأثير لم يكن الاهتمام به من اجل تحصيل الاجر والثواب والفوز برضوان الله تعالى فحسب، بل هو اسلوب ومنهاج عملى وفاعل فى التأثير فى المجتمعات، فما خلا مجتمع من الاخلاق الا وعمه الخراب والفساد وهجمت عليه البلايا والمحن. وهذا بالفعل ما نراه ملموساً فى كثير من المجتمعات فى وقتنا الحاضر، لذلک كان اهتمام الاسلام عميقاً بالجانب الاخلاقى، وقد اكد البارى (جل جلاله) على جانب الاخلاق واهميته عندما مدح رسوله الكريم(ص) فى القرآن الكريم قائلاً [وَإِنَّکَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ]{القلم:۴} وقد بيّن عليه الصلاة والسلام ايضاً ان من تكون صفته وسماته الاخلاق الحسنة فإنه من اقرب الناس واحبهم اليه يوم القيامة عندما قال فى الحديث الشريف «ان احبكم الىّ واقربكم منى مجلساً يوم القيامة احسنكم اخلاقاً، الموطئون اكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، وان ابغضكم الىّ وابعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون».

وان الاخلاق الحسنة هى المنهاج القويم والسلوک الصحيح فى المجتمع. ويكاد يكون التخلق باخلاق رسول الله(ص) و بشتى الامور هو من سياسات عقيدة المسلم الكامل وفى ذلک يقول(ص) «انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق.»

والتخلق باخلاق رسول الله(ص) يكون له انواع كثيرة، منها: الصدق والامانة والمحبة والاخلاص فى العبادة وفعل الخير والدلالة عليه والدعوة اليه والامر والنهى عن ضده وهو المنكر

وكلما ازداد تمسک المسلم بمكارم الاخلاق وفضائلها زادت قيمته وزاد رضا الله عنه واحبه الناس وتعلقوا به واصبح موضع ثقتهم واحترامهم.

لأخلاق الأسلامية وفوائدها ومكانتها فى الأسلام

الأخلاق الأسلامية تعكس المحبة بين الناس وتجعل روابطهم قوية. ليس هناک مجتمع متماسک من دون ان يتحلى افراده بالأخلاق الحميدة التى حثّنا عليها الله ورسوله ومكانة الأخلاق الحميدة فى الأسلام مهمة جداً. فالرسول(ص) حثّنا على الألتزام بالأخلاق والمجتمع خالى الأخلاق يكون مجتمعاً فاسداً.

من اخلاق المؤمن وصفاته

التعاون هو من اهم الأخلاق الواجب على المسلم التحلى بها فالتعاون هو مساعدة الناس وعمل شخصين او اكثر على انتاج شيء يصعب انتاجه والتعاون له مذاق طيب لايخفى الا على الشخص كاره التعاون والتعاون يحفز الناس على عدم الأنانية.

الأخلاق ودورها فى بناء الفرد والمجتمع

ورد ذكر«الخُلُقِ» فى القرآن الكريم مرتين، أولاهما بصفة الذم فى سورة الشعراء [قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ] {الشعراء:١٣٦و١٣٧}، أى إن هذا الذى نحن عليه إلا دين الأولين من آبائنا ونحن تابعون لهم متمسكون بمنهجهم وسالكون مسلكهم فى التصرف والمعاملة، وهو رد الكفار المعرضين عن دعوة الإيمان والتوحيد والسلوک الرضى.

أما ثانيتهما ففى الآية الرابعة من سورة القلم، بصفة المدح والإشارة بأخلاق الرسول(ص) بقوله تعالى [وَإِنَّکَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ]{القلم:٤}

إن «الخُلُقَ» هو الصورة الملموسة غير المتكلفة من معاملات المرء وحركاته وسكناته، وهو بذلک انعكاس لصورته النفسية وأوصافها ومعالمها، لذلک فالثواب والعقاب متعلقان به، أى بتصرفاته الظاهرة المؤثرة فى المجتمع والمتأثرة به.

إن الرجل قد تضطره الحاجة إلى بعض التصرفات الإيجابية والأعمال الحسنة فيقوم بها متكلفا، ولكنه

لايستطيع المواظبة عليها، لذلک لا تدعى هذه الأعمال خلقا له؛ والرجل يقوم بها بكل يسر وسهولة ويداوم عليها فتعد من أخلاقه وشيمه. وعندما مدح رب العزة نبيه(ص) [وَإِنَّکَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ] {القلم:۴}، أمره فى سورة أخرى بأن يخاطب قومه بقوله [قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ] {ص:۸۶}، أى لست متكلفا لهذه الأخلاق، وإنما هى طبع وسجية وشيم، لأن المتكلف لايدوم أمره، بل يرجع إلى طبعه الأصلى ما لم يروض نفسه طويلا حتى يتكرس تصرفه الجديد ويصير خلقا وشيمة.

وفى عصرنا هذا، ونحن نشهد من انحطاط الأخلاق وتسيب التصرفات ما يخجل القلم من تسطيره، واللسان من ذكره، والمخيلة من تصوره ، سلط الله تعالى على المسلمين الفتن والمحن والفقر والجوع وألبسهم شيعا يذيق بعضهم بأس بعض. أليس فى هذا ما يشرح قوله تعالى [وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا] {الطَّلاق:۸و۹}، وقوله عز وجل [ذَلِکَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَکُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ] {الأنفال:۵۳}.

لذلک اهتمت البعثة النبوية بالجانب الأخلاقى ومهدت وبشرت به، قبل نزول الوحى والتقاء المصطفى بجبريل(ع)، وشاع فى مجتمع مكة عطر أخلاق محمدىّ الذى لم يسجل عليه سوء منذ عرفته الأرض والسماء، وسمّى الأمين الصادق لدى الأحباب والأعداء.

الأخلاق الفاضلة فى المجتمع البشرى بين الإسلام وعلم الأخلاق

يعتبر (علم الأخلاق) من أهم مباحث علم الاجتماع لدى الرسالات السماوية، خصوصا فى الشريعة الإسلامية المقدسة، إذ بدون الأخلاق الفاضلة لا يعود للدين معنى، كما لا يعود للدنيا مفهوما، حيث تصبح حياة البشر أشبه شيء بغابة وحش، فينعدم الأمن فى المجتمع، وتسود الغرائز الحيوانية،وتعم الفوضى.

أهمية الأخلاق فى المجتمع البشرى

من البديهى أن الإنسان مدنى واجتماعى بالطبع وان وقع الاختلاف فى انه مدنى بالطبع الأولى أم الطبع الثانوى.

وأى كان فلابد للإنسان من الأخلاق الفاضلة، لان الحياة المجرة عن الأخلاق ضياع وحيرة وظلال، بل ينعدم طعم الحياة فى ظل غياب الأخلاق الطيبة، يشترک الإنسان مع البهائم فى غالب الصفات من الأكل الشرب والنوم واللائذ البدنية والمتطلبات المادية، أحيانا كثيرة فى الأعضاء الجسمية والشكل الظاهرى، ويمتاز عنها ويفترق فى عنصر الأخلاق الفاضلة التى تعبر عما منحه الله من موهبة العقل، وشرفه بها على البهائم.

إن حكمة الله تعالى فى خلق الإنسان جعلت الفرد قاصراً عن توفير مستلزمات حياته، وعن إعمار الأرض دون التعاون والتعايش مع سواه.

لذا يجب أن تولى أبحاث علم الأخلاق الاهتمام الكافى، لأن قوام الاجتماع محتاج إليها.

إن الحاجة للأخلاق، علماً وعملاً، تبدأ منذ اللحظات الأولى فى حياة كلّ إنسان.

ينشط الضمير فى كل فرد محاولاً تحريكه باتجاه فعل الخير، والانخراط مع الجماعة بسلوک متميّز.

الأخلاق هى الفكر العملى، والسلوک التنفيذى للمرء، فكل فعل يصدر عن وعى من صاحبه هو ثمرة نمطه الأخلاقى. وهذا النمط الخلقى هو ثمرة التقاء عقله مع وجدانه وضميره، فالثلاثة معاً يكونون شخصية الإنسان، ويحكمون سلوكه الذى نحكم من خلاله عليه إذا كان ذا أخلاق خيّرة، أو شريرة. وبعد ذلک تتحوّل قيم الإنسان إلى شعور باطنى يصاحب كل إراک أو فعل عنده بأى جانب من جوانب الحياة ارتبط، وبذلک نرى الإنسان على ضوء هذا الشعور يرتاح أو ينزعج أمام حدث ما، يطمئن أو يقلق، يقدم أو يتردّد... .

إن هذا الشعور يجب ان يتجاوز الذات ليصبح مصدر مشاركة الآخرين، وسبيل الانصهار مع الجماعة،

لأنّه من غير المجدى أن ينكفئ الإنسان على ذاته يوجّه لها اهتمامه، فمثل هـذا الامـر هـو إفـراط فـى الأنانية يهدّد وحدة المجتمع، ويطلق العنان للغريزة الخاصة، فيتحوّل الشخص فى ظـلّ ذلـک إلـى عبـد للشهوة.

إن الشعور المتولّد عن قانون الأخلاق الخّيرة يتجاوز الواحد إلى الجماعة، ويضرب الأنانية لحسـاب الإيثار والتضحية.

الأخلاق الخيّرة هى أساس صلاح الفرد، وصلاح الجماعة. وقوام الخلـق القـويم المعرفـة، لأنّ المـرء حتى فى حالة التأمّل الذاتى يكون فى حالة التعرّف على قدرات النفس ومركزها حتى يتجـاوز الإنسـان حدوده إذا جهل حقيقة ذاته.

الأخلاق ضرورة عصرية

تتردّى المجتمعات المعاصرة، خاصة فى أوروبا الغربية والشرقية وأمريكا، فى واقع اجتماعى مأساوى، فمن العلاقات الجنسية الشاذة، إلى الإباحية المفرطة فى هذا المجال وصولاً إلى الإدمان علـى الكحـول الذى بات معضلة تشلّ طاقات الكثيرين، مما دفع بالحكومات لأن تسعى جادة من أجل إيجـاد الحلـول هذه المعضلات. هذا عدا التفكّک الأسروى، وتناقص عدد السكان، وذلک الفراغ الروحـى الهائـل الـذى يعيشه إنسان مجتمعاتهم، حيث لايجد من يواسيه إذا أصيب بمصيبة، ولا من يشاركه وجدانه إذا كان فى حالة سرور أو ألم، مما ولّد قلقاً وتشاؤماً يلّفّ حياة الأفراد فى مجتمعاتهم.

الخلاصة

١. أكّد الإسلام على الإرتباط الوثيق بين الإيمان والسلوك الأخلاقى القويم فى معادلة متقابلة.

٢. الصلاة عنوان للعبودية والتقوى بالإجتناب عن عمل المنكرات.

٣. الصلاة مرتبطة بالصلاح الإقتصادى المتمثل بالإنفاق فى سبيل الله ورعاية المحرومين.

٤. ان الاخلاق الحسنة لها تأثير ايجابى على الفرد والمجتمع، وهذا التأثير لم يكن الاهتمام به من اجل تحصيل الاجر والثواب والفوز برضوان الله تعالى فحسب، بل هو اسلوب ومنهاج عملى وفاعل فى التأثير فى المجتمعات.

٥. التعاون هو من اهم الأخلاق الواجب على المسلم فى المجتمع التحلى بها فالتعاون هو مساعدة الناس وعمل شخصين او اكثر على انتاج شيء يصعب انتاجه والتعاون له مذاق طيب لايخفى الا على الشخص كاره التعاون والتعاون يحفز الناس على عدم الأنانية.

٦. الأخلاق هى الفكر العملى، والسلوك التنفيذى للمرء، فكل فعل يصدر عن وعى من صاحبه هو ثمرة نمطه الأخلاقى. وهذا النمط الخلقى هو ثمرة التقاء عقله مع وجدانه وضميره، فالثلاثة معاً يكونون شخصية الإنسان.

بسمه تعالی

الاخلاق الاسلامية

الدرس ۳۲

فصل في الأخلاق آداب التعلم و التعليم

الاستاذ: مهدی سازندگی

بكالوريوس

تمهيد

التعلم هو: طلب العلم وتحصيله، والسعى من أجله، وبذل الجهد فى سبيله، وتحمل المشاق وسهر الليالى وإنفاق الأموال ومفارقة الأهل والأوطان رغبة فيه وجرياً وراءه.

فالعلم صفة مكتسبة بوسائل عدة منها: مجالسة العلماء، والاطلاع على أقوالهم، ومعرفة مناهجهم، وحفظ كلياتهم، وتتبع فروع مسائلهم، وإجراء تجاربهم، والاستفادة من خبراتهم، والنظر فى كتبهم، والكتابة إليهم، ومحاورتهم ونحو ذلک.

والتعلم مفتاح الوصول إلى العلم، وهو صفة من صفات الرب سبحانه وتعالى بالدرجة الأولى، كما أنه سلم الارتقاء إلى المنازل العلى، وزينة وتطهير للنفس من الأخلاق الدنيا.

والعلم باب للاستفادة من كل ما خلق الله فى الأرض، ووسيلة لتطوير المعايش واختراع الآلات.

المحتوي العلمى

لكل من التعلم و التعليم آداب و شروط:

و اما آداب التعلم

فمنها أن يجتنب المتعلم عن اتباع الشهوات و الهوى و الاختلاط بأبناء الدنيا.

و لقد قال بعض الأكابر: «كما أن الحاسة الجليدية إذا كانت مئوفة برمد و نحوه فهى محرومة من الأشعة الفائضة عن الشمس، كذلک البصيرة إذا كانت مءوفة بمتابعة الشهوات و الهوى و المخالطة بأبناء الدنيا فهى محرومة من إدراک الأنوار القدسية و محجوبة عن ذوق اللذات الإنسية».

و منها ان يكون تعلمه لمجرد التقرب إلى اللّه و الفوز بالسعادات الأخروية، و لم يكن باعثه شيئا من المراء و المجادلة، و المباهاة و المفاخرة، و الوصول إلى جاه و مال، أو التفوق على الأقران و الأمثال.قال

الباقر(ع):«من طلب العلم ليباهی به العلماء أو يماری به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها».

و قال الصادق(ع): «طلبة العلم ثلاثة، فاعرفهم بأعيانهم و صفاتهم صنف يطلبه للجهل و المراء، و صنف يطلبه للاستطالة و الختل، و صنف يطلبه للفقه و العقل. فصاحب الجهل و المراء مؤذ ممار، متعرض للمقال فی أندية الرجال بتذاكر العلم و صفة الحلم، و قد تسربل بالخشوع و تخلى من الورع، فدق اللّه من هذا خيشومه و قطع منه حيزومه، و صاحب الاستطالة و الختل ذو خب و ملق، يستطيل على مثله من أشباهه، و يتواضع للأغنياء من دونه، فهو لحلوانهم هاضم و لدينه حاطم، فأعمى اللّه على هذا خبره. و قطع من آثار العلماء أثره. و صاحب الفقه و العقل ذو كآبة و حزن و سهر، قد تحنک فی برنسه و قام الليل فی حندسه، يعمل و يخشى و جلا داعيا مشفقا مقبلا على شأنه عارفا بأهل زمانه مستوحشا من أوثق إخوانه، فشد اللّه من هذا أركانه و أعطاه يوم القيامة أمانه».

و منها أن يعمل بما يفهم و يعلم، فإن من عمل بما يعلم ورثه اللّه ما لم يعلم. و قال الصادق(ع): «العلم مقرون إلى العمل، من علم عمل و من عمل علم، و العلم يهتف بالعمل فإن أجابه و إلا ارتحل عنه».

و عن السجاد(ع): «مكتوب فی الإنجيل: لاتطلبوا علم ما لاتعملون و لما تعملوا بما علمتم، فإن العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفراً و لم يزدده من اللّه إلا بعدا».

و عن النبی(ص): «من أخذ العلم من أهله و عمل بعلمه نجا، و من أراد به الدنيا فهی حظه».

و عنه(ص): «العلماء رجلان: رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج، و عالم تارک لعلمه فهذا هالک، و أن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارک لعلمه، و أن أشد أهل النار ندامة و حسرة رجل دعا عبدا إلى اللّه فاستجاب له و قبل منه، فأطاع اللّه فأدخله الجنة، و أدخل الداعی النار بترک عمله و اتباعه الهوى و طول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق و طول الأمل ينسى الآخرة».

و منها أن يحافظ شرائط الخضوع و الأدب للمعلم، و لايرد عليه شيئا بالمواجهة، و يكـون محبـا لـه بقلبه، و لاينسى حقوقه، لأنه والده المعنوى الروحانى، و هو أعظم الآباء الثلاثة.

قال الصادق(ع): «اطلبوا العلم و تزينوا معه بالحلم و الوقار، و تواضعوا لمن تعلمونه العلم، و تواضعوا لمن طلبتم منه العلم، و لاتكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم».

لكل متعلم أن يطهر نفسه أولاً من رذائل الأخلاق و ذمائم الأوصاف بأسرها، إذ ما لم يجرد لوح نفسه عن النقوش الردية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم و الحكمة من ألواح العقول الفعالة القدسية.

و اما آداب التعليم

فمنها ان يخلص المعلم تعليمه للّه سبحانه و لم يكن له فيه باعث دنيوى مـن طمـع مـالى أو جـاه و رئاسة أو شهرة بين الناس، بل يكون الباعث مجرد التقرب إلى اللّه تعالى و الوصول إلى المثوبات الأبدية، فإن من علم غيره علما كان شريكاً، فى ثواب تعليم هذا الغير لآخر، و فى ثواب تعليم هذا الآخر لغيره... و هكذا إلى غير النهاية، فيصل بتعليم واحد إلى مثوبات التعاليم الغير المتناهية، و كفى بهـذا لـه فضـلاً و شرفاً.

و منها أن يكون مشفقاً على المتعلم ناصحاً له، مقتصراً فى الإفادة على قدر فهمه، متكلماً معه باللين و الهشاشة لابالغلظة و الفظاظة.

و منها أن لايضن العلم من أهله و يمنعه عن غير أهله، لأن بذل الحكمة للجهال ظلم عليها، و منعهـا عن أهلها ظلم عليهم.

و منهـا أن يقول ما يعلم و يسكت عما لايعلم، حتى يرجع إليه و يعلمه، و لايخبـر المتعلمـين ببيـان خلاف الواقع. و هذا الشرط لا يختص بالمعلمين، بل يعم كل من تصدر عنه المسائل العلميـة كـالمفتى و القاضى و أمثالهما. و قال الباقر(ع): «حق اللّه على العباد أن يقولوا ما يعلمون و يقفوا عند ما لايعلمون.»

و قال الصادق(ع): «إن اللّه تعالى خصّ عباده بآيتين من كتابه ألا يقولوا حتى يعلموا و لايردوا ما لم يعلموا، فقال: [أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الحَقَّ] {الأعراف:١٦٩} و قال: [بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ] {يونس:٣٩}

و عنه(ع): «إذا سئل الرجل منكم عما لايعلم، فليقل لا أدرى، و لا يقل: اللّه أعلم، فيوقع فى قلب صاحبه شكاً. و إذا قال المسئول لا أدرى، فلا يتهمه السائل».

و عنه(ع): «إياک و خصلتين ففيهما هلک من هلک، إياک أن تفتى الناس برأيک، أو تدين بما لاتعلم».

و عن الباقر(ع): «من أفتى الناس بغير علم و لاهدى، لعنته ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب و لحقه وزر من عمل بفتياه».

و ربما كان لكل من المتعلم و المعلم آداب أخر تظهر لمن وقف على فن الأخلاق. ثم العارف بأهل زماننا يعلم أن آداب التعلم و التعليم كسائر الآداب و الفضائل فيهم مهجورة، و الأمر فى مثل الزمان كما قال فى وصفه بعض أهل العرفان «قد فسد الزمان و أهله، و تصدى للتدريس من قل علمه و كثر جهله، فانحطت مرتبة العلم و أصحابه، و اندرست مراسمه بين طلابه».

ما هو اشرف العلوم

العلم كله و إن كان كمالاً للنفس و سعادة، إلا أن فنونه متفاوتة فى الشرافة و الجمال و وجوب التحصيل و عدمه، فإن بعضها كالطب و الهندسة و العروض و الموسيقى و أمثالها، مما ترجع جل فائدته إلى الدنيا و لايحصل بها مزيد بهجة و سعادة فى العقبى، و لذا عدت من علوم الدنيا دون الآخرة، و لايجب تحصيلها، و ربما وجب تحصيل بعضها كفاية.

و ما هو علم الآخرة الواجب تحصيله، و أشرف العلوم و أحسنها هو العلم الإلهى المعرف لأصول

الدين، و علم الأخلاق المعرف لمنجيات النفس و مهلكاتها، و علم الفقه المعرف لكيفية العبادات و المعاملات، و العلوم التى مقدمات لهذه الثلاثة كالعربية و المنطق و غيرهما يتصف بالحسن و وجوب التحصيل من باب المقدمة، و هذه العلوم الثلاثة و إن وجب أخذها إجمالاً إلا أنها فى كيفية الأخذ مختلفة فعلم الأخلاق يجب أخذه عيناً على كل أحد على ما بينته الشريعة و أوضحه علماء الأخلاق، و علم الفقه يجب أخذ بعضه عيناً إما بالدليل أو التقليد من مجتهد حى، و التارک للطريقين غير معذور، و لذا ورد الحث الأكيد على التفقه فى الدين. قال الصادق(ع): «عليكم بالتفقه فى دين اللّه و لاتكونوا أعرابا، فإنه من لم يتفقه فى دين اللّه لم ينظر إليه يوم القيامة و لم يزک له عملاً».

و قال(ع): «ليت السياط على رءوس أصحابى حتى يتفقهوا فى الحلال و الحرام».

و قال(ع): «إن آية الكذاب أن يخبرک خبر السماء و الأرض و المشرق و المغرب، فإذا سألته عن حرام اللّه و حلاله لم يكن عنده شيء».

و أما أصول العقائد فيجب أخذها عيناً من الشرع و العقل، و هما متلازمان لايتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله و الحاكم العدل الذى تطابق أحكامه الواقع و نفس الأمر، فلايرد حكمه، و لولاه لما عرف الشرع، و لذا ورد: «أنه ما أدى العبد فرائض اللّه حتى عقل عنه، و لابلغ جميع العابدين فى فضل عبادتهم ما بلغ العاقل».

فهما متعاضدان و متظاهران، و ما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضا، و كيف يكون مقتضى الشرع مخالفا لمقتضى ما هو حجة قاطعة و أحكامه للواقع مطابقة، فالعقل هو الشرع الباطن و النور الداخل، و الشرع هو العقل الظاهر و النور الخارج، و ما يتراءى فى بعض المواضع من التخالف بينهما إنما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع منه، فإن كل عقل ليس تاماً، و كلما ينسب إلى الشرع ليس ثابتا منه، فالمناط هو العقل الصحيح و ما ثبت قطعا من الشريعة، و أصح العقول و أقواها و أمتنها و أصفاها هو عقل صاحب الوحى، و لذا يدرک بنوريته ما لاسبيل لأمثال عقولنا إلى دركه،

كتفاصيل أحوال نشأة الآخرة، فاللازم فى مثله أن نأخذه منه إذعاناً و إن لم نعرف مأخذه العقلى.

الخلاصة

١. من اهم آداب المتعلم: ١. اجتنابه عن اتباع الشهوات و الهوى و الاختلاط بأبناء الدنيا. ٢. تعلم لمجرد التقرب إلى اللّه و الفوز بالسعادات الأخروية. ٣. أن يعمل بما يفهم و يعلم. ۴. و أن يحافظ شرائط الخضوع و الأدب للمعلم.

٢. من اهم آداب المعلم: ١. ان يخلص تعليمه للّه سبحانه و لم يكن له فيه باعث دنيوى من طمع مالى أو جاه و رئاسة أو شهرة بين الناس. ٢. أن يكون مشفقاً على المتعلم ناصحاً له، مقتصراً فى الإفادة على قدر فهمه، متكلماً معه باللين و الهشاشة لابالغلظة و الفظاظة. ٣. أن لايضن العلم من أهله و يمنعه عن غير أهله. ۴. أن يقول ما يعلم و يسكت عما لايعلم.

٣. أشرف العلوم و أحسنها هو ثلاثة علوم و مقدماتها: العلم الإلهى المعرف لأصول الدين، و علم الأخلاق المعرف لمنجيات النفس و مهلكاتها، و علم الفقه المعرف لكيفية العبادات و المعاملات.